خريف الوهم

روايـة

علاء سعد حميده

عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

القارئ وحده يستطيع أن يفصل بين الحقيقة والخيال!

إلى الذين عايشوا تلك الأحداث في عالمنا المحيط.

هذه المذكرات صورة من الحقيقة التقطتها عن قرب عدستي الخاصة. حيث أؤمن أن تاريخ حقبة ما هو مجموع تلك الصور التي التقطتها عدسات مجموعة من الفرقاء من زوايا مختلفة.

تنحّى (مبارك)[1]، وغنّى الشعب، ورقص الناس في الشوارع والميادين، كما لم يغنوا ويرقصوا في احتفالاتهم باحتفاظ منتخب كرة القدم بكأس الأمم للمرة الثالثة على التوالي!

طفر وجه (عزّة) بالبشر والسعادة، وأسندتُ رأسي إلى وسادتي، وأغمضت عيني وأنا أستعرض خيالات الماضي والحاضر والمستقبل! وتساءلت: (فليتنحَ (مبارك). وهل كانت معركتنا من الأساس ضد حكم (مبارك)؟ لقد عاصرتْ الدعوة ملكيْن وأربعة رؤساء، وما زالت الأهداف بعيدة لم تتحقق! باغتني سؤال مُزعج: (تُرى ما هي الأهداف الإجرائية الواقعية حقا؟!) لم أستطع المراوغة بتذكّر أهداف عامة فضفاضة لا يمكن قياسها في الواقع. فأصعب الأسئلة على الإطلاق هي تلك التي نسألها لأنفسنا، حيث لا فكاك ولا مداورة. حدّثتني (عزّة) من قبل عن الأهداف الإجرائية وقابليتها للقياس. وعن الأحلام (الهروبية) عبر الشعارات الكبيرة البرّاقة التي تغشى العين، وتصمّ الأذن، رغم عدم قابليتها للقياس أو المتابعة. كريشة في مهب ريح. وما تزال الريشة تعلو وتحلّق، وما زالت الأبصار تحدّق بها. دون أن نملكها بين أيدينا! وأخذني التأمل في الطريقة التي أُعلن بها التنحّي. الطريقة التي طوّقت نبوءة الحكيم. فلم تعطِ فرصة لاعتبار مآل الأمر إلى المجلس العسكري انقلابًا عسكريًا، إذ هو تفويض من صاحب الشرعية الدستورية. ضربة معلم إذن!

لو أني صاحب القرار النهائي في تنظيم الإخوان، لنفذّت بصرامة التطمينات التي صدرت عن اجتماع مجلس الشورى، أو أغلب أعضائه عشيّة (إعلان التنحي)، من عدم انتهاج مبدأ الاستحواذ السياسي. المشهد برُمّته لا يُطمئن، ولا يُثير طمعنا نحو أغلبية برلمانية، ولا السعي للحصول على موقع رئاسة الجمهورية. الخروج الآمن الوحيد من ورطة الثورة المباغتة، أن نظل في مقاعد المعارضة. ما فائدة الثورة التي انتصرت إذن؟!

أن ننتقل من موقع المعارضة المهمّشة، الملعوب بها كورقة أمنية، إلى موقع المعارضة الفاعلة التي يتعامل معها الجميع داخليًا وخارجيًا كملف سياسي لا أمني. تطوّر صغير من حيث الشكل في أعيْن المتعجّلين والمتحمّسين واللاهثين، لكنه خطير في رصانته وأثره. لو أدركنا ذلك وفعلناه لدانَ لنا الأمر بعد عشر سنوات! وإن لم نفعل ستصبح الثورة وبالًا علينا. وبالًا على الجماعة والتنظيم!

[1] - محمد حسني مبارك تولى الحكم أكتوبر ١٩٨١وأعلن تنحيه عن الحكم ١١فبراير ٢٠١١

لكنّ أطرافًا أخرى كثيرة ظلت تضغط في عكس هذا الاتجاه!! فهل حقًا نحن من القوة بحيث نتحمّل تلك الضغوط الشرسة؟ هل نملك عصمة (يوسف) عليه السلام، إذ قالت له "هيْت لك" وغلّقت الأبواب، فقال: "معاذ الله"!

وتحوّلت الثورة إلى وبالٍ في صورة منحة "وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ". ولم يكد يمر شهر واحد على تنحي (مبارك)، إلا ورمتنا ثورة (يناير) المجيدة بويلاتها!

من قتل "إســـلام"؟![٢]

(١)

- أرجوك يا محمد يا ولدي لا تنزل..

يضع سماعة "هيدفون" المحمول في أذنه، يهُزّ رأسه لأسفل وأعلى في حركة إيقاعية مع أنغام أغنية "رامي جمال" "يا بلادي.. يا بلادي... أنا بحبك يا بلادي".. متجاهلا رجاء أمه، مدّعيا أنه لم يسمع، لم يفهم، لم ينتبه، ولم يلتفت!

تخطو نحوه في رجاء، وفي عينيها دمعة، وفي قلبها أمل، تحتضنه بلهفة: (لأجل خاطري يا محمد لا تنزل. لا أريدك أن تقف أمام أخيك وجها لوجه. أرجوك يا ولدي. اليوم أنت وشقيقك إسلام. إمّا قاتل وإمّا مقتول.) تملّص من حضنها، ادّعى الصمم والبلَه!

لا يستطيع أن يُنكر أن قلبه أوجعه، كاد يتراجع عن النزول، قاوم عاطفته، أجاب توسلاتها ببرود: (أنا مستعد لعدم النزول اليوم.) في لحظة كاد قلبها يرقص فرحًا بين آلامه ومخاوفه. باغتها بحسم: (بشرط واحد. اضمني لي ألا ينزل هو الآخر.)

طعنها بخنجر حيرة قاتلة، قالت في تردد: (سأحاول. أعدك يا ولدي سأحاول منعه). قال في صرامة: (إمّا أن ننزل سويّا. أو نمكث سويّا. لن أتركه ينزل بمفرده.)

- تعقّل يا ولدي.
- دائمًا تنحازين له، رغم أنني ابنك البكري. لكن للجماعة اعتبارات أخرى! أليس كذلك؟!
- يا ولدي قلب الأم لا يعرف التمييز بين الأبناء.

ركّزَ عينيه في عينيها بنظرة يملؤها التحدي: (واعتبارات الولاء للدين والتنظيم، أُمّاه! لا تنسِ سيدتي أن (أبا عبيدة بن الجراح) قتل خاله. و(أبا بكر)، كاد يقتل ابنه). قالت في ألم: (لكنك مسلم يا محمد وموّحد بالله. يكفي أن اسمك "محمد" على اسم سيدنا...). قاطعها بقوة: (إسلام يبقى بجوارك. أمكُث أنا أيضا إلى جوارك. نتابع أخبار المذبحة بالمحمول. غير ذلك لا تُجهدي نفسك معي.) قالت متوّسلة: (إسلام في موقف دفاع وأنتَ في موقف هجوم. واجبي منع المعتدي من مواصلة عدوانه. ثم أطلب من أخيك السماح والعفو.) زادته كلماتها الأخيرة تمردًا وعنادًا، صرخ في وجهها: (أنا أطلب منه السماح

[٢] - حادثة حقيقية حدثت في مدينة دمنهور شمال غرب القاهرة ديسمبر ٢٠١٢

والعفو! كلا وحاشا.) اندفع خارجًا من المنزل كالقذيفة مُغلقًا خلفه باب الشقة في عُنف. تسمّرت في مكانها لحظات، أسندت قلبها بكفها اليسرى، ورفعت كفها اليُمنى تمسح دموعها. تحرّكت نحو غرفتهما المشتركة. كان يُكمل ارتداء ملابسه، والصوت المنبعث من سماعات الكمبيوتر: "أنا اللي هتفت سلمية". احتضنته بلهفة وهي تستجديه: (لأجل خاطري يا إسلام لا تنزل. هل يطاوعك قلبك أن تقتل شقيقك؟! محمد ليس شقيقك يا إسلام إنه توأم روحك. حياتكما كلها معا. حرام...). واجهها في حزم: (إن لم يقتلني محمد بيديه يا أمي فسيقتل أحد إخواني. وكلهم أغلى عليّ من نفسي. هل يرضيكِ أن يقتل أحد إخواني؟! لا يا أمي. روحي فداء دعوتي وإسلامي). شهقتْ وهو ينسلّ من الغرفة في عزم. لم تقوَ على النُطق. أشفق عليها. أطلّ برأسه هاتفًا: (اطمئني يا أمي. نحن لن نقاتل. نحن نقف فقط لحماية المقر. وابنك محمد "كِبيره" أن يهتف بعورة أُم "المُرسي بتاعنا". فلا محمد يحمل سلاحًا، ولا أنا أخبّئ بين طيات ملابسي خِنجرًا!) انتزع قلبها معه وهو يغلق الباب خلفه في تصميم.

(٢)

لماذا يتعامل الإخوان مع مقرهم باعتباره رمزاً مقدسًا؟!

ما الذي سيحدث لو تركونا نهتف ضدهم ثم ننصرف؟ ماذا لو ألقينا عليه بضع زجاجات حارقة؟!

الموضوع كله رمزي، فلو كان حرق المقر هو الهدف، لحرقناه فجرًا، أو نهارًا أو ظهرًا. كلها أوقات لا يكون لجموع الإخوان تواجد حوله! حق مشروع لنا أن نهتف ضدهم، فهم الذين باعونا في (محمد محمود)[٣] وفي أحداث (مجلس الوزراء)[٤]. هم الذين عقدوا صفقاتهم المشبوهة مع المجلس العسكري على حساب دماء الثوار، وأعراض الثائرات. عصرْنا على أنفسنا (الليمون)، حتى شحّ (الليمون) في السوق وارتفع سعره، وانتخبنا مرشحهم الرئاسي في جولة الإعادة! تنصّلوا من كل وعودهم الزائفة، وأصدر (مرسي)[٥] إعلانا دستوريا يُعلن نفسه فرعونا جديدًا من دون الفراعنة!

مِن حقنا ومِن حقهم أن يسألوا: مَنْ هؤلاء البلطجية الذين يهاجمونهم من الجهة الثالثة؟ من أتى بهم؟! من يدفع لهم؟ ولماذا؟! معركتنا سياسية، فإلى أي طرف ينتمي هؤلاء؟! ولحساب أي الفصائل يعملون؟!

---

[٣] - وقعت هذه الأحداث في الشوارع المحيطة بميدان التحرير وخاصة في شارع محمد محمود بدءاً من يوم السبت ١٩ نوفمبر ٢٠١١ حتى الجمعة ٢٥ نوفمبر ٢٠١١.

[٤] - اشتباكات حدثت بداية من يوم الجمعة ١٦ ديسمبر ٢٠١١ بين قوات عسكرية مصرية من جهة وبين المعتصمين أمام مبني مجلس الوزراء المصري من جهة أخرى.

[٥] - الدكتور محمد مرسي أول رئيس مصري منتخب بعد ثورة يناير يوليو٢٠١٢-٣٠يونيو٢٠١٣

تذكّر لهفة أُمّه ودموعها، حدّث نفسه: (قلقك على رأسي يا أمي. لكن الوطن أغلى. لقد زرعتِ حُبّه في قلوبنا. واليوم يوم جني ثمرة هذا الحُب. اطمئني، فلا أنا ولا إسلام سنتعرّض لأذى إن شاء الله.) سرح بذاكرته في شقيقه إسلام. لم يكن يفصل بينهما في العمر سوى عام واحد، فكانا كما قالت أمهما الليلة، (توأمان)! دائمًا معا. يخرجان معًا، يتنزّهان معًا، ويلعبان معًا، دائمًا هما في فريق واحد لكرة القدم. حتى عندما تحدث مشاجرة مع الأولاد في الشارع، أو في المدرسة، يقفان معًا للدفاع عن أحدهما، أو عن أحد زملائهما.

حاول أن يتذكّر تلك اللحظة التي قررا فيها الانفصال، ومِن ثَمّ التنافس!

هل كانت اللحظة التي أعلن فيها إسلام صارخًا في وجه شقيقه أنه من الآن فصاعدًا (أهلاوي).. ولم يعد (زملكاويًا) مثله! أم اللحظة الأخرى.....

أوقف تدفق ذكرياتهما معا صوت صراخ مرتفع، ودوي هتاف عال يصم الآذان، أبصر هجومًا كاسحًا من فريق البلطجية بالعصي والسنج والأسلحة البيضاء، تحت وابل من قذائف الحجارة، والزجاجات المشتعلة الحارقة. يقابله محاولة التحام من مقدمة صفوف الإخوان، كان مع بعضهم عُصيّ، فهل تصمد العُصيّ لأسلحة المهاجمين؟ همّ أن يتقدم جهة الرصيف أسفل المقر. أراد أن يطمئن على شقيقه (إسلام) أن يحتضنه. أن يصحبه معه ويعودا سويًا إلى البيت، حيث تنتظر أمهما على أحر من الجمر. هل من الممكن أن يفقد إسلام في لحظة. كما سبق وأن فقد كلاهما أباه –في حادثة مروّعة–من قبل؟! لم يستطع المضي في تقدّمه. أجبره الهجوم الحاد على التقهقر حيث يقف السياسيون الثوار.

(٣)

(في جسمي نار ورصاص وحديد... علَمِك في ايدي واسمي شهيد)

يفتح عينيه على اتساعهما، ينبثق في وجهه نور باهر خاطف. تشتعل في رأسه نار ككُرة اللّهب! ثقل جسده يتلاشى. قبل أن يتهاوى. يتشبث بقدميه بالأرض. تتحول إلى وسط مائع، يموج به. يمد ذراعيه علّه يعلق ببعض الأمواج البشرية المتلاطمة كالطوفان، يكافح حتى لا يسقط. في لحظة كَرٍ وفَر تتسع الدائرة حول جسده المعلّق في الهواء. تلوح لحظة السقوط. وعلى شفتيه سؤال أخير مبتور وأخرس: (هل يمكن أن أكون أنا المقتول؟ وأنا القاتل؟! نصفي قاتل، ونصفي قتيل؟!) تُظلم الدنيا في عينيه، وينساب "وَشٌ" مبهم في أذنيه. تنبعث معه رسالته الأخيرة:

يا بلادي.. يا بلادي... أنا بحبك يا بلادي
قولوا لأمي متزعليش... وحِياتي عندك متعيّطيش
قولوا لأمي متزعليش... وحِياتي عندك متعيّطيش
قولولها معلش يا أمي.... أموت، أموت وبلدنا تعيش
أمانة تبوسولي ايديها.... وتسلّمولي على بلادي..

(٤)

عندما تفقد أباك في اللحظة التي يتفتّح فيها وعيَك على الدنيا بالكاد. تُدرك يومها مهما كان عمر هذا الإدراك صغيرًا، تعرف ولو بالفطرة لا بالعقل، أنك فرع نبات متسلّق فقد الدُعامة والسند. صرت ريشة في مهب الريح!

وعلى كل فمن كان أبوك؟ دعامتك في مواجهة الأخطار؟ موظف صغير بالكاد يكفي راتبه مع راتب أمك، لسد بعض الضروريات، ويُعلّمك وشقيقك الاستغناء المبكر عن ضروريات أخرى كثيرة. فلما مات، تحوّل الراتب إلى معاش لا يمكنه إلا زيادة البؤس المادي والنفسي..

وتجد نفسك أبا لأخيك الذي لا يصغرك إلا بعام! –هكذا تقول أُمّه دائما– توصيهما ببعضهما خيرًا!

والأُم مُدرّسة في إحدى مدارس قُرى الأرياف يزيد شقاؤها كل يوم لتهب استمرار الحياة لولدين لم تعد ترى إلا بنورهما!

لم يكن خالهما نبيل في تلك الأيام إلا طالبًا في المرحلة الثانوية، لكن "الخال والد". وتحول (نبيل) الذي لم يكن يكبر محمد فعليًا سوى بعشر سنوات إلى الوالد والصديق والمعلم والأستاذ!

ولأن نبيل شاب إخوانيّ أو ذو ميول إخوانية، وكذلك كانت شقيقته–أمهما–فقد وجدا نفسيهما ينشآن في مراتع أشبال الدعوة، يتنقّلان بين حلقات المساجد وبين مُدرّسين أكبرهم في عمر خالهما نبيل. الكل في فورة شبابه مفعم بالأمل والحب. محمد وإسلام الوادعان الرقيقان يلحظ كل من يقترب منهما أثر حنان أُم فيّاضة العاطفة. ورعاية خال أقرب إلى الصديق. فيخشى على –عودي الياسمين– من الانكسار إذا هبّت أدنى عاصفة! فيلتحما ببعضهما أكثر. كأنهما قررا أن يكونا السند والعود!

(٥)

تبكي الأم، تنتحب، تُكفكف دمعها وتصرخ: (محمد، إياك أن تَمُد يدك تضرب بها إسلام مرة أخرى، إياك.) يُقطّب ما بين حاجبيه يهمُّ بالاحتجاج: (هو....).. يقاطعه صياحها الهادر: (إسلام، آخرة مرة ترفع فيها صوتك على أخيك الأكبر. لن أسمح لك بهذا وأنا على قيد الحياة. لو كان أبوكما.) يغلبها البكاء. يتقدم إسلام أولا، يُخفي محمد ابتسامته، يدنو منه يتعانقان، ويندفعان إلى حضن أمهما. يختلط صوتهما: (امسحي دمعك لن نكررها ثانية.) تُقبّل رأسيهما وتضمهما في حنان.

عندما يغيبان عنها عدة أيام في معسكر الكشافة البحرية، لا تنسَى أن توصي محمد بأخيه: (خذ بالك منه، إنه أصغر منك.) يضحك محمد، يعرف ما ستوصي به إسلام من خلف ظهره. يُسعده أن يكون هو الشقيق الأكبر. يصيح في وجه إسلام بمجرد هبوطهما الدَرَج وغيابهما عن عينيها متصنّعا الحزم: (أكبر منك بيوم. يعرف عنك....). يبتسم إسلام: (ثلاثمائة وستون يوما. إذن أنت تعرف معرفة الماضي والحاضر والمستقبل. يا محمد يا عجوز. أنت قديم). يتخلّص من حقيبته التي يضعها فوق ظهره، يجري متقافزا، يُلقي محمد بحقيبته هو الآخر، ويُصر على اللحاق به، تنقطع أنفاسهما. يعودان للبحث عن الحقيبتين، يدعو محمد في قلق ألا تضيع الحقائب فهو المسؤول!

(٦)

عندما قرر التخلّص من وصاية أخيه، تذرّع بأنه يفضل الأستاذ (حازم) بمسجد الرحمن، عن الأستاذ (هاني) بمسجد الإيمان، فهو لا يفهم من الأستاذ (هاني) شيئًا. جاء ذلك القرار في اليوم التالي لإعلانه الصاخب تشجيع الأهلي بدلا من (الزمالك المريض) –هكذا قال–، احتدمت المنافسة بينهما، من أفضل؟! حازم إمام، أم أبو تريكة؟!

مرّت سنوات عجاف على الزمالك جعلت من إسلام منتصرًا دائمًا ومنتشيًا، يتفاخر بنجوم الأهلي لكرة القدم، ولا يجد محمد فرصة لأن يتيه عليه ولو مرة واحدة، يقولون: (الأيام دول!!)، قانون الرياضة: (أنها غالب ومغلوب)، ف(يوم لك ويوم عليك).

يضحك إسلام مُعابثًا: (إلا بين الأهلي والزمالك، الأيام كلها لنا، لا يوجد يوم علينا!) لا يجد محمد ما يحتّج به سوى أن يزمجر: (اسمع إذاعة (إسرائيل)، تُلقّب ناديك الأحمر بالنادي الأهلي الحكومي!)

ينفجر إسلام في الضحك وهو يجري من أمام أخيه: (الأهلي هو الحكومة، الأهلي هو مصر، الأهلي فوق الجميع!). لا تصل إليه كرة الورق التي يقذفه بها محمد في حنق وغيظ!

اختلفوا على كل شيء في كل الأيام، لكنهم لم يختلفوا على (المعلم حسن شحاته)[٦]، وأفضل احتياطي في العالم (جدو)[٧]. مباريات كأس الأمم هي المباريات الوحيدة التي تتابعها الأُم، أو تتابعهما وهما متسمّرِيْن أمام شاشة التلفزيون مرتاحة البال، فهي المباريات الوحيدة التي لا يهمها نتيجتها، فأيا كانت النتيجة سيتعانقان في ختامها! لو فزنا سيتعانقان وينزلان إلى الشارع يحتفلان مع المحتفلين، ولو خسرنا فسيواسيان بعضهما، ويدمعان معا. بقيّة المباريات، إسلام يضحك ويرقص، ومحمد يدمع ويطأطئ الرأس. دائمًا ما تهتف: (لو كنت مكان اتحاد الكرة لقسّمت الدوري والكأس بين الأهلي والزمالك، ما معنى أن يبيت نصف شباب البلد في حزن من أجل مسابقة في كرة القدم؟!).

(٧)

- الجمعية الوطنية للتغيير.
- نحن الأصل والباقي تقليد رديء. خائب.
- أنتم الخائبون. ثمانون سنة خيْبة.
- لولانا لما كنتم.
- هههههههه.
- اضحك أكثر وأكثر. الشاطر من يضحك أخيرًا، فهو الذي يضحك كثيرًا.
- اسمع يا إسلام. أريدك أن تكبر قليلا. المسألة ليست أهلي وزمالك. المسألة أكبر من ذلك. أنا لا أنكر أنكم طيّبون لكنكم مشايخ. السياسة غير!
- هل تظن أن كم أسبوعًا في كلية الحقوق ستجعل منك زعيمًا ومنظّرًا سياسيًا؟! دعك من عالم السياسة واكتفِ (بوَكستكم) في الكرة!

[٦] - مدرب كرة مصري قاد منتخب مصر للفوز بكأس أمم أفريقيا ثلاث مرات متتالية
[٧] - لاعب كرة مصري وهداف كأ الأمم الأفريقية ٢٠١٠

- أُحدّثك جادًّا. انظر إلى التيارات والتحالفات التي تتكون حولكم وتصنع حِراكًا سياسيًا حقيقيًا. أنتم مغيّبون في أروقة التربية ودهاليز إصلاح الفرد والأسرة. (مبارك) سيوَرّث البلد لأولاده. الموضوع كبير يحتاج لثورة.
- وهل حركات المائة فرد هذه مثل (كفاية) و(٦ إبريل) و(الجمعية الوطنية للتغيير)[٨] هي التي ستصنع ثورة؟ الثورة هذه لا يصنعها إلا جماعة مليونية مثل الإخوان. لو أرادوا!
- تذكّرني بـ(جمال مبارك)[٩]، لا توجد لديّ الرغبة ولا النية! تستطيع أن تذكر لي موقفكم الواضح من التوريث؟!
- توريث ماذا يا هذا. نحن لسنا سوريا. التوريث في مصر مستحيل.
- هل تُنكر أن نائب مرشدكم دكتور (حبيب)[١٠] قال: لا مانع من التوريث ولن نستطيع منعه إذا حدث؟!
- لم يقل هذا. أستطيع أن أقسم لك مغمض العينين أنه لم يقل ذلك. على الأقل حرفيا.
- إليك الصحيفة.
- بللها واشرب ماءها. الإعلام يكذب علينا ويُحرّف التصريحات.
- لماذا تصرّحون دائما إلى إعلام تتهمونه بالكذب؟! أليس هذا تناقضا ودروشة؟!
- مَعذِرَة إلى ربكم.
- آه يا شيخ!

(٨)

- سأذهب للقاهرة غدا. ألن تُغيّر موقفك وتأتي معي؟!

لوى شفتيه، أجاب باقتضاب: (أنا أكبر من المشاركة في هذه الأعمال الصبيانية.).

- أنت لا تعرف شيئًا عما تتحدث عنه. كثير من شباب الإخوان مشاركون معنا.
- لا أصدّق. إما أنهم عيون للأمن يشتغلونكم. أو شباب منفلتين.
- افهم يا بني. ستصبح ثورة مثل ثورة تونس.

[٨] - حركات سياسية مناهضة لتوريث الحكم نشأت منذ عام ٢٠٠٥م وحتى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م وما بعدها.
[٩] - نجل الرئيس حسني مبارك
[١٠] - دكتور محمد حبيب النائب الأسبق لمرشد افخوان في عهد مبارك

أشار إلى رأسه إشارة ذات معنى فهمها محمد على نحو (كبّر دماغك). قال: (ليست عندي أوامر بالنزول معكم. أنا جندي منضبط، لا أتحرك إلا بأمر.)
أجابه بتقزز: (ستظل خروفا).

- اذهب من أمامي قبل أن أنطحك. مااااااااء

(٩)

- مصر ليست لها هوية. هوية مصر متنوعة. متعددة. مختلطة. مزيج بين كل الثقافات والحضارات والشعوب!
- هذه هي (السَلطة) التي تتمنون الوصول إليها ثم إقرارها لمحو هويتنا الأصيلة.
- هل تريد إقناعي بأن هوية مصر إسلامية على الطريقة الوهّابية؟!
- دستور مصر....
- هذا كلام على ورق. قف ساعة من الزمن في محطة (مترو الشهداء). ارصد حشود المصريين وهم يجرون في كل اتجاه، أخلاط من البشر. ارصد آلاف النساء والفتيات المحجبات. وآلاف منهن متبرجات. وعشرات منتقبات. ومئات تلتصق بأفخاذهن سراويل (الفيزون). ترى رجالًا من كل شكل ولون. الصعيدي والبدوي، والفلاح، والنوبي، والساحلي، والقاهري. لكل ملبسه ولهجته وثقافته!
- نحن نتحدّث عن الهوية العقائدية، لا الهوية الثقافية. لا تخلط الأوراق من فضلك؟
- هل أنا الذي أخلط الأوراق؟. وهل هوية مصر العقائدية محل نقاش؟!

هتف إسلام معترضا: (يا سلام.. بهذه البساطة؟! كله تمام، وهويتنا في أمان؟! أين موقع العلمانيين، ودعاة التحلل الأخلاقي؟ ودعاة فصل الدين عن الدولة؟ كل هؤلاء لا يمثلون خطرًا على الهوية من وجهة نظرك؟!

- الشيخ محمد يسري[١١] الداعية المستنير.....
- صه. لا تحدّثني إلا عمن أثق في حُجيّته.
- أعرف. فأنت لا تثق إلا في إسلام البدو. بالمناسبة لا تلوي شفتيك هكذا، فإن أول من وصفكم بإسلام البدو هو شيخكم (محمد الغزالي[١٢]). ويُرددها دائمًا (الدكتور أبو الفتوح[١٣]).

[١١] - محمد يسري سلامة (١ أكتوبر ١٩٧٤ - ٢٤ مارس ٢٠١٣) طبيب أسنان والمتحدث الرسمي السابق باسم حزب النور، وكان من مؤسسي وأحد قيادات حزب الدستور، ومن أحد مؤسسي حركة سلفيو كوستا أيضا.
[١٢] - من علماء الأزهر الشريف والدعوة الإسلامية
[١٣] - دكتور عبد المنعم أبو الفتوح مؤسس حزب مصر القوية

(١٠)

جمعة الوقيعة بين الجيش والشعب
جمعة كاندهار
الدستور أولا
البرلمان أولا..
علامَ اختلفنا؟! لماذا اقتتلنا؟!
لماذا لم نهتف: مصر أولا؟!
هل كان إسلام يقنعه هذا الهتاف؟! أم أنهم لقنوه: (أن التنظيم أولا؟!)
"الله. مصر. الشعب. وبس"

(١١)

لحظة السقوط، اختلط الهتاف المدوّي، بالتكبير، مع الصراخ. لا يدري لماذا شعر بوخز في قلبه؟ لماذا اختار القلق على (إسلام) من بين آلاف المحتشدين؟ بمجرد أن هدأت العاصفة، وجد نفسه في وسط جموع الإخوان على الرصيف أسفل المقر. بالكاد وصل إلى الجسد المُسجّى على الأرض! أصوات مختلطة تصك أذنيه ليس لها معنى. نعيق سيارة الإسعاف التي لن تصل أبدا. لم يعد له معنى هو الآخر.
وجه أخيه (إسلام) هو وجه المسجّى النازف. من أين ينبثق الدم كنافورة انفلت محبسها؟ مِن تلك الرأس الحبيبة؟ هل يمكن أن تسمعني مرة واحدة؟ هل يمكن أن تستوعب كلمتي ولو لآخر مرة في حياتنا؟ هل ممكن أن تُرد لك الروح فقط لتعلم أنني لم أقتلك؟! انكبّ فوق رأس أخيه. اختلطت الدماء بالدموع، حاولوا رفعه، حمْلَه بعيدا عنه، لكنه لم يتتعتع. عندما رفعوا الجسد فوق نقّالة الإسعاف، حملوه معه متشبّثا به. من أولى بشقيقه منه؟! من الذي جاء به إلى هنا، حيث حتفه؟! لم تأتِ به مصر؟ هل أتى به حُكم المُرشد؟ يَسقُط، يسقط حُكم المُرشد!!

(١٢)

(ماذا فعل محمد؟. أين هو. هاتوا لي محمدًا.)
صرختها الأولى لحظة تلقّي الخبر المُفجع. شكّ المعزّون في أسماعهم، وعقولهم. القتيل (إسلام). والأم تصرخ على (محمد). شغلها عن كل شيء سؤال كئيب: (أين هو الآن؟!). هل كُتب عليها أن تفقدهما معا؟ القاتل والمقتول؟ هل كُتب عليها أن تعيش تبتسم في وجه (قابيل)، بعد أن فقدا (هابيل)؟! لن تملك إلا أن تدّعي أنها سامحته على قتل أخيه. لا يسعها إلا أن تفعل. فلو لم تقسم له في كل لحظة أنها سامحته، وأنه لم يكن سببًا في قتل شقيقه، حتمًا سينتحر!!
الله لم يأمر بقتل ولديها، ولا اقتتالهما. (البرادعي[١٤]) ليس نبيًا، و(بديع[١٥]) ليس معصومًا. الله لا يرضى بذلك. الله لا يرضى بذلك.
(وَحّدي الله يا أم محمد. أنت إنسانة مؤمنة. كلنا نسلّم بقضاء الله). لا بد أن صوتها علا قليلًا. هل هذا هو قضاء الله؟!

(١٣)

سمع أنهم يسرقون الثورات. أو يحاولون سرقتها. فهل يسرقون الجنازات كذلك؟!
ما معنى أن يحضر نائب رئيس الحزب الجنازة؟
ما معنى أن يأتي المرشد، وحرم رئيس الجمهورية لعزاء خالي وأمي؟!
أمّموا جنازتك يا (إسلام)؟

(١٤)

أتذكُر؟! يومها قلت لك: (عمل واحد لو أنجزوه لك، سأترك (حزب الدستور)، وأعود إلى صفوف الجماعة. أنتم الآن تحكمون. هذه تقارير بحالة عيني صديقي اللتين فقدهما يوم جمعة الغضب. إحداهما انتهت تماما. الثانية بها نسبة إبصار خمسة بالمائة، تحتاج إلى جراحة عاجلة في ألمانيا. مطلوب مبلغ مائة ألف جنيه. أحد قادة العسكر قبل

[١٤] - الدكتور محمد البرادعي حاصل على جائزة نوبل ومؤسس حزب الدستور.
[١٥] - الدكتور محمد بديع مرشد جماعة الإخوان

انتخابات الرئاسة قال له: (دع مصر التي ثرتم من أجلها تدفع لك تكاليف الجراحة. نحن لا مال لدينا). تذكّر يا إسلام حكومة مُرشدكم الرشيدة صرفت لـ(صاحب فضيّة أولمبياد لندن) نصف مليون جنيه. نريد مائة ألف فقط لإنقاذ عين إنسان مصري حر ثائر!

– لائحة المكافآت الأولمبية موجودة من أيام (المخلوع).

– ليكن. أريد إنقاذ عين صاحبي. هل تستطيع؟!

إسلام كما عهدته كان مخلصًا، ومتحمسًا. قابل أمين الحزب بالمحافظة. وكلّم آخرين من لجان إغاثة. سعى لكنه لم يُفلح. ليته استطاع. ربما كنت الآن مكانه!

(١٥)

أقسمت ألا أهدأ حتى أعرف من هو قاتل (إسلام)، لا لأنفي التهمة عني أمام نفسي.. ولكن لأن إسلام –رحمه الله– يستحق أن نعثر له عن قاتل. نعثر عن إجابة السؤال الحائر لمَ قُتل، وفيمَ قُتل؟! هل عندما أنتهي من قراءة (مذكرات خريف الوهم). سأجد الإجابة حقا؟ هو قال لي ذلك. قال: (ربما لم أكلّف نفسي عناء كتابتها، إلا لتحصلوا على إجابات الأسئلة المحرّمة!)

الجذور!!

أردت دائما أن أقف على الخلفيات، أعرف معرفة وثيقة الخبايا التي رمت بي في أُتون المعركة.

أصبحت بحكم خبرتي وتجاربي واطلاعي اللا محدود على هذا العالم الذي يعيش في الظل بينما يُحرّك كل شيء –تقريبًا– في عالم العرائس الذي نحياه، عبر خيوط شفّافة لا نراها لكنها تُحرّكنا (كالريموتات الالكترونية). وبحكم مقابلاتي الشخصية مع أشخاص من عالم آخر أقرب إلى عالم الجن أو الملائكة. الشيطان يرانا هو وقبيله ولا نراه، احتفظ هؤلاء الأشخاص بخاصية فقدها الشيطان منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام. هؤلاء ما زالوا يستطيعون التشكل بأشكال مختلفة للظهور بها في المجتمعات المتباينة وفق الظروف والأحوال. وكذلك صرت أنا!

أصبحت بحكم ذلك كله ملمًا ببعض ما دار ويدور في كواليس عالم الظِل. لكنني وأنا أترك لك هذه المذكرات لا أزعم امتلاك كل الحقيقة، إنما أملك الجانب المنظور لي منها، وأظنه كافٍ لتدرك حقيقة الأمور، ولتعرف دور الرجل الذي أسقط الإخوان المسلمين من فوق عرش الحكم في مصر، وربما في دول الربيع العربي. لا أدعي أنني كنت وحدي، أو أنني نجحت في هذه المهمة الخطرة بمفردي. لكن تظل عملية "خريف الوهم" هي عملية الاختراق الأساسية التي زلزلت هذا الكيان المرعب، وقوّضت بناء هذا الصرح العظيم!

******

وقعت الواقعة التي زلزلت مصر والوطن العربي بأسره وأنا بعد على عتبات مرحلة المراهقة في (حي الفجالة) حيث منزل أسرتي. هذه السن حيث لا يمكنك القول أننا كنا قد غادرنا براءة الطفولة بعد، إلا من بعض مظاهر أغلبها نمارسه من باب تقليد الكبار، وبعضها يأتي ونحن نحاول إعادة اكتشاف أنفسنا، واكتشاف العالم من حولنا، ولكننا كنا ككل أبناء جيلنا في ذلك الوقت نحمل هموم وطن، ومشكلات القومية العربية أناشيدَ نحفظها ونكررها في المدارس، وفقراتٍ كاملة من الميثاق نحفظها عن ظهر قلب، والأغاني الوطنية تنبعث من المذياع الخشبي الضخم الموضوع بعناية فوق أرفف أعلى الحائط الرئيسي في صالات كل بيوت الشارع حماسةً وحلماً. ومقهى المعلم (سيد) حيث يوجد تلفاز من ماركة (نصر) يبعث شكله على المهابة والاحترام حتى وهو مطفأ الشاشة!

في سن أبكر قليلا كنت أذهب مع أبي إلى المقهى للمشاهدة والاستماع لخطبة الزعيم الملهم، حيث كان والدي يصّر على اختراق صفوف المقاعد المتراصّة في تلاصق وازدحام شديد إلى الصف الأول أو الثاني على الأكثر قربا من التلفاز، حتى لا تفوته فائتةً من لفتات الزعيم!

كنا في طفولتنا سياسيين لأن المجتمع كله حولنا كان مسيّسًا بطبعه وملتهبًا بالحماسة والانفعال، وشعارات القومية العربية والوحدة والجمهورية العربية المتحدة، ثم. (سنغلق المضايق). و(نلقي بإسرائيل إلى البحر). و(لتشرب أمريكا من البحر الأبيض فإن لم يكفها فلدينا البحر الأحمر)!

شعارات وآمال تملك علينا وعلى الناس شغاف قلوبنا وقلوبهم!

حتى أفقنا فجأة مع الزلزال المروع على انكسار. طعم الانكسار غلّف كل شيء في حياتنا على الأعتاب الخلفية لبراءة الطفولة، كما غلّف حياة الناس. نتذوّق مرارة الانكسار مع اللُقمة وشَربة الماء. لم نكن في حالة حزن بعد. لم نكن حتى نستطيع أن ندرك كُنه مشاعرنا هل هي غضب، أم رفض، أم حزن، أو حتى ذهول؟! كنا في مرحلة ضياع. مرحلة تسرّب الأمل من بين أيدينا. عرفنا مبكرًا شعور اسوداد الدنيا في العين البريئة، وضيق الأفق المُطبق على النفس المُجنّحة الطائرة في سماوات الحلم، لتُحبس بين جدران أقفاص حجرية صماء، لا تسمح سوى بحركة الرأس لالتقاط لُقيْمات معجونة بمرارة الذُل والحسرة. أصبحنا ذات ليل أسود وإن ألهبته شمس صيف يونيو الحارقة على:

"عدّى النهار.

والمغربية جايّة

تتخفّى ورا ضهر الشجر.

وعشان نتوه في السكة.

شالِت من لياليا القمر!

وبلدنا ع الترعة.. بتغسل شعرها

جانا نهار مقدرش يدفع مهرها.

يا هل ترى الليل الحزين

أبو النجوم الدبلانين

أبو الغناوي المجروحين

يقدر ينسّيها

الصباح."[١٦]

ووجدنا أنفسنا نُسرع الخطى إلى المجهول خلف كل أهالي الفجّالة من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، وكلنا يهتف في صياح مهتاج ينتمي للنواح بكلمة شعبية نابية نكررها مرتين، ثم يعقبها الهتاف الهادر يصم الآذان: (لا تتنحى)!

وعندما خرج الحشد الهادر من الحي العريق إلى ميدان رمسيس، وجدنا أنفسنا ننساب وسط بحر هائج، تقذف فيه الشوارع والحارات من كل جانب بأمواج متلاطمة، الجميع يرفع ذات الشعار النابي مُعبراً عن شعب يختصر كل الشعارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في (إفّيهات) شديدة التركيز بالفطرة!

*****

وعدّى النهار الملتهب أو الليل الفاحم الحزين الملتحف بسواد العار. بعد أن حفر على مرحلة طفولتنا المتأخرة أخاديد ما عاد لها أن تختفي من الوجدان، فلم تكن تقنية الآلة السياسية والإعلامية الجهنمية قادرة بعد على إصابة الوجدان الجمعي للناس بمرض "الألزهايمر الوطني". فتشكّلت مرحلة مراهقتنا في ظل انعكاسات خيالات وقت المغربيّة وبلدنا ما زالت تغسل شعرها على الترعة المُترعة بدماء الضحايا ودموع الثكالى وأهالي المفقودين!

الحياة لا تقف، والتجاعيد لا تزول، والشيخوخة المبكرة أصابت الزهور فذبلت في البكور، ذبلت مواضع الإحساس، وتبلّد الشعور. لم نعد نهتم!

*****

انفض السامر ودار الناس على أعقابهم آفلين عن السياسة والسياسيين، والوطنية والقومية والوطنيين والقوميين. وأُخرست الألسن، وأُغلقت الأفواه على خواء إلا من حلاوة

[١٦] - https://www.youtube.com/watch?v=x-AqfqhiLT8

روح. أناس لا يصدّقون انهيار المشروع. "ناصر" لم يكن بالنسبة لنا نظامًا سياسيًا، وإنما مشروعنا الوطني والقومي، بل مشروعنا وحلمنا الشخصي. الذين رفضوا تصديق الانهيار المفاجئ أخذوا يهمهمون: (المؤامرة العالمية كانت أكبر منا لكننا صامدون!)

(خسرنا معركة ولم نخسر الحرب!)

وتركت الفجيعة بصماتها على النظام، فانقسم إلى جناحين، تربّص كلاهما بالآخر، بعدما رفعا شعارًا واحدًا: (تقديم كبش فداء للناس لاستمرار باقي النظام!) انتصر فريق (ناصر) وانتحر (عامر) أو نُحر!

فهل رضيَ الناس؟ وهل رضينا؟!

كنّا قد آمنا أن الله أرسل لنا رسولين! ولأنه لا نبي بعد رسول الإسلام محمد – صلى الله عليه وسلم– اعتقدنا أن السماء لا تتوقف عن إرسال أنبياء الوحدة والقومية العربية، فهم لا يتوقفون ولا ينتهون!

فأعقب إيماننا بأنبياء بني الثورة كُفرًا، كيف لا؟ وقد رأيناهم يمرّغون أنف عروبتنا والأمة في التراب، ثم ينقلب بعضهم على بعض، فيصفّي بعضهم بعضًا في وضح النهار!

لا ننكر أن جنودنا ظلوا على الجبهة في حرب استنزاف طويلة، لكننا لم نعد نشعر بهم. لم نعد نصدّق وعود الكذابين ولو صدقوا. لم تبتعد السينما كثيرًا في تصوير حال أغلب الشباب في هذه الفترة عبر أفلام من نوعية ما كتبه أديبنا نجيب محفوظ كـ (ثرثرة فوق النيل). لم تعد لنا هُوية. أو بالأحرى لم نعد نؤمن بهوية.

وانخرطنا في حياة من ضياع. أدمنّا كل ما يمكنه أن ينسينا تيهنا، فازددنا تيهًا على تيه. تعرّت الفتيات، أو ازددن عُريًا على عري، وظهرت موضات وصيحات كـ"الميكروجيب"، واندمجنا في علاقات محرّمة لا تدوم. وهاجر بعض فناني مصر وفناناتها إلى لبنان – باريس الشرق– وقدّموا أسوأ ما يمكن تقديمه من أفلام مبتذلة في السينما العربية. كان احتجاجهم واحتجاجهن صاخبًا بنزع وريْقات التوت!

*****

في هذا التيه المعتم كنت أخبط خبطًا عشوائيًا بلا رابط أو قاعدة. شيء واحد لم أفرّط فيه رغم الظلمات، وهو تفوقي الدراسي. فأستذكر دروسي بجد، وأرى في الانشغال الشديد بالمذاكرة هروبًا من معاناة جيل بأكمله! لم أحب المذاكرة، ولم أخطط لمستقبلي خطة بعينها، ولم أختر مهنة أمتهنها في حياتي بعد تخرجي من الدراسة. لكنني أدفن نفسي كُلّيًا في الكتب المدرسية هربًا من النقمة على كل ما حولنا!

*****

ونجحت في الثانوية العامة بتفوق، والتحقت بكلية الطب. واستقبلت الحياة الجامعية الجديدة بروح جديدة مفعمة بالأمل والطموح والحلم. لقد استعاد جيلنا بالكامل الحلم والأمل، مع نصر أكتوبر المجيد. لم أشارك بطبيعة الحال في المعركة الحاسمة، ولا أحد من زملاء جيلي، فقد كنا في ذاك الوقت في العام الأخير من المرحلة الثانوية أو الدبلوم لمن التحق منا بالتعليم الفني، لكننا استقبلنا عامنا الجامعي الأول بانتصار عظيم كان بمثابة عودة الروح، ولم أعد أهرب من الحياة في المذاكرة والاجتهاد في الدراسة، بل صرت أشارك في صناعة الحياة باجتهادي وحرصي على التفوق والإتقان.

فوجئت بها ذات نهار تجلس في الجهة المقابلة لي أثناء أحد (السكاشن). عجبت لنفسي كيف لم أنتبه لها كل تلك الأشهر الفائتة! ولأول مرة مذ التحقت بكلية الطب أغيب عن الوجود أثناء شرح الأستاذ. ليست فاتنة الجمال، ولم يشدني لها جمالها، فهي تجلس بين فتيات أجمل منها كثيرا. لكنها فتاة تستريح لها العين وهفا لها قلبي! وقورة تفرض شخصيتها على من حولها أكثر بكثير من فرض مفاتنها. محتشمة في أناقة بسيطة تنم عن ذوق سليم بلا ترف أو تكلّف. في هذه السن المبكّرة مللنا العُري الفاضح، رأينا كل شيء تقريبا! في عربات المترو. في الشوارع، في مدرجات الجامعة، وأفيشات أفلام السينما، واجهات كباريهات شارع الهرم، وأغلفة المجلات الأجنبية، والمجلات الفنية العربية.

لم أخطط للحب، فلا يشغل حياتي سوى الاستمرار في تفوقي الدراسي، ولم أضع مواصفات ولا تصورًا ما للحبيبة، ولم أنتظر ظهور حبيبة في هذا الوقت.

فرضت (نبيلة) عليّ شخصيتها من أول (سكشن)! أضاعت عليّ فرصة استيعاب ما يُقال فيه، فحنقت على نفسي لهذا السبب ورغم ذلك لم أستطع أن أمنع تكرار نظراتي المختلسة إليها، ولم تنتبه أو تهتم، حتى نبّهتها زميلتها (سهير) الجالسة بجوارها بلكزة

خفيفة من مرفقها في كتفها، وإشارة عين مع ابتسامة تدل على التعجب أكثر من الإثارة باكتشافها الجديد بخصوص صديقتها. لا بد أن (سهير) تعجبت من فعلي، فأنا أيضًا وقور ترتسم على وجهي الأسمر ملامح الجديّة وسيماء الاجتهاد. ولم أعرف أبدًا هل استطاعت (نبيلة) التركيز في شرح المُحاضر بعدما نبهتها (سهير) إلى نظراتي المختلسة أم لا. لكني تأكدت تمامًا من أنها نظرت إليّ مرتين أو ثلاثة في فضول خلال الساعة التالية على ذلك. وحنقت على (سهير) أيضًا في نفسي، لقد حرمتني متعة الاستمرار في الشعور الغريب والجديد على فؤادي وأنا أختلس النظرات إلى فتاة وقور!

غادر الأستاذ القاعة، ونهض الطلاب والطالبات في هبّة واحدة ليتسابقوا إلى الخروج من باب القاعة، كأنما يفرّون من سجن. وكنت رغم وقاري المشهود وبطء حركتي بصفة عامة أشترك أيضًا في سباق الخروج من باب المعمل أو المدرّج، ولو بحكم الاعتياد. ووجدت حركاتي الآن أبطأ من المعتاد وفيها تراخٍ ظاهر وأنا أجمع أشيائي المبعثرة أمامي. كنت في الحقيقة أتلكأ في انتظار أمر ما.

وتباطأت (نبيلة) وكان التلكؤ قليلا من عاداتها، فهي لا تحب السباق ولا التزاحم أو التدافع، تعطي لنفسها فرصة لتلملم حاجياتها على مهل، وتربت بكفها على شعرها، وتمررها على هندامها، وربما أخرجت مرآة صغيرة منزوية في حقيبتها الرقيقة ونظرت فيها لتمسح شعرات يتراءى لها أنها نافرة من حاجبيها. وتُبلل شفتيها بلسانها فيلمعان من جديد، ثم تنهض لتخرج من المكان. لم يكن ذلك غريبًا عليها، الغريب حقًا هو أن (سهير) اعتادت على انتظارها كل يوم في تأفف ظاهر من تلكؤها مع الاضطرار للصبر عليها، حيث يسكنان في حي واحد، ويقطعان مسافة الطريق معًا. والآن غادرت المعمل مع المتسابقين الأوائل. ووجدتني وحتى دون وعي مني أو إرادة أقترب منها وعلى شفتيّ ابتسامة خجل، أكثر منها ابتسامة ترحيب، وسألتها مُدركًا سخافة سؤالي:

– حضرتك يا آنسة زميلة معنا في كلية الطب؟

– لا. في الحقيقة أنا طالبة في كلية الآداب ولكني هاوية تشريح فأحضر هذا السكشن من باب الهواية.

وضحكتْ ضحكة صافية، فعلمتُ أنها تسخر من سؤالي السخيف، واكتشفت خفَة ظِلها وسرعة بديهتها. قلت معتذرا: (آسف يا آنسة. ولكن لسوء حظي لم ألمحك من قبل معنا في الكلية.)

أطلقت ضحكتها الصافية من جديد وهي تقول: (لعله من حسن حظك أنك لم تلمحني من قبل. حتى لا تضيع عليك المحاضرات كلها!)

- إذن تدركين أنك سبب ضياع السكشن عليّ؟!

همهمت بصوت موسيقي في دلال. قلت وأنا أتعجب من جرأتي المفاجئة: (وكيف ستكفّرين عن ذنبك في حقي مع السكشن الضائع؟)

رفعت لي نظرة حائرة وهي تهمهم من جديد: (أفكر.)

قلت في رجاء: (أعيدي عليّ شرح ما لم أستوعبه من الأستاذ.)

لم أقتنع بمنطقي الزائف، ومع ذلك استعذبتْ الفكرة، ونشأت بيننا صداقة. وأنا لا أؤمن بوجود صداقة من أي نوع بين فتى وفتاة! لكنني لم أرد أن أعبر عن علاقتنا – على الأقل– في مبدئها بأنها علاقة حُب، لا لأنها لم تكن كذلك، ولكن كي لا يتبادر إلى ذهنك نوع الحب الذي ينشأ بين شاب وفتاة في هذه السن، وتلك المرحلة الجامعية. الحُب بيننا وُلد ناضجًا وقورًا وعميقًا، لم نكن متلهفين منه على شيء مما يُسعد العشّاق أو يتلّهفون عليه. يكفيني بقائي إلى جوارها كل الوقت. ويرضيها اهتمامي الدائم بها. أصبحنا بعد فترة وجيزة شريكين في الدراسة والأدوات والكتب والآمال والطموحات والأحلام وخطط المستقبل. أصبحنا شريكين في كل شيء عدا السكن والفراش. الأمر الذي لم نتشارك فيه أبدًا. كنا في أعماق أنفسنا ممتزجيْن دون الحاجة إلى أي امتزاج جسدي. لم أكن قديسًا، ولم تكن (نبيلة) راهبة. ولم يكن هذا ديدني مع الغريزة الطبيعية.. لكننا كنا مستغنييْن بالسعادة التي تبعثها رفقتنا عن أي نوع آخر من السعادة الغريزية. وعندما آخذ كفها الرقيقة البضّة في كفي الكبيرة المعرّقة الخشنة، لا أشعر بالرغبة بقدر ما أشعر بالأُنس. هذا الأُنس يكفيني!

كلانا على يقين أننا معًا إلى الأبد، وأن كلًا منا جزء من الآخر وملك له. وما لم ندركه اليوم من صحبتنا الدائمة سندركه بعد غد. فلمَ العجلة؟!

وظللنا نتقدم في علاقتنا وفي حياتنا وفي دراستنا. كنا أساسًا على أعتاب عصر جديد سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا يؤسس له (السادات)، وقد باتت السياسة آخر اهتمامات جيلنا بالكامل، وأصبحت بالنسبة لي خارج اهتماماتي تمامًا. فتجربة الحقبة الناصرية علّمتني درسًا في مبتدأ حياتي خلاصته أن أؤمن بنفسي فقط. أنا القومية وأنا الوطنية، وأنا العروبة، وأنا المشروع، فإن اجتهدت فلرفاهية نفسي، وإن اضطررت للتضحية يومًا بشيء من مباهج الدنيا، فإنما أضحّي من أجل أن تسمو نفسي وترتفع، آمنت أنه لا جدوى من أي شيء سوى نفس الفرد، وأنه لا صوت يعلو على صوت الذات! وليس هذا منهجًا أنانيًا كما قد يتراءى لك الآن، وإنما هو خلاصة التجربة القاسية، التي لم تذرنا في النهاية إلا أفرادًا لا ينتظمنا ناظم ما، بعدما انهارت كل النظم والتنظيمات القائمة. لست أنانيًا لأنني لا أؤمن بمبدأ: (أنا ومن بعدي الطوفان). وإنما خلاصة نظريتي ومبدأي أن من حق كل فرد أن يكون هو نفسه مشروعه الذاتي، وأن يكون كل فرد هو أول أولوياته الشخصية، ومن حق كل فرد أن يعيش لنفسه، دون أن يفتئت على حقوق الآخرين، ودون أن أعطي لنفسي أي حق أن أدوس على غيري في طريق ازدهار ذاتي. فما المجتمع إلا مجموعة من الأفراد، فإن علا كل فرد وحقق ذاته ووصل إلى مجده الذاتي، فإن ذلك ينعكس بالضرورة على المجتمع رفاهية وارتفاعًا. من أجل هذا المبدأ الذي عشت له وعشت فيه اندمجت في دراستي وتفوقي هذا الاندماج. ثم جاءت علاقتي بـ(نبيلة) لتضيف لي حياة جديدة ونفْسًا أُخرى، ولم أعد أفكّر مجرد تفكير أو أتساءل هل أنا أناني؟ لقد أصبحت أعيش معها الحياة، أسعد بقدر ما تسعد، وأفرح بقدر ما تفرح. أصبحتُ جزءًا من كل أكبر مني، ولو لم يكن هذا الكل يتكون إلا مني ومن (نبيلة)! وشعرت أن (السادات) يترجم في توجهاته الجديدة التي يقود من خلالها الوطن، فلسفتي الجديدة في الحياة، فمضيت مع السائرين بغير قلق ولا تململ.

* * * * *

ثم اهتزت الأرض من تحت قدميَّ بحدثين كبيرين تركا أثرًا لا يُمحى على شخصيتي وعلى نفسي، تلك التي كنت أحرص على نموّها ورفاهيّتها وتدليلها في ذات الوقت. كنت أنتمي إلى المستريحين من أبناء الطبقة الوسطى، فأبي موظف كبير، وليس في الأسرة غيري من أبناء، ولذلك أجد ما أريده في حدود طلبات أبناء طبقتي سهلًا ميسورًا، فلم أشغل نفسي يومًا بقضية الأسعار ارتفاعًا أو انخفاضًا، ولا بتوفر السلع

المختلفة أو اختفائها أو ندرتها، وكنت من حيث المبدأ غير مفرط في الرغبات الاقتصادية، وقد أغناني تفوقي الدراسي المشهود عن محاولة مجاراة زملائي في ارتداء آخر الموديلات، والجري وراء آخر الصيحات والتقليعات، كان يسعدني أن أكون نظيفًا بسيطًا، وتستطيع أن تقول نفس الشيء على مأكلي ومشربي، كنت معتدلًا في كل استهلاك، وكان مصروفي الشخصي الذي يمنحني إياه أبي يكفيني، ولم أرَ غضاضة في أن لا تكون لي وظيفة في الحياة لها علاقة بكسب النقود، فدوري أن أكون طالبًا، أؤدي دوري وأتقنه وأتفوق فيه، فلست مضطرًا أن أشارك زملائي عملهم الشاق في فترات الأجازة الصيفية لأجد لنفسي مصروفًا إضافيًا، أو أساعد في تحسين دخل أسرتي، فلم أكن ولا أسرتي في حاجة إلى ذلك، وكنت أسمع عن معاناة بعض الزملاء والمعارف في وقوفهم اليومي لساعة أو بعض ساعة في طوابير الخبز، أو معاناة بعض أرباب الأسر مع طوابير الجمعيات التعاونية. أسمع عن كل ذلك فلا أبالي به ولا يشغلني. فالخبز الشامي (الأبيض) هو قوام غذائنا، وسعر الرغيف وقتئذ (قرش صاغ)، أي ضعف سعر الرغيف البلدي (الأسمر). ولذا لا يوجد أمام مخبز الخبز الشامي طابور من المشترين، وأبي يشتري احتياجات المنزل من السوق الحر دون الحاجة إلى التعامل مع المجمّعات الاستهلاكية، فإن غلا علينا بعد ذلك شيء أو صعب الحصول عليه استغنينا عنه دون اشتهاء أو تململ، كنت أعاني قليلا وأنا أجري خلف الحافلات لأنحشر وسط الزحام الخانق مستقلا إحداها من رمسيس إلى ميدان الجامعة، وأمارس نفس المعاناة في طريق العودة أحيانًا، وفي أحيان أخرى أغرق في لذة العودة مشيًا إلى أكثر من نصف المسافة برفقة "نبيلة"، ولكني أعتبر معاناتي اليومية في الجري خلف الحافلات والانحشار فيها رياضتي اليومية، إذ توقفت عن ممارسة غيرها من رياضات الشباب!

لكل ذلك لم أنشغل ولا أسرتي بأمر تلك القرارات الاقتصادية التي أصدرها نائب رئيس الوزراء الدكتور (القيسوني)، أو ألقاها نيابة عن الرئيس ونظامه أمام البرلمان في (السابع عشر من يناير عام ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين). وبدا أنه مكتوب على مصر أن تصحو على زلزال مدوٍ كل عشر سنوات!

استيقظت القاهرة صبيحة يوم (الثامن عشر من يناير) على بركان هادر ينفجر من التجمعات العمالية بحلوان وشبرا الخيمة، واندلعت المظاهرات وعمّت كافة الأنحاء تهدر:

سيد مرعي[١٧] يا سيد بيه.. كيلو اللحمة بقى بجنيه!

هو بيلبس آخر موضة، واحنا العشرة يعيشوا في أوضة!

بالطول والعرض حنجيب ممدوح[١٨] الأرض!

لا إله إلا الله.. السادات عدو الله!

وتزلزلت نفسي في هذا اليوم زلزالًا كبيرًا، لقد اكتشفت أن هناك شعبًا آخر يعيش معنا، وأن هناك أناسًا يهتمون أشد الاهتمام بـ(قرش التعريفة) الذي زاد على سعر رغيف الخبز (الأسمر). وأن ارتفاع سعر الزيت والشاي والسكر والبنزين والسجائر يؤدي بالشعوب إلى القيام بثورة لا تُبقي ولا تذر. رأيت بعيني النيران تندلع في قسم شرطة الأزبكية بالقرب من منطقة مسكننا. كانت ثورة شعبية غاضبة، وأعلن النظام حالة الطوارئ، ونزل الجيش إلى الشارع، وتم الزج بالآلاف في السجون، وكان نصيب طلاب الجامعة من هذه الاعتقالات وافرًا، وعلمت فيما بعد أن عددًا من زملائي في الكلية تم اعتقالهم وتعذيبهم، ثم محاكمتهم على إثر تلك الثورة الشعبية، ورغم أن القمع كان عنيفًا، ورغم أن النظام السياسي لم يعترف أبدًا بأن ما حدث من احتجاجات هادرة كان ثورة شعبية حقيقية، وظل يردد أنها (انتفاضة حرامية)، ورغم أن الصحف والتلفاز والإذاعة ظلت تلقي بياناتها وتنشر (مانشتاتها) الرئيسة عن مؤامرة شيوعية يسارية كبرى لقلب نظام الحكم. إلا أن الثورة الشعبية حققت أهدافها رغم التضحيات والتجاوزات! فلم يكن يحرّكها سوى هدف واحد، هو إلغاء القرارات الاقتصادية التي تعني تقليص الدعم وارتفاع الأسعار، وقد تحقق الهدف كاملا قبل أن يتم إخماد الثورة، حيث تم الإعلان في منتصف يوم التاسع عشر من يناير عن إلغاء القرارات الأزمة. ولم يستمر الشعب الذي ثار من أجل الخبز (الأسمر أبو سوس وأعقاب السجائر)، في ثورته ولا ضغطه من أجل حُرّية أبنائه الطلاب والعمال الذين زُج بهم بالآلاف في السجون!

فأدركت عن يقين كيف يفرّق الشعب بين العيش وبين الحرية!

إنهم لم يحرّكوا ساكنا للإفراج عن الشباب الذي لم يفعل سوى أنه رفع مطالب الشعب نفسه، فضلا عن تكريمه والاحتفاء به!

[١٧] - رئيس مجلس الشعب في ذاك التاريخ [١٨] ٢- ممدوح سالم رئيس الوزراء

وعاد السؤال يلح على عقلي من جديد؟ لماذا يضحّي هؤلاء الشباب؟ لماذا يضحّي مئات الطلبة والعمال من أجل شعب لم يشعر بالأساس بوجودهم فضلا عن تضحياتهم؟! فالناس لم تكلّف نفسها حتى عناء السؤال كيف اضطرت الحكومة لإلغاء القرارات الاقتصادية؟ ولا من الذي دفع ضريبة هذا الإلغاء للقرارات؟

وطنّتْ الأسئلة في أذني، وصدّعت رأسي أيامًا، لماذا يتدخل الجيش لحماية النظام وقمع الشعب ولو كان الشعب على حق وطلباته مشروعه؟! هل الجيش ابن الشعب أم ابن النظام؟! لماذا يكذب الإعلام ولا ينقل الواقع؟ هل الإعلام ملك الشعب، أم أنه بوق النظام؟! وهل هذا الشعب الذي ترك فلذات أكباده فريسة لقمع النظام، وهي ما ثارت إلا من أجله، رافعًا شعار: (إن جاءك الطوفان ضع ابنك تحت قدميك وامضِ)، هل يستحق هذا الشعب تضحية ما؟!

وازددت يقينا وإخلاصا لفلسفتي في الحياة فصارت مبدأ وعقيدة: (عش لنفسك ولحبك فقط، فلا شيء ولا أحد في الحياة سواهما يستحق التضحية)!

لم أكن قبل أحداث الثامن والتاسع عشر من يناير أنانيا، كنت "برجماتيا" فقط – ربما– وبعدها صرت أؤمن أنه: (أنا ونبيلة ومن بعدنا الطوفان). ولم أشعر وقتها أنني أصبحت أنانيا، طالمًا أحب نبيلة مع نفسي وكجزء أساسي منها!

* * * * *

ثم زعزعني الزلزال الآخر وكاد يعصف بي، فلم تكد تمر أشهر ثلاثة على زلزال ثورة الخبز، وبدأ الربيع يُطلق عبيره حولنا، حتى فاجأتني (نبيلة) ذات صباح في النصف الأخير من شهر إبريل بقرارها الذي تجاوز ثمانية درجات بمقياس (ريختر)!

منذ ثلاثة أسابيع وأنا ألمح التغير الطارئ على ملامحها ونفسيتها. كانت تعاني ضغطًا عصبيًا أكبر من قدرتها على التحمل، أحتوي كفها بين كفي في رفق وأنتحي بها جانبًا وأحاول في رقة وحنان أن أعرف منها ما بها، تصر على الكتمان، أحترم رغبتها تلك في تحمل المعاناة في صمت، ولم أكن أعرف نوع المعاناة لكنني واثق من أمرين، أنها قادرة على تحملها صامتة طالما لم تلجأ إلي ولم تتشاطرها معي، وأنها ستبوح لي يومًا بما عانته في تلك الأثناء، فلم يكن يغيب عن أحدنا سر الآخر طويلًا!

في الأيام الأخيرة تطوّرت حالتها كثيرًا، غابت عن الجامعة لأكثر من يوم وبدون إبداء أسباب، ثم عادت منزوية يجهدها التفكير ويعصرها الألم. ورغم آلامها الواضحة قررت الانزواء عن الجميع، وشملتني يومًا كاملا مع هؤلاء الجميع!

هذا الصباح أقبلت علي وقد اختفى من ملامحها شعور الألم وحل محله شعور جديد أقرب إلى الإصرار، اختفت صورة المعاناة، وتبدّلت إلى عزم من وصل إلى قرار، لم تكن مشرقة بالسعادة، لكنها كانت تمضي إلى ما يجب عليها القيام به وبلا تردد. ضحكت ضحكة قصيرة لا تخلو من عذوبة وإن لم تعد صافية كآلاف الضحكات التي أطلقتها وهي بصحبتي. سألتني بلهجة أقرب للجدية: (محمد. هل أنت مؤمن بالحب حقًا؟!)

نظرت إليها طويلًا، لم أفهم شيئًا، كنت في الأسابيع الأخيرة وأنا أرصد معركة نبيلة الداخلية أُقدّر أي شيء وكل الاحتمالات، إلا سؤال حبنا فهو خارج المقرر، هو ثابت من ثوابت الكون، وناموس من نواميسه، حبنا هادئ لكنه مستمر كما تطلع الشمس كل يوم من مشرقها في ناموس كوني ثابت لا يتبدل أبدًا، لأنه يوم يتبدل ينتهي الكون وتقوم القيامة! الشمس تظل أيامًا مشرقة، ويأتي يوم تعكر صفوها السحب العابرة، وتمضي السحب، ويبقى طلوع الشمس ثابتًا كونيًا، قديمًا قدم الحياة، خالدًا خلود الكون! حبي أنا و(نبيلة) كذلك، تعتريه غيوم لكنه يشرق من جديد، حب أصيل ينتمي إلى الثوابت والنواميس! بدأت أناقش بعض الاحتمالات المقلقة في رأسي قبل أن أجيب. وتعلقت

عيناها بي، واستحثتني بإعادة طرح السؤال بإصرار تتكأ على حروف اسمي كأنها تريد أن تخبأها في أبعد مكان من أعماقها: (لم تجبني يا محمد. هل تؤمن بالحب؟)

أجبت وأنا مُزعزع الثقة: (طبعًا. طبعًا يا بلبلة. فأنا...)

قاطعتني وقد علت ملامح وجهها قسوة مفاجئة لم تكن فيها: (هذا ما توقّعته وفكرت فيه يا محمد. أنت نفسك غير مؤمن بالحب في قرارة نفسك. وها أنت تتلجلج وتتعجب من طرح السؤال، تتلعثم لأنه سؤال لم تجد له أبدًا إجابة بداخلك)

وشعرت لأول مرة في حياتي كلها أني أريد أن أصرخ كالطفل التائه، بل كالأم الثكلى، أردت أن أصرخ صراخًا مخيفًا مريرًا كالممسوس يصرخ في لحظات الصرَع!! لم يؤلمني في حياتي شعور مثل هذا الشعور، شعور الظلم، (نبيلة) تظلمني، لم أتلجلج وأتلعثم في إجابتي عن يقيني بالحب وإيماني به، لأن الإيمان به ليس أصيلًا في ذاتي، على العكس من ذلك، فاختلاط حبي لـ(نبيلة) بذاتي ونفسي وكياني ووجودي هو سبب تلعثمي، إنه بديهي أكثر من أن أجد له جوابًا، أو أستطيع التعبير عنه. لاحظت (نبيلة) معاناتي، وأشفقت عليّ، قررت أن تنقل الصراع إلى منطقة أخرى، قالت: (هل آلمتك؟ أم آلمتك الحقيقة؟)

قلت منفعلًا ربما لأول مرة منذ عرفتها: (أي حقيقة تلك؟ الحقيقة الوحيدة الثابتة هي أننا نحب بعضنا، أنا وأنت نفْس واحدة وحياة واحدة و...)

قالت في صوت هادئ كمن يبسط حقيقة قائمة: (هل معنى ذلك أننا لو انفصلنا سنموت؟!)

قلت بحماس: (بالتأكيد.)

قالت في امتعاض وقد لوت شفتيها: (لا أعتقد يا محمد. إننا في الحقيقة ننفصل كثيرًا. في العطلات، وفي أوقات النوم. وفي ... وفي... ومع ذلك أنا وأنت هنا، لم نمت) وابتسمت في بساطة مُريعة.

من جديد انتابتني رغبة الصراخ المجنون. أريد أن أقول لها: (أننا في الحقيقة لا ننفصل، عندما تبتعد الأجساد، تظل القلوب متصلة، يظل الأمل في لقاء جديد قائمًا، انفصالنا من أجل أن يعود كل منا إلى مسكن أسرته مثلا، هو الليل الذي يلي الصباح، فهل اليقين بأن

الليل سيعقبه نهار جديد محل شك أو موضع سؤال؟!) لكنني مع ذلك خرست فلم أنبس بكلمة. قالت: (لا أخفيك سرًا لقد أحببت قربك. السنوات الخمس التي مرت علينا معًا كانت أجمل أيام حياتي. كنت سعيدة بقربك، وحنانك، وغضبك وانفعالاتك، وغيرتك. سعيدة بوجودي في دائرتك، ووجودك في قلبي). نظرتْ إلي طويلا، وسألتني بقسوة أشد من الأولى: (ثم ماذا؟).

ولم أجد جوابًا. فلو أردتُ الصدق لأجبتها : (ثم لا شيء. سنظل هكذا إلى الأبد). ووجدت إجابتي غير منطقية ولا معقولة فآثرت الصمت. قالت في شجاعة تُحسد عليها: (نعم أَحب كل منا الآخر. لكن حبنا هذا خطأ يا محمد. خطأ كبير، لأنه حب بلا واقع ولا مستقبل ولا أمل، إنه مرحلة رغم روعتها يجب أن تمر، كالطفولة في حياة الإنسان، مرحلة جميلة وبريئة، لكنها تنتهي، ويعقبها شباب وثورة واندفاع وطيش. علينا أن نتوقف عن هذا الحُب.)

نظرت إليها مصعوقًا، لأول مرة في حياتي أعلم أن الشعور والإحساس يمكن التوقف عنه بقرار، كإدمان التدخين مثلا! لم أجب على أي من قراراتها، ليس في منطقها شيء يمكن مجادلتها فيه، كنت فقط أصرخ بلا صوت. أضافت في بساطة: (جاءني خاطب. ووافقت عليه.)

مادت الأرض بي، لكنني لم أعتد أن أظهر ضعيفًا ولا مغفّلًا سخيفًا ولو أمام (نبيلة)، فلم أكن قد تعرّيْت أمامها نفسيًا بالكامل بعد. تحاملت على نفسي وابتسمت – ابتسامة نكراء– وسألتها: (أعرفه؟)

- دكتور (عماد مراد).

لم يبدُ لي أنها في قمة السعادة أو تمام الاقتناع وهي تنطق الاسم، ومع ذلك هو اختيار لا يخلو من توفيق، فدكتور (عماد مراد) مدرّس مساعد في الكلية، على وشك الحصول على الدكتوراه، يدرّس لنا في السكاشن، يكبرنا بسبع أو ثمانِ سنوات، له عمل ثابت ودخل مستقر، تُدرك من مظهره أنه أمّن جزءًا كبيرًا من مستقبله بالتأكيد.

قالت كأنها تريد إنهاء المسألة نهاية سعيدة ولو بالأماني: (أنت يا محمد متفوق. تكاد تصل إلى حد المثالية في دراستك وفي شخصيتك. حَنون. رقيق، حالم. ولن تلبث أن تنجح بتفوق وتلتحق بسلك التدريس في الجامعة، وستصبح يومًا مدرسًا مساعدًا فمدرّسًا

وأستاذًا، وستجد من هي أفضل مني. فكل شيء قسمة ونصيب). أردت أن أصرخ، فصرخت من جديد كالملتاع داخل نفسي: (لا يوجد يا (بلبلة) من هي أفضل منك. لم تُخلق بعد!). أدركتْ معاناتي، أو عزّ عليها الاعتراف كأنثى بأنني أستحق امرأة أفضل منها، فاستدركت في برود: (ليس بالضرورة أن تجد من هي أفضل مني، لا تربط نفسك بي ولا تجعلني مقياسًا تقيس عليه أي فتاة أخرى. سأبقى دائمًا لديك خارج المنافسة. لكنك ستجد حتمًا من هي أنسب لك مني.) أشاحت بوجهها عني وقالت ونبرة صوتها تنخفض كأنها لا تريد أن أسمعها: (أنا أيضًا وجدت الأنسبَ حتى ولو لم يكن أفضلَ منك!)

مدّت كفا ترتعش إلى كفي البارد كالثلج، ولأول مرة أشعر أن كفها بين كفي جسم غريب عني، ليس جزءًا من جسدي ولا كياني. صافحتني ثم نهضت من مجلسها أمامي ومضت ببساطة كما هي بسيطة أنيقة وقورة محتشمة. لا أنكر رغم كل جَلدي أن هذه المقابلة الأخيرة حطّمت بداخلي أشياء كثيرة، لكنها لم تحطّمني، وعرفت قيمة الحكمة القائلة: (الضربة التي لا تقصم ظهرك تقوّيه)، وازددت صلابة، ولم أفقد أبدًا احترامي لـ(نبيلة) ولا صراحتها، ولا منطقها السليم في التعامل مع الواقع والحقائق. وتعافيْت من الصدمة. واقتنعت بقاعدة جديدة في الحياة. (الحُب الذي ينشأ بين زملاء الفرقة الدراسية الواحدة في الجامعة أو غيرها حب محكوم بالفشل). ماذا أستطيع أن أقدم لـ(نبيلة)؟ أمامي عشر سنوات على أقل تقدير قبل أن أكون صالحًا لأن أدقّ باب أسرة محترمة مستأذنًا في خطبة ابنتهم. وهي أمامها رجل كامل الهيئة والمقاييس. كل منا اختار مستقبله في الطريق الطبيعية للحياة!

وخرجت أيضًا من زلزال (نبيلة) بحقيقة أو فلسفة جديدة أضيفها إلى فلسفة حياتي. أصبحت الآن وحدي، أنا بالنسبة لنفسي كل شيء في هذا العالم، وبعدما كنت نصف العالم، و"نبيلة" نصفه الآخر، صرت اليوم عالَما وحدي. ولن أحب بعد كل ذلك أن تتهمني بالأنانية. لست أنانيا. أنا واقعي!

*****

سمعت من يصيح وهو يضحك: (داوها بالتي كانت هي الداء). يسخر مني، لا بد أن عددًا كبيرًا من الزملاء يسخرون مني. فعلى مدار خمس سنوات في الجامعة –خلا الشهور الثلاثة الأولى لي فيها– لم أُرَ فيها بمفردي. أنا دائمًا مع (نبيلة)، وهي دائمًا معي. ولا بد أن خبر خطبتها قد تسرب وانتشر بين الطلاب جميعًا. فالخاطب أستاذنا والمخطوبة زميلتنا! ولولا تلك السخرية ما تذكّرت أنني فقدت شيئًا، لا لأنني فعلا لم أقاسِ

الأمريْن من فقد (نبيلة)، لقد أدمنت صحبتها، ولكن لأنني لم أقرر مداواة نفسي بصنف مما كان هو الداء، وإنما مداواة نفسي بنفسي. والانخراط أكثر في دروسي وتفوقي، حتى قال أحد أساتذتي: (لو أن درجة جامعية عُليا تُمنح لطالب قبل البكالوريوس لكان (محمد فاضل) هو أول من يحصل عليها في العالم)! ولم أعطِ لأحد فرصة أن يسخر من مأساتي، أو أن أبدو أمام أحد العاشق المجروح، ولم أبدُ أمام العالم كله مغفلا. حيث لا يستحق العالم بأسره أن أبدو له كذلك، ومن أجل هذا الصمود كان جوفي يحترق!

*****

في هذه الأثناء تم إطلاق أو استدعاء المارد الإسلامي. لم تكن هذه هي الحقيقة على وجه الدّقة. عبارة سمعتها كثيرًا حتى باتت بديهية في عالم السياسة والاجتماع والإعلام ومجتمع النُخبة، وهي أن الرئيس السادات استدعى التيار الإسلامي ليساعده في مواجهة انتشار التيار اليساري والناصري الذي يهدد عرش رئاسته ونظامه في حكم مصر، أو استدعى الفكر الإسلامي ليسد به الفراغ الناشئ عن محاربة النظام للفكر اليساري السائد. وأن نظام السادات (حضّر العفريت الإسلامي) ثم فشل في صرفه، فقتل العفريت السادات شخصيًا!

لم أُحب هذا الاستسهال في الطرح، أو لم أجده دقيقًا، ووجدت بإمكاني أن أقدم تصورًا أقرب إلى الواقع، وإن كنت من باب الموضوعية التي أنتمي إليها دائمًا، أذكر أن تصوراتي عن أي أمرٍ ما، تظل فرضية أقرب للصواب لكنها تقبل الخطأ. أو أميل أكثر بلا غرور، إلى أنني دائمًا أصل بتصوراتي إلى صورة صحيحة شبه كاملة، لكنها ناقصة قطعة واحدة من قطع (البازل)، هذه القطعة لم أحصل عليها، لأن أحدهم أخذها ولم يكتفِ بإخفائها، وإنما ألقاها في البحر، أو نار المدفأة، حتى لا تظهر ولا يعثر مثلي عليها إلى الأبد. ولك أن تثق بعد ذلك أن أية صورة أقدمها لك عن طريق استنتاجاتي – طالما لم أشاهدها بنفسي أو لم أشارك في صنعها– هي صورة صحيحة شبه كاملة إلا من قطعة واحدة صغيرة، قد تكون بلا أهمية كبيرة، إلا كديكور نهائي. وكما طلبت منك سابقًا ألا تتهمني بالأنانية، فأرجو أيضًا ألا تتهمني بالغرور، لسبب واحد هو أنني لست أنانيًا ولا مغرورًا. أنا فقط أثق في أدواتي!

والحقيقة التي أؤمن أنها أقرب للصواب، أن السادات –أيا كانت نواياه وأهدافه– لم يستدعِ المارد الإسلامي، ولم (يُحضّر العفريت). وإنما جذور وبذور هذا التيار كانت

موجودة دائمًا في الأرض محيطة بنا في البيئة العامة، تنتظر المناخ المناسب والمطر. فالمد الإسلامي والصحوة الإسلامية كما سُميت وقتها وذاعت تسميتها، كانت ظاهرة إقليمية واسعة. لها امتدادات وروافد، فلم تكن الظاهرة الإسلامية مصرية محلية ولا صناعة (ساداتية) خالصة، بل كانت منتشرة في (تركيا) و(باكستان) و(الخليج) وفي قلبه (السعودية) التي كانت رافدًا أساسيا من روافد المد للصحوة لا سيما من خلال تصدير المظاهر الإسلامية المعروفة بين أبناء الصحوة بـ(الهدي الظاهر)، كما كانت الظاهرة ممتدة غربًا في دول المغرب العربي لا سيما (الجزائر). ولقد كشف الجهاد الأفغاني ضد الغزو الروسي والذي بدأ بعد ذلك بزمن قليل، من خلال تعدد الجنسيات العربية للشباب الذي اندفع إلى هناك، حقيقة اتساع رقعة ظاهرة الصحوة، وأنها لم تكن حكرًا على مصر، أو من صناعة (السادات)! ولا أظن أن المصريين في أفغانستان كانت لهم الغلبة العددية، ربما كانت (الجزائر) تليها (السعودية) هما أهم الدول المصدرة للشباب المقاتل!

وعندما أراد إعلام (السادات) أن يُفرد مساحة معتبرة لداعية إسلامي من طراز جديد يجذب الناس بشدة إليه، وقع الاختيار على الشيخ (الشعراوي) الذي كان في الواقع يعمل أيضًا في (السعودية)، ولم يكن محسوبًا على تيار الإسلام السياسي بحال!

كانت جذور الصحوة تتعمّق أكثر في الأرض كلما تم دك سيقانها ودهس أوراقها وأزهارها وحصد ثمارها اليانعة في عهد (ناصر)، وقبل أن يفكّر (السادات) في مواجهة اليسار، أو السماح لتلك الجذور والبذور بتسرب بعض قطرات المطر (هتّان) إليها، كانت تُطل برأسها حركات أو جماعات لم تكن من صنع النظام أو من تجلياته، لأنها كانت بالفعل –على سذاجتها– تمثل خطرًا ما عليه، فظهرت قضية الفنّية العسكرية مبكرًا، ثم ظهرت جماعة التكفير والهجرة التي اغتالت الشيخ (الذهبي)، وحتى بذور وجذور الجماعة الإسلامية كانت تنمو وتتمدد داخل الجامعة، قبل أن يقرر السادات الإفراج عن معتقلي الإخوان المسلمين، والسماح لهم بفتح دورهم وإصدار صحفهم، وكنت بحكم دراستي في كلية طب القصر العيني وانتمائي لجامعة القاهرة، راصدًا لتلك الظاهرة عن قرب، وكان لكلية طب القاهرة وطب الإسكندرية نصيب وافر في تمدد تلك الجذور. فزاملت شخصيا (عبد المنعم أبو الفتوح)، و(عصام العريان)، و(حلمي الجزار) من كلية طب القصر العيني، وعرفت (إبراهيم الزعفراني) من كلية طب جامعة الإسكندرية، كما عاصرت في

الجامعة (أبو العلا ماضي) و(محيي الدين عيسى) وكانا يدرسان في كلية الهندسة من المينيا[١٩]!

وعندما وقف الطالب (عبد المنعم أبو الفتوح) ليواجه السادات ويعترض على سياسته، كان ذلك مُزعجًا جدا للرئيس ولم يكن بترتيب من مخابراته وأجهزته، بل اعتراض (أبو الفتوح) الرئيسي كان مُنصبًّا على منع الشيخ (الغزالي) من الخطابة في أحد المساجد الكبرى في القاهرة! (السادات) إذن كان يمنع أكثر مما يمنح!

*****

في تقديري أن الصحوة لم تكن من صنع السادات، لقد أراد الرجل أن يتخلّص من معارضيه الأقوياء سواء كانوا يساريين أو إسلاميين، لكن بذور الإسلاميين كانت قد انتشرت، وتمددت جذورها تحت الأرض، وبدأت تتحول إلى تيار، وعمل السادات بنصيحة أو خلاصة حكمة أجهزة المخابرات العالمية: (التيار الذي لا تستطيع أن تواجهه أو تصدّه، حاول توظيفه واستخدامه). ولقد قرر السادات توظيف الصحوة أو استيعابها، لكنها كانت عصيّة على الاستيعاب وذلك على أقل تقدير بسبب انقساماتها التنظيمية واختلاف رؤاها للواقع والمستقبل السياسي، فما يمكن أن يُرضي الإخوان، لا يمكن أن يكتفي به الجهاديون، وما يقبله السلفيون، لا يحقق بالضرورة مطالب هذا أو ذاك. ومن هنا خرج توظيف النظام للظاهرة عن السيْطرة، فلم يقتل السادات العفريت الذي أحضره، وإنما قتله العفريت الذي حاول بشتّى الطرق صرفه وإبعاده وتشتيت انتباهه عنه بمساعدة آخرين!

لكن هناك أجهزة عالمية أخرى كانت تقرأ المشهد من بعيد، كانت ترصد وتحلل وتعيد تقويم الموقف ثم قررت اللعب بأوراقها داخل الحالة الإسلامية استخدامًا وتوظيفًا وتوجيهًا وتشتيتًا لها عن مساراتها وأهدافها!

*****

اجتمع ممثلو بعض أجهزة المخابرات العالمية لوضع الاستراتيجية العامة لمواجهة ظاهرة الصحوة الإسلامية في الربع الأخير من القرن العشرين، وقد هالهم أن تخرج

[١٩] - هذه الأسماء رموز طلابية في عهد السادات أسست الجماعة الإسلامية في جامعات مصر والتحقت بعد ذلك بجماعة الإخوان

الظاهرة عن السيطرة، وشد انتباههم بشدة عودة تنظيم الإخوان قويًا متماسكًا عصيًّا على الحصار والمواجهة!

قال أحدهم مفكّرًا: (هذه الجماعة تقلقنا بشدة، إنها رأس الحربة في المد الأصولي وأخطر ما فيه.)

قاطعه آخر: (لا يمكننا حصر الظاهرة في تنظيم الإخوان. فهناك جماعات أخرى كثيرة حولها تمد جذور الأصولية. بعض هذه الجماعات الأخرى والتنظيمات الصغيرة، أكثر راديكالية وجمودًا من الإخوان)

- هُراء. الجماعات الصغيرة أُلعوبة يمكن اللعب بها ثم القضاء عليها متى شئنا. الإخوان شيء آخر!

رفع أحدهم عقيرته مذكّرًا المتحدّث في لهجة من يقرر حقيقة: (الوهابية في الخليج أقامت دولة. دولة كبيرة المساحة. قوية الاقتصاد. شديدة التأثير. دولة غنية. العربية السعودية دولة غنية. وهي لا تكتفي بالاعتماد على تأثير الوهابية في شعبها، ولا حتى تأثيرها في دول الخليج البترولية المجاورة. لكنها تدعم الوهابية وتُصدّرها للإقليم وللعالم).

رفع الأول كفه معترضًا: (لا..لا تقلقنا الوهابية. الوهابيون راديكاليون نعم. أصوليون، فعلا. عندهم مال..نعم الوهابيون أغنياء، لديهم اقتصاد. ومع كل هذا فالوهابيون لا يخيفوننا. لا يثيرون رعبنا لأسباب ثلاثة. نظر فيمن حوله بعينين عميقتين تخترق نظراتها ما وراء الأفكار. ثم أكمل حديثه بتوجيه سؤال: (من يا سادة يعرف هذه الأسباب؟)

رفع أحد شباب الحضور يده، كان يبدو أصغر سنًا من الحاضرين بمراحل، وبدا من لكنته أنه أمريكي، قال مُبديًا قدرًا قليلا من الحرج: (أعرف أحد هذه الأسباب وهي أن الوهابية في نهاية المطاف دعوة محلية وإن حاولت تصدير نفسها لمجتمعات أخرى– تظل ابنة بيئتها الجغرافية والاجتماعية، العالم الخارجي لن يجد لها قبولًا ورواجًا. رجالها لا يرتدون القمصان ذات الياقات الزرقاء ويذوبون في المجتمعات، كما الإخوان!)

نظر إليه الرجل الأول ذات النظرة العميقة المدقّقة، ثم أجال بصره في المجتمعين، لم تبدُ على أحدهم علامة على استعداد لإضافة المزيد، رفع رأسه بحركة مُعبّرة فيها الكثير من الشعور بالاستعلاء والتفوق، ثم قال: (هذا سبب أول وجيه وهام. والسبب الثاني أن الوهابيين على أصوليتهم يملكون قدرًا معقولًا من البرجماتية السياسية، يعرفون كيف

يتعاطون مع الواقع). رفع بصره ثانية، وضرب بقبضته على الطاولة المستديرة أمامه وهتف: (السبب الثالث هو الأهم على الإطلاق يا سادة. وهو أنهم لا يملكون تنظيما. الوهابية فكرة بغير تنظيم!)

اعترض الثاني حانقًا: (لكنهم أقاموا دولة.)

قاطعه الأول بصرامة منحيًّا فكرة الدولة بحركة من يده: (الدولة قامت بالتحالف مع آل سعود. آل سعود قوم عمليون وواقعيون. الجميع في الخليج يعلم أن هذه الدولة ما كانت لها أن تقوم لو لم تمد لها الولايات المتحدة يد المساعدة ضد الأشراف حلفائكم التقليديين أيها الإنجليز. هم يعلمون هذا جيدًا ومستعدون دائمًا للتعاون، لا يثيرون أزمات. كلا لا يثيرون أزمات. خلفاء الملك فيصل تعلّموا الدرس جيدًا. لا يجب على أحد أن يثير أزمات في الإقليم أو يحاول تصدير مشكلات للعالم!)

- الإخوان عندهم تنظيم! قالها أحدهم مستحثًّا المزيد من التصريحات.

أجابه الأول بضربة إضافية من قبضة يده على الطاولة كان متوترًا: (المعضلة يا سادة ليست في التنظيم في حد ذاته. الإشكالية التي تواجهنا هي قدرة هذا التنظيم على تلقي الصدمات وامتصاصها والعودة من جديد في مرونة فائقة. لقد تلقى التنظيم ضربتين قاسمتين نهائيتين في عامي ثمانية وأربعين وتسعة وأربعين. حل واعتقال وملاحقات ومحاكمات ومصادرات واغتيال الزعيم. ثم في عامي أربعة وخمسين وخمسة وستين، إعدامات وتصفيات ومطاردات. ثم ها هو الآن يعود من جديد ليبدأ قويًا كما كان!)

صوت رفيع حاد انبعث من آخر الغرفة بجوار الباب المغلق بإحكام، لرجل لم يلقِ له أحد الجالسين بالًا معتبرين إياه أحد حُراس الأمن، ورغم ضآلة مظهره فاجأ الجميع ما عدا الرجل الأول، قال في ثقة عارف ببواطن الأمور: (لم يزعجنا شيء بقدر ما أزعجنا نجاح (التلمساني) و(مشهور) في دمج (أبو الفتوح) و(العريان) ومجموعتهما وكذلك (الزعفراني) في جامعة الإسكندرية بالتنظيم. إنهم يكسبون أرضًا ووقتًا، يجدّدون دماء التنظيم دون إضاعة أي وقت. هؤلاء العجائز كم من الوقت كانوا يحتاجون إليه لإعادة التواصل مع الناس؟ مع الشباب؟ كم من سنوات كانوا يحتاجون لتجديد شباب جماعة دفنتها السجون أكثر من عشرين عاما كاملة. مسافة ربع قرن اختصرها الذئبان العجوزان في غضون أسابيع!! (أبو الفتوح) هذا طالب الطب النحيف وزملاؤه الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى

من الشعب أعطوا قبلة الحياة للتنظيم الحديدي. هذا التنظيم خطر. هذا التنظيم لا بد من تدجينه!)

نظر الشاب الوسيم ذو اللكنة الأمريكية إلى الجنرال الرئيس- كان الرجل يبدو رئيسًا للاجتماع أكثر من أي شخص آخر رغم أن المائدة كانت مستديرة!- ليتأكد من مدى موافقته لحديث ذاك الغريب الذي يبدو كحارس أمن لا أكثر ولا أقل. فوجده يومئ برأسه علامة الموافقة على كل كلمة قالها ذاك الأخنف، فتنحنح في خجل واحمر وجهه قبل أن يقول معقّبًا: (السياسة الناعمة للرئيس السادات ستتكفل بتدجينهم)!

أصدر الجنرال الرئيس صوتًا يدل على التقزز والامتعاض وقال في تأفف: (السياسة الخشنة لعبد الناصر لم تكسرهم. السياسة الناعمة للسادات لن تحتويهم). مد بصره تجاه الباب كأنه يستأنس برأيه، فاندفع صاحب الصوت الأخنف يقول: (هؤلاء أكثر تصلبًا من الناصريين والقوميين واليساريين تجاهنا. هؤلاء يودون لو ألقوا بنا إلى البحر. هؤلاء سيصطدمون بالسادات حتمًا عندما يكشف عن نواياه تجاهنا. هم قد يتجاوزون عن تقاربه مع أمريكا. الولايات المتحدة أفضل عندهم من السوفييت. لكن نحن أمر مختلف. (السادات) سيجد نفسه معهم في موقف مأزوم. وضع لا يُحسد عليه. و(السادات) سيفقد صبره عليهم إن آجلا أو عاجلا. لن تُرضيهم الجزرة. وسيضطر أن يرفع العصا في موعد أقرب مما تتصورون. هذا سيقوّي موقفهم. سيزيدهم صلابة وعنادًا. الجنرال (ناصر) كان أقوى من (السادات)، وكانت المواقف الإقليمية وعدم الانحياز والسوفييت يدعمونه بقوة، ولم يفلح. وهم بعد أن ذاقوا حلاوة جزرة (السادات) لن يرهبوا عصاه، سيطمعون في المزيد. ربما أطاحوا به في وقت قريب. ستدعمهم قوى شريرة كثيرة في المنطقة. قوى مُعلنة وأخرى خفيّة. هناك عرب سيدعمونهم ضد مشروع (السادات). الوضع في إيران أيضًا غير مريح بالمرة. جبهة التحرير قد تصبح ذراعًا لهم على الجبهات الشرقية الشمالية. لا. لا يا سادة العالم. الوضع مُقلق. أصارحكم القول. الوضع جد خطير. لا بد أن تتصرفوا بسرعة وحكمة.)

قال الجنرال الرئيس بصرامة وحزم: (نحن ندرك خطورة الموقف. وسننجح في تدجينهم! لا تقلق يا عزيزي. سننجح في تدجينهم. أعدك بذلك!)

*****

على هامش هذا الاجتماع كُلّف بلقائه الأول بي. بروفيسور في الجامعة الأمريكية. شرف لأي أكاديمي أن يحظى بمقابلته فضلًا عن اهتمامه. هو الذي حرص على مقابلتي، وسعى إليها. تعاظمتُ أمام نفسي. كنت أظنها مقابلة أكاديمية ستنقلني إلى مصاف الأطباء العالميين كـ(مجدي يعقوب)!

تحدّدت المقابلة في بهو أحد الفنادق الكبرى في وسط القاهرة، ورأيت البروفيسور الأمريكي بأُبّهته وهو يضع غليونه (البايب) في جانب فمه في صورة من صور الهيلمان تعمد تصديرها إلي. كان يضع (البايب) بطريقة تذكّرني بالسادات، غير أنه لم يكن فيه شيء من تواضع السادات ولا بساطته! فما إن وقعت عيني عليه في هذه الصورة، حتى عادت نفسي فتضاءلت من جديد، وشعرت بالقلق يتسرّب إلى أحشائي، رغم ثقتي في قدراتي العلمية والأكاديمية!

رحّب بحضوري بشكل مبالغ فيه وهو يطلق ضحكة عالية ويقول: (آه. هذا أنت أخيرًا محمد؟!)

- مستر محمد؟. دكتور محمد؟. أيهما تفضل؟

قلت في خجل: (محمد فقط يا بروفيسور.)

رفع كفّه في اعتراض وقال في صخب شعرته مفتعلا: (هذا عيْبكم أيها العرب. التواضع في موضع لا يقبل التواضع. أنا أسألك عن اللقب الذي يجب أن يُوضع أمام اسمك. أسألك عن صفتك ومؤهلاتك. فلا مجال هنا عزيزي لأي نوع من التواضع!)

- دكتور أحب إلي من مستر.

(أووووه. دكتور!) قالها بصخب واحتفاء زائد!، وما لبث أن أضاف بعد لحظة تأمُّل: (تريد أن تصبح طبيبا عظيمًا. جراح. ربما. دكتور عالمي تحقق الشهرة والمجد. والمال أيضًا!) له أسلوب في الاحتفاء والتفخيم والتوقف بين الكلمات أجفلني وجعلني أتشكك في انطباعاته عني هل هو معجب باعتزازي بدراستي؟ أم يهزأ مني؟! وسرعان ما جاءني الرد على لسانه:("نو". "نو" مستر محمد. لستَ طموحًا كفاية كما ظننتك. تستطيع أن تصبح طبيبًا عالميًا، أو حتى عالمًا في الطب. ستحظى بالشهرة والاهتمام، وستحصل على

بعض المال. كل هذا مضمون لفتى مجتهد مثلك. لكن إذا خُيرت بين أن تصبح هكذا وبين أن تصبح من أهم الشخصيات في الشرق الأوسط على الإطلاق. فماذا تختار؟!)

أُصبت بصدمة من حديث البروفيسور، وانتابني شك للحظة في مدى سلامة قواه العقلية. رسمت تعبيرات وجهي دونما إرادة مني علامة استفهام كبيرة وربما حمراء اللون كذلك. أضاف بعدما استمتع بتدخين غليونه عدّة ثوانٍ إضافية، واستمتع أكثر – فيما أظن– بما بدا عليّ من علامات تدل على البلاهة والغفلة، قال:(في هذه المسائل نحن لا نمزح محمد. ولا نضيّع وقتنا سُدىً كما تعلم. في إمكانك بمجرد الموافقة على (الدِيل –deal) أن تصبح من أهم الشخصيات على الإطلاق في الشرق الأوسط، وربما في الشرق كله. لن تصبح مشهورًا بحال. ولن يعرف دورك وأهميتك أحد في العالم، إلا إذا قررنا نحن كشف الحقائق عنك. سيكون ذلك في الأغلب بعد وفاتك بخمسين عامًا ربما. لكنك ستحصل على مال. مال كثير. بل مال كثير جدا. يمكنك أن تشتري جزيرة كاملة وتمتلك طائرة ويختا خاصيْن بك!). أطلق ضحكة عالية مفاجئة بدت لي وقتها كريهة جدا، وكرهت الرجل. وظللت أكرهه حتى مات بعد ذلك بعشرين عامًا، وربما ما زلت أكرهه إلى الآن. ومع ذلك بدا علي أنني أفكر في عرضه المجنون الغامض. بدأت أدرك تمامًا أنني أتعامل مع مختل عقليًا، وأنه يسخر مني، يسخر من المصريين والعرب، رغم جنونه وشذوذ أفكاره وهيئته، هو مجنون بالتأكيد رغم كل الألقاب والشهادات التي يسبقون بها اسمه عند تقديمه في المؤتمرات العلمية والمحاضرات الدولية! أعجبه استغراقي في التفكير، فظل صامتًا لدقائق يتأملني. ثم هتف: (والآن إلى العمل صديقي محمد. عرضي لك جدي تمامًا. الحقيقة ليس على وجه الدقة يمكن التعبير عنه بأنه عرضي. أنا كبروفيسور أكاديمي–لفظها وهو ينفخ صدره في عظمة على عظمة– لا يمكنني أن أمنحك إلا بضعة آلاف من الدولارات إن أنت أديت لي خدمات عملية وأكاديمية جليلة. إنه عرض السادة الكبار في العالم. أنا مجرد وسيط بينك وبينهم. هيا يا صديقي سنصعد الآن إلى أحد الطوابق حيث جناح فندقي خاص ونتناول التفاصيل. أنا أفترض طبعًا أنك وافقت. أووه أنت إنسان ذكي بالتأكيد محمد، لكنك استغرقت في التفكير دقائق أكثر مما قدّرتها قبل مقابلتك. لقد احتاج منك الأمر للموافقة سبع دقائق وعشرين ثانية، بينما أنا قدّرتها سلفا بثلاث دقائق فقط. هذا سيتّطلب منا بعض الجهد الإضافي لتصبح كما نأمل منك. وستشتغل على نفسك أنت أيضًا محمد. نعم ستتعب حتى تصبح مؤهلًا. دعنا نبدأ المحاولة الآن. لا دقائق إضافية لنضيعها. صدّقني يا عزيزي الوقت ليس ملكي ولا ملكك. الوقت ملك الذين يدفعون مالًا تستطيع به شراء دولة صغيرة بمنطقتكم المتوسطة!)

كدتُ أُجن، ما لهذا المجنون لا يكف عن الاسترسال في الكلام! صعدت معه إلى جناحه الفندقي المؤمّن مشدوهًا، لسبب واحد بسيط بعيد عن كل التُرّهات التي نطق بها أمامي منذ التقينا، كان السبب هو الإثارة. كنت أبحث عن الإثارة في كل كلمة ينطق بها. وقررت في غضون تلك الدقائق أن أغيّر مجال تخصصي الطبي الذي حلمت به طويلا، من تخصص الجراحة إلى تخصص الأمراض النفسية والعقلية. الرجل يستحق أن أتفرغ لدراسته، وربما أصبحت حالته العقلية هي مشروع دراسة الماجستير الخاصة بي!

ما دار داخل الجناح الخاص بالبروفيسور الأمريكي كان ضربًا من خيال، وما علمته من حقائق وأرقام وميزانيات. ومَن في العالم يقف وراء المشروع برُمّته كان مذهلًا تمامًا!

أمام هذا العالم السحري الذي انكشف لي كان لا بد أن أتوقف كثيرًا.

وعصفت بي المفاجأة، ومع ذلك أصبح لزامًا علي أن أتخذ قرارا ما، وقبل أن أُعلن قراري قتلني الفضول، لماذا يقع اختيارهم علي أنا بالذات من بين عشرات الآلاف من الشباب؟!

جاءتني إجابته المدهشة مثيرة للعجب والإعجاب. كل شيء كان تحت المراقبة والتدقيق، يخضع لتحليل وفحص شامل على أعلى المستويات، ووفق أحدث النظريات العلمية في فروع الإحصاء وعلم النفس، وأكثر التطبيقات التقنية جِدّة وابتكارًا. حتى أن شرائح كثيرة من الشباب خضعت سلوكياتها الشخصية وأفكارها وردود أفعالها الحركية والنفسية لبرامج كمبيوتر السبعينات، ذلك الجهاز التقني شديد التعقيد والعملاق في حجمه، والذي كان يُطلق عليه إعلامنا العربي: (العقل الالكتروني)، وهو عقل يعرف كل شيء بالمُطلق، ولا يخطئ أبدا!

فماذا تراني قررت أن أفعل تجاه كل هذه المثيرات المركّبة شديدة التعقيد؟!

*****

لم يكن الأمر سهلا بالنسبة لي. أعطيت نفسي مهلة معقولة للتفكير قبل إعلان قراري، ولم آبه بجمل وعبارات البروفيسور الاستعراضية بأن قراري تأخر لمدة سبع دقائق وعشرين ثانية، وكل تلك السخافات التي نطق بها. استغرق الأمر مني أسابيع لم أذق النوم فيها إلا لمامًا، وانشغلت فيها حتى عن دراستي وذُهلت عن نفسي، أُقلّب الأمور من كل اتجاهاتها، أوازن بين المخاطر والإغراءات، وبدا علي الأرق حتى ظهر صداه في عيون كل من قابلني من الزملاء في تلك المرحلة، وأخيرًا حسمت أمري، ولم أكن في

حاجة إلى إعلان قراري وإخبار البروفيسور به، وإنما كان رد فعلي، هو رد فعل كل إنسان شريف وعلى خُلق متين، توفّرت له المعلومات التي توفّرت لي. لقد أدركت على الفور قيمة هذا التنظيم الغامض وما يمثله من أهمية لدى صناع القرار في العالم، ويشكله من خطورة على مستقبل خطط تمددّهم وهيْمنتهم على خريطة العالم!

إن تنظيما مثل هذا محلي النشأة، حتى تكاد تجزم أنه نشأ من الفلاحين، وبدأ في الأقاليم، وتغلغل في وجدان المجتمع، ثم تجاوز المحلية المصرية، إلى الإقليمية العربية، وانطلق إلى الآفاق الدولية، يجب أن تفخر به وتعتز بمصريته رغم كل شيء!

الســاق

كان الطريق إلى قلب الجماعة الغامضة العملاقة سهلًا ميسورًا في هذا التوقيت. فاتحاد طلاب الجامعة ينظّم رحلة عُمرة إلى الأماكن المقدسة ضمن أنشطته الطلابية. والاشتراك في رحلة العُمرة في حد ذاته أحد مفاتيح الاقتراب من شباب الصحوَة!

علاقتي بالدين قبل هذا التاريخ كانت علاقة مبهمة، ولم يطرأ على ذهني من قبل أن أسأل نفسي سؤالًا: هل أنا متدين؟! لم يكن سؤال التدين من الأسئلة الشائعة في المجتمع قبل هذا التاريخ!

كنت شابًا خلوقًا في حدود أعراف المجتمع، وهذا هو كل شيء. تعوّد أبي أن يصطحبني إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة بنفس الكيفية التي يصحبني بها إلى مقهى (المعلم سيد) لمشاهدة خطاب (ناصر) وسط الجموع- في طفولتي- وكان ذهابي معه من البديهيات التي لا تحتاج إلى إعمال عقل أو فكر!

أمّا أعظم مظاهر تمسكي بديني فتتجلى في التزامي بصيام شهر رمضان كاملًا، وهي العبادة الوحيدة التي لا أتذكّر أنني تخلّفت عن أدائها منذ تخطّيْت مرحلة الطفولة الأولى!

في رمضان نشعر شعورًا غريبًا من الروحانية والانتشاء في طريق ذهابنا وعودتنا للمسجد لأداء صلاة الفجر في جماعة، ثم ربما نمت بعد ذلك بسبب السهر طوال الليل، وللفرار من مشقّة الصبر على الصوم طوال النهار مما يفوّت علي أداء بعض الصلوات خلال اليوم، ولم أكن أبالغ في الاهتمام لهذا، ما دمت أصوم وهذا هو غاية التديّن!

بعدما قررت الاشتراك في رحلة العُمرة الطلابية المنتظرة، انتظمت في أداء الصلاة على أوقاتها في جماعة المسجد، بما فيها الصلوات التي توافق وقت الدراسة، صرت

أستأذن من المحاضرة أو (السكشن) متى سمعت المؤذن يؤذن لصلاة الظهر أو العصر، لأصلي في المسجد جماعة! وتغيّرت حياتي كلها وانقلبت رأسا على عقب!

وافقت رحلة العمرة عطلة منتصف العام، وكانت المرة الأولى في حياتي التي أسافر فيها خارج مصر، وأركب الطائرة، أنا الذي لم أغادر القاهرة إلا مرات معدودة لقضاء أيام من العطلة الصيفية على أحد شواطئ الإسكندرية. ثم لم يكن لي سفرات أبعد من هذا. هأنذا أطير على جناح الشوق إلى أرض الحرمين مرتديًا إزارًا ورداءً بين مجموعة من أخيار الشباب يتألّقون في ملابس إحرامهم البيضاء، ونشيد "لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك". يا لروعة تلك المشاعر التي لم تتكرر بذات العظمة في حياتي من بعد، رغم تعدد زياراتي للأراضي المقدّسة عشرات المرات!

وعرفت حلاوة المشاعر البِكر ولو على طريق العبادة!

فمنذ أن وطأت قدماي ثرى الحرم المكي شعرت أنني أغتسل. أتطهر. أخرج من نفسي القديمة التي بدت لي بالية متّسخة، إلى نفسٍ جديدة بيضاء لم أعرفها من قبل، في تلك الأجواء المفعمة بالإيمان والرهبة والحبور. اقتربت من شباب الصحوة، وكان الأخوة في اتحاد الطلاب قد وضعوا لنا ضمن برنامج الرحلة جدولًا يوميًا غاية في العناية والتنظيم، بالإضافة إلى رحلتيَ المزارات، واحدة في مكة والأخرى في المدينة المنورة. وتعرّفت على ورد أذكار الصباح والمساء، حيث نلتقي في حلقات في صحن الحرم المكي وأمامنا الكعبة المشرفة فنردد الأذكار خلف أمير المجموعة بصوت خفيض خاشع، نبدأ بتلاوة سورة الفاتحة وآيات محدّدة من سورة البقرة، ثم سور الإخلاص والفلق والناس، ثم يعقب ذلك أذكارًا تبدأ بالذكر المأثور" أصبحنا وأصبح المُلك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه النشور"، وتنتهي بالذكر "سُبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك". بعد صلاة الفجر، وقبل الغروب، مع تغيير لفظ الإصباح بالإمساء. وسحرني على المستوى الشخصي الدعاء المعروف بـ(ورد الرابطة). "اللهم إن هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك فاغفر لنا". "اللهم إنك تعلم أن هذه القلوب قد اجتمعت على محبتك، والتقت على طاعتك، وتوحدت على دعوتك، وتعاهدت على نصرة شريعتك، فوثّق اللهم رابطتها، وأدم ودها، واهدها سُبلها، واملأها بنورك الذي لا يخبو، واشرح صدورها بفيض الإيمان بك، وجميل التوكل عليك، وأحيَها بمعرفتك، وأمتها على

الشهادة في سبيلك، إنك نعم المولى ونعم النصير، اللهم آمين وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم". ثم نتعانق!

ما هذه الحياة؟! عشتُ قبل هذا عشرين عامًا ويزيد فلم أعانق صديقا، ولم أدعُ أحدًا بلفظة (أخي) من قبل –إذ كنت وحيد أبوي كما تعلم– فإذا لي في مجموعتنا الصغيرة عشرة إخوة في الله كل منا يدعو الآخر: (أخي في الله)! كلنا يرتدي هذه الثياب البيضاء الناصعة وابتساماتنا في وجوه بعضنا ناصعة البياض هي الأخرى تعكس قلوبًا شفافة نقيّة يملؤها الحب الصادق!

أمير مجموعتنا الأخ (عادل) وهو أصغر مني سنّا وأحدث مني التحاقًا بكلية الطب، ذو بشرة بيضاء صافية تزيّن وجهه لحية مستديرة تُضفي على وسامته وجاهة إضافية، وكان لطيفًا ودودًا لا تراه إلا باسمًا، ولا تسمع منه إلا صوتًا عذبًا رقيقًا، يُراعي فارق السن بيني وبينه فيقدّمني في المجلس وعند الطعام، وعند الدخول من أي باب قائلًا: "كبّروا ثم يمنّوا"، يعيش معنى الإمارة تكليفًا لا تشريفًا! يأتي ليوقظنا ليلا قبل موعد صلاة الفجر بساعة ونصف كاملة ليؤدي كل منا منفردًا ما تيسر له من صلاة قيام الليل. هامسا في آذاننا بحنان: (هيّا يا شباب قيام الليل شرف المؤمن). (صلّوا بالليل والناس نيام). ويحرص على خدمتنا فيُقسم أن يرفع لي حقيبتي من على الأرض إلى أعلى الخزانة، وأسأله متعجبًا: (أتراني شيخًا مسنًا لتفعل معي ما تفعل من خدمات؟!) فيشرق وجهه بابتسامة صافية وهو يتمتم: (يا أخي دكتور محمد خادم القوم سيدهم). ولا أذكر أنه ذكر اسمي – لا في هذه الرحلة ولا بعدها– إلا مسبوقًا بلقب (دكتور)!

ويحرص على تذكيرنا بموعد الورد القرآني عقب صلاة الظهر، حتى يتسنى لنا أخذ جولة حُرّة من بعد صلاة العصر في الحرم، حتى موعد أذكار المساء قُبيْل الغروب، لندور في الأسواق ونبتاع ما نحتاج إليه من مشتريات وهدايا للأهل والأصحاب.

وقــرأت القرآن!

هل يُدهشك أن أعترف لك أنها كانت أول مرة في حياتي أقرأ القرآن الكريم كاملا؟! حفظت في طفولتي سورًا من القرآن من آخر جزء (عمّ) لم أتجاوزها، أؤدي بها صلواتي. كما حفظت في مراحل الدراسة الإعدادية والثانوية سورًا متفرقة مثل (المُلك) و(القلم) و(الرحمن)، ولم أزد على ذلك أبدًا! حتى بدت لي أسماء سور القرآن الكريمة جديدة أو

غريبة! لم أكن أعرف أن في كتاب الله سورًا تحمل اسم (النساء) و(المائدة) و(الأنعام) و(الأعراف) و(الأنفال) و(التوبة) و(هود) و(يوسف) و(الرعد) و(الكهف) وغيرها! كنت أسمع عن رُبع يس! ولم أكن أعرف أن عدد سور القرآن هو مائة وأربع عشرة سورة، ولا أن المصحف الشريف مقسّم إلى ثلاثين جزءًا، ولا أدري ما هو الحزب ولا الربع ولا النصف! فعلمت من أخي (عادل) ومن إخوتي في الله علومًا قرآنية عظيمة، وأدركت مدى جهلي –أنا الضليع في اللغات الأجنبية، والنابه في دراسة الطب والعلوم التطبيقية–!

كان الوقت المخصص لقراءة الورد القرآني عقب صلاة الظهر يكفي لتلاوة جزء واحد، خاصة على من كان مثلي يُتعتع في القراءة ويتلجلج. فقررت أن أضاعف زمن القراءة لأقرأ جزأين في اليوم، ولو على حساب الجولة الحرة للتسوق. لقد قررت أن أختم القرآن الكريم كاملًا لأول مرة في حياتي، فمدة الرحلة خمسة عشر يومًا تكفي لذلك إذا نفّذت خطتي وقد نفّذتها!

وشعر (عادل) بحرصي على قراءة وتعلّم القرآن، فأهداني كُتيّبًا صغيرًا في فن تلاوة وتجويد القرآن الكريم، يبدأ بتناول مخارج الحروف، حتى أحكام التجويد. وكان كثيرًا ما يردد ما ورد في حديث النبي –صلى الله عليه وسلم–: "من قرأ القرآن يُتعتع فيه وهو عليه شاق، فله أجران، أجر القراءة وأجر التعتعة".

وحملتني قراءة القرآن إلى آفاق جديدة، ومعارف لم أدركها من قبل!
وعلمت أن لديننا أصولًا ما كنت أنتبه لها! وأن علماء الدين الذين كنا صغارًا ومراهقين نسخر منهم، علماء معتبرين، لهم باع في العلم والبحث!

وعند زيارة جبل أُحد في المدينة المنورة، حيث دارت أحداث واحدة من أهم الغزوات في تاريخ الإسلام، كان لقائي الأول مع فرع من فروع العلم الشرعي يُسمى السيرة النبوية، حيث رتب مسؤولو الرحلة مع أحد الدعاة، هو الشيخ وجدى– على ما أتذكر– أن يلتقينا عند جبل أُحد، ويُلقي علينا محاضرة في السيرة النبوية المشرّفة، كانت أروع ما سمعت من محاضرات دينية في حياتي! وتساءلت: (هل هذا الذي يلقيه علينا خُطباء المساجد في خطبة الجمعة يُعدّ من الدين في شيء؟! لماذا يتجاهلون هذا العمق ويغفلون عن هذه السعة؟ ويتجاوزون عن تلك المعاني السامية العظيمة، ليكرروا على مسامعنا أحاديثَ حفظناها عن ظهر قلب لا رابط بينها وبين الحياة، ولا تصالح لها مع العصر الذي نعيشه، والمجتمع الذي نحياه؟!)

ولم يحدث طيلة هذه الأيام أن حدّثنا أحد الإخوة، لا رفاق المجموعة، ولا المسؤولين، ولا الدعاة الذين حاضرونا حديثًا في السياسة أو عن أمور الدولة، أو حلم الخلافة الإسلامية!

كان كل شيء يدور حول دين هو ديننا الحنيف الذي ننتمي إليه ومع ذلك لم نعرفه من قبل!

عدتُ من رحلة العمرة شخصًا آخر غير الذي سافر من مطار القاهرة الدولي. نبتت لي مبادئ لحية قصيرة، وأضع السواك في الجيب العلوي لقميص أبيض مُضمّخ بالعطور الشرقية التي حرص الجميع على شرائها من أسواق الحجاز مثل المسك والعنبر والعود والورد والفُل!

كان من الصعب على نفسي الهبوط من هذا العالم الساحر والعودة إلى أرض الواقع، حيث الأهل والجيران، والسباق اليومي خلف الحافلات المزدحمة عن آخرها بالركاب، والجامعة والطب والدراسة. وهالني جهلي بأمور الشرع، فلم أعد متحمسًا كعهدي بدراستي، ولا مُنكبّا، وأقبلت على (أبي الفتوح)، و(العريان)، و(الجزّار) أستحثهم على تزويدي بالكتب النافعة. بعدما التهمتُ الكتب التي وزعتها علينا فروع وزارة الأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية في مكة والمدينة المنورة، في كرم بالغ التهامًا. فأهداني (حلمي الجزّار) كُتيبًا صغيرًا عنوانه (رسالة إلى الشباب للإمام الشهيد حسن البنا). على غلافه الخلفي عبارة تقول: "أيها الشباب اضمنوا لي من أنفسكم ستًا أضمن لكم الجنّة...."، وأقبلت على قراءة الرسالة بنهم، كان الرجل يوقد حماسة الشباب مشيرًا إلى الأحداث العالمية الكبرى: "إذا كان (موسوليني) يحلم بإعادة مجد الإمبراطورية الرومانية، و(هتلر) يريد تفوق الجنس الآري، فمن حق المسلمين أن يعملوا لإعادة مجد أمتنا الإسلامية". سحرني أسلوب (الإمام). ثم حضرت احتفالًا بإحدى المناسبات الإسلامية أقامته (الجماعة الإسلامية) بالجامعة، فإذا بالشباب في آخره ينشدون بصوت عذب رقيق نشيدًا للشاعر حافظ إبراهيم:

أعيدوا مجدنا دنيا ودينا وذودوا عن تراث المسلمين

فمن يعنو لغير الله فينا ونحن بنو الدعاة الفاتحين

جبيْنا السحبَ في عهد الرشيد وبات الناس في عيش رغيد

وطوّقت العوارف كل جيد وكان شعارنا رفقًا ولينا..

سلوا بغداد والإسلام دين أكان لها على الدنيا قرين

رجال للحوادث لا تلين وعِلمٌ أيّد الفتح المبين[٢٠]

تردّدت أصداء النشيد في نفسي، وامتزج معناه مع المعاني التي يصبّها (الإمام) في النفوس من خلال رسالة الشباب!

ما لهذا العالَم العجيب؟! وكيف نأخذ بأيدي الناس جميعا ليلحقوا بنا فيه؟! وما لهؤلاء الغائبين المخدوعين بعلوم الدنيا وزخرفها، ينظرون إلينا نظرات ازدراء واستهجان؟! والله لو علموا ما نحن فيه من خير لقاتلونا عليه بالسيوف!

عشت بين الإخوة وفي المساجد، لا أسمع لفظًا نابيًا، سوقيًا مبتذلًا، ولا أستنشق رائحة دخان السجائر، ولا أشم إلا ريحًا طيبًا، كلنا حامل مسك، ولا تقع عيني إلا على وجوه مشرقة بالابتسام، وعيون يملؤها الحب، وأيادٍ تتشابك في ود وعاطفة! وانجذبت –يا سيدي–، كنت أسمع قديما عن المجاورين في الأزهر الشريف، فإذا بي مجاورًا في رحاب الإخوان!

*****

وأوشك العام الدراسي على الانقضاء، وأدركت أنني ولا شك سأفقد تقديري الممتاز، وترتيبي المتقدم جدًا في أول الدفعة، هذا إن استطعت اجتياز الامتحانات بنجاح، ومع ذلك لم أبالِ!

فكل هدفي أن أستدرك وأعالج جهلي الشرعي، وأملأ فراغي الروحي والنفسي!

وعانيت على صعيد الزملاء والزميلات في الكلية، تغيرت نظرتهم لي، وصاروا أكثر تحفّظًا في التعامل معي، ورغم أني أصبحت أكثر توددًا إليهم، مهتمًا بشؤونهم الاجتماعية أكثر من ذي قبل، مشغولًا بدعوتهم إلى عالم الطهر والنقاء أكثر من انخراطي التام في عزلتي الدراسية دون الالتفات إلى أحد أو شيء، كما كنت في السابق، ومع ذلك لم أجد منهم تعاطفًا أو تجاوبًا! أرى بعض نظرات الاشمئزاز هنا وهناك. وأسمع ضحكات سخرية تأتيني من بعيد، وألمح حنقًا في عيون أساتذتي الذين راهنوا على تفوقي وكفاءتي.

[٢٠] - https://www.youtube.com/watch?v=HeBpOgoxyGs

وثورة شعواء في البيت من أمي التي تصيح في أبي ليل نهار: (ابنك انجذب يا أبا محمد. ابنك نادته (الندّاهة)!). وأبي لا يزيد على أن يلقي الجريدة التي يقرأ فيها، أو يحل بها الكلمات المتقاطعة، مضطجعا على أريكة في الردهة، فيلقي بالجريدة جانبا، ويعتدل وهو يضرب كفا بكف ويهتف: (لا حول ولا قوة إلا بالله. لطفك يا رب. اللهم إني لا أسألك ردّ القضاء، ولكن أسألك اللطف فيه!). ولم أكن أبالي طالما أنني أنحني أُقبّل كف أبي وأمي صباحًا – وما كنت أفعل هذا قبل رحلة العُمرة– فما الذي يعيبون علي وقد صرت أوثق صلة بربي، وأكثر احترامًا لأوامر ديني، وأعظم برًا بهما؟! لم أكن أدري. ولا أريد أن أدري! وظللت على هذه الحال حتى جاءني ذات صباح الأخ (أبو بالفتوح) وأنا معتكف في مسجد الجامعة، وسألني في كدر: (لماذا لم تعد تواظب على حضور محاضراتك يا أخ محمد؟!) وأجبته في بساطة: (إني أحظى بخلوة مع الله.) ولم يعقّب (عبد المنعم) ولم أدرِ هل أقنعته بإجابتي أو أنه لم يشأ مجادلتي. لكنه قال في ود: (الوالد، الأستاذ عمر التلمساني يدعوك لزيارته في منزله بـ(حي غمرة)، غدا بعد صلاة العصر إن شاء الله). وعجبت. الأستاذ (عمر التلمساني) المرشد العام للإخوان المسلمين الذي ترتج باسمه الأرجاء، ويحمله الأتباع والمحبون بسيارته إذا ذهب لزيارة عاصمة أوربية! يريد مقابلتي أنا! انفرجت أساريري. آن أوان التكاليف والمسؤوليات! وسألت (عبد المنعم) أريد أن أستأنس بصحبته في هذه الزيارة الخطيرة في حياتي، قلت في رجاء: (سنذهب سويا. أليس كذلك؟!) وضع كفه على كتفي في رفق، وقال: (لا يا محمد. (الوالد) طلب مقابلتك على انفراد. وكل دوري في المسألة إبلاغك بالموعد ووصف العنوان).

- لكن.
- استعن بالله يا دكتور، وتوّكل عليه. وأبشر بالخير إن شاء الله.

انصرف "أبو الفتوح" وظلت عبارته الأخيرة معي (أبشر بالخير إن شاء الله). إذن هو التكليف لا محالة. سأدخل في خِضّم التنظيم والعمل السياسي أخيرًا! ونمت أحلم باللقاء المرتقب. ولم أذهب إلى كليتي في اليوم التالي، عكفت في البيت على إعداد نفسي للقاء المرشد، والحقيقة لم أعرف ماذا أُعد؟ كنت حائرًا هل أرتدي قميصًا وبنطالًا؟ أم حُلة رسمية وهي التي أحضر بها تكريمي مع الطلاب المتفوّقين في الجامعة؟! أم أكتفي بالجلباب الأبيض الذي حرصت على شرائه من الحجاز؟ أخيرًا استقر رأيي على استعارة عباءة أبي التي يذهب بها إلى صلاة الجمعة، لأرتديها فوق الجلباب الأبيض، فأبدو في سيماء الدعاة كما أتصورهم! وحرصت على التواجد أمام منزل الأستاذ قبل موعدي بساعة كاملة، منتظرًا ومستحثًا عقارب ساعتي على الإسراع في حركتها حتى أحظى بشرف

المقابلة. وأخيرا صعدت إلى مسكنه، واستقبلني الأستاذ (عمر) في بساطة وود، كأنه يعرفني منذ زمن، وكأنني أحد أقربائه. بعد التحيات التقليدية، والسؤال عن الأحوال والأهل والدراسة، وأنا أجيب في خجل وتواضع: (الحمد لله على كل شيء يا فضيلة الأستاذ). فاجأني الأستاذ بسؤال مباغت وهو يمعن النظر إلى مظهري وهندامي: (لماذا تلبس هكذا يا ولدي؟!) تلعثمت ولم أجد صوتي. فلهجة السؤال ونبرة صوت الرجل تأنيبية لا شك عندي في ذلك. وتطوع الأستاذ فأجاب عني: (تظن أن هذا المظهر من الإسلام. والحقيقة يا ولدي كثير من الشباب يظنون هذا الظن. ولعلك تراني كما أنا هكذا أقابلك بالقميص والبنطال، وبعد عشر دقائق سأخرج إلى موعد بعد أن أرتدي (الجاكيت ورابطة العنق). كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يحرص على ارتداء الثوب الأبيض النظيف يا دكتور محمد، لأنه كان مثال الأناقة في زمنه وفي بيئته. الإسلام يريدك نظيفًا طاهرًا. ثم لا يلزمك بعد ستر عورتك بشيء. أليس كذلك؟!) لم أملك أمام قوة حجة الرجل وسرعة بديهته، وحلو منطقه وأسلوبه، إلا أن أومئ بالموافقة. أضاف وقد ثبّت نظره على عيني: (أمر بلغني عنك أحزنني عليك يا دكتور محمد. الدعوة لا تحتاج مشايخ يا محمد. طلابنا في الأزهر الشريف كُثر والحمد لله. وحفَظة القرآن والعلم الشرعي، يلتحقون بنا كل يوم أفواجًا، ولله تعالى الفضل والمَن. ما ينقصنا حقًا هو الأخ الطبيب، وأستاذ الجامعة، والمهندس النابه، والاقتصادي الأريب، والصحفي اللامع، والأديب الموهوب، والفنان المبدع. إذا أردت أن تخدم دعوتك يا دكتور. فحافظ على تفوقك. لن أقبل منك أقل من التعيين في مصاف هيئة التدريس بالجامعة!) نهض واقفًا وهو يمد لي كفه مصافحًا وعلى وجهه ظل ابتسامة بشوش، وهو يقول: (آسف يا دكتور وددت لو كان وقتي يسمح بالجلوس معك فترة أطول، لكن الواجبات أكثر من الأوقات كما قال الإمام الشهيد.) مدّ كفّه بلطف أب، تحسس شعر لحيتي وهو يقول: (بالمناسبة يا دكتور، اللحية من الهدي الظاهر لكنها ليست أولى واجبات الوقت. والمؤمن كيّس فطن. لا اعتكاف في مساجد الكلية بعد اليوم. اعتكافك في معملك أيها الأخ العامل. مساجد الجامعات لأداء الصلوات المكتوبة. هل تعلم أن حرصك على تأدية واجباتك العلمية تعدل صلاة النافلة؟! توكّل على الله يا دكتور. أريد أن تكون في استقبالي ضمن أعضاء هيئة التدريس عند زيارتي للجامعة المرة القادمة إن شاء الله. بالتوفيق يا دكتور). نهضت منذ نهض، فأشار لي ببساطة إلى باب الخروج!

أهذا هو التكليف الذي كلّفني إياه فضيلة المرشد العام؟! وهل هذا هو اللقاء الذي حلمت به؟! وهل هذه المقابلة السريعة جعلت مني أخًا عاملًا في تنظيم الإخوان كما وصفني الرجل؟ هكذا؟ من غير بيعة على المصحف والمسدس؟! وهل هذا الإنسان البسيط الرقيق المهذّب هو رئيس التنظيم حقًا الذي يخيف العالم أجمع؟! لقد شككت في نفسي وعيني، هل هذا هو الرجل ذاته الذي تنشر صورته مجلة الدعوة الشهرية؟! وهرعت

إلى مجلة الدعوة أتمعن في صورة الرجل بجوار المقالة الافتتاحية، وتأكدت أنه هو بعينه (عمر التلمساني)!

*****

أعادني لقاء المرشد إلى الحياة من جديد. رجعت إلى البيت فأخرجت عددًا من القمصان، كنت قد أهملت ارتدائها، ولم أنتظر حتى أرسل بها إلى (المكوَجي)، وكان لدينا مكواة ثقيلة تكتسب حرارتها بتسخينها على نار الموقد بين الفيْنة والأخرى. فوقفت أكوي قمصاني إلى وقت متأخر. ثم عزّ علي أن أحلق لحيتي كما ألمح لي الأستاذ، فاستأذنت أبي في استخدام ماكينة حلاقته الكهربائية وهو مندهش، وأبقيت على آثار لحية خفيفة ناعمة، بدت لي مثل (العشب الأخضر) الذي يغطي ملعب كرة القدم بعد تشذيبه. كأنني أردت أن أعلن أن هنا توجد آثار لحية! ورششت موضع حلاقة ذقني بنوع أوربي من (الكولونيا) توقفت عن استعماله منذ فترة، وأخذت أتطلع إلى مظهري الجديد في مرآة الحمام، قبل أن أخرج منه دكتور محمد الطالب المجتهد الذي أوْشَك أن يتخرج معيدًا في كلية الطب. ورأتني أمي في الردهة فضربت صدرها بيدها وهي تتمتم: (بسم الله الرحمن الرحيم. هل أنا في حلم يا إخوتي؟!) وأطلقت زغرودة عالية دوّت في جوف الليل، غريبة على البيت، تَردّد صداها في الأنحاء، فهرع أبي المستلقي على الفراش في غرفته إلى الردهة، في حالة ارتباك ودهشة، وقد ظن أن زوجته جُنّت، وهو يصيح: (ماذا جرى يا أم محمد؟!) أشارت أمي نحوي، فنظر إلي وهتف: (بسم الله ما شاء الله. أكملك الله بعقلك يا ولدي.). وهرعت أمي إليّ بعدما شلّت حركتها المفاجأة لدقائق، فأقبلت علي تعانقني، وتُقبّل خدي ذو اللحية الخفيفة المشذّبة! وشعرت كأنني (عريس) واستبد بي خاطر، وهاجمني سؤال: (لماذا لا أتزوج؟!)

ونحيّت سؤال الزواج عن ذهني جانبًا إلى حين. فهل تركني السؤال هو أيضًا لشأني ولو مؤقتا؟!

عدت إلى الجامعة بإطلالتي الجديدة، واستقبلني زملائي الطلاب بدهشة ممزوجة بإعجاب وسرور. وفهمت بعض مرامي ملحوظات المرشد. أراد الرجل أن ينقلني ببساطة إلى صورة الملتزم المعاصر! وكان توجيهه من اللطف بحيث فرض وجاهته!

وتخرّجت في أوائل دفعتي كما أراد لي المرشد أن أكون. وكما خططت لمستقبلي من قبل، لم يتفوق علي إلا طالب وطالبة، كل منهما ابن وابنة لأستاذين بالكلية. وأشهد

أن الطبيب والطبيبة كانا متفوقين، وكل منهما يستحق أن يكون ضمن الخمسة الأوائل، مع ثقتي أن الإنصاف يقتضي أن يتأخر ترتيبهما عني! لكنها أمور تحدث! فلم أسمح لها أن تُعكّر صفو سعادتي بالتفوق!!

*****

وعاودتني فكرة الزواج، حتى صار سؤال الزواج إجباريًا في خاطري! توقّفت هذه المرة عند سؤال الزواج لا بد أن أجد له إجابة ما. لقد صرت ميسور الحال، وإن كنت في بداية مشوار حياتي العملية، ورأيت أن الزواج سيدعمني نفسيًا وعاطفيًا، ويدفعني في طريق استكمال أسباب النجاح والتفوق، فلقد أصبحت الآن إنسانًا اجتماعيًا يحس ويشعر، يحب ويكره، بعدما كنت آلة صماء للدراسة والمذاكرة فحسب، ومع تفتح الأحاسيس كان لا بد من الشعور بحاجتي إلى شريكة حياة. كانت ظاهرة حجاب الفتيات آخذة في الانتشار على استحياء. وبدأ شباب الجماعة يتحدّثون عن (الأخوات)، ولم يكن (الأخوات) قد أصبح قطاعًا أو قسمًا بعد داخل الجماعة في طورها الجديد. لكنهن كنّ جمهورًا للدعوة، حاضرات بقوة في المحاضرات والمناسبات الدعوية والاحتفالات الإسلامية داخل وخارج الجامعة. حاولت أن أتصفح وجوه الفتيات في ذاكرتي، ولم أرَ فيهن إلا وجوها تتألق مؤطّرة بالطُرح والخمارات، تهفهف حولهن عباءات فضفاضة وأثواب واسعة، ولم أستطع أن أميّز من بين صورهن العامة واحدة بعينها. وعصرت تفكيري فتنّبهت أنني لم أضع ملامحَ لزوجة المستقبل بعد! حياتي الجديدة تفرض أن تكون فتاة محجّبة من أصل طيّب وعائلة محترمة، وهذا هو كل شيء! وألحّت علي صورة (نبيلة) وهي تقترب مني بابتسامتها المشرقة الودودة وضحكتها الصافية وجمالها الهادئ. حتى تنفّست عطرها وأنفاسها، ووجهها يقترب بشدة من وجهي لتُسرّ إلي أمرًا، أو لأهمس لها بشيء. وحنقت على نفسي، فالدكتورة نبيلة سيدة متزوّجة وأُمّا لأطفال، كيف أخترق خصوصياتها بهذه الجرأة؟! واستغفرت الله كثيرًا في حرارة وندم، فهو يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور. وتنبّهت أيضًا إلى أن ذكرياتي عن المرأة والحُب توقفت عند (دكتورة نبيلة) وأنني سأتذكرها بهذا القرب كلما عنت لي فكرة الارتباط، فليس لي ذكريات عاطفية إلا معها، وعلي أن أصنع واقعًا مختلفًا وذكريات جديدة في الطريق الصحيح. وخشيت على نفسي من تكرار التجربة، فمعي في الجامعة وفي المستشفى زميلات تتألّق بوجوههن روح البهجة والبِشر، وتلمع في عيونهن نظرات الأمل، وفي أصواتهن مرح وخفّة لا سيما في أوقات الراحة حيث يتناول الجميع الشاي وشيئًا من البسكويت أو الشطائر، الأطباء والطبيبات في ردهة واحدة. خُلق غض البصر وقرار التعامل معهن كأخوات، لم يكن كافٍ لحماية

القلب من هجمات العواطف الملحّة. لا بد إذن من ملء منافذ القلب والتفكير بجدية في مسألة الارتباط.

*****

تعددت لقاءاتنا مع الأستاذ (عمر) ومجموعة من الشباب في مقر مجلة الدعوة، وقد صرت أتردد إليه كثيرًا، وألتقي الأستاذ وأجالسه، بعدما حققت رجاءه والتحقت بهيئة التدريس بالجامعة، وكانت لقاءات تجمع عددًا من الشباب بالأستاذ عمر والحاج (مصطفى مشهور[٢١])، حيث أصبح الحاج مصطفى حلقة الوصل بيننا وبين التنظيم، أو تستطيع أن تصفه بالمسؤول الفعلي عن تنظيم الشباب. وكان الحاج (مصطفى) في منتصف الخمسينات، أسمر الوجه، يحيط به لحية خالطها الشيب، نحيف الجسد، نشيطًا في دعوته، دؤوبًا في حركته، فكان يسبق الخطى بخطوه، وألف شاب منا يقتدي بفعله. ورغم احترامنا الشديد لكبار الإخوان وشيوخهم سنًا ومقامًا وتضحية ودعوة، إلا أننا كشباب كانت لنا أحاديثنا الهامسة أحيانا. على الأقل كنا نملك القدرة على الفرز والتصنيف. كنا مثلا ندرك أوجه الاختلاف بين الأستاذ (عمر) المرشد العام، وبين الحاج (مصطفى) المشرف التنفيذي على تنظيم الشباب. (عمر التلمساني) رجل عام بكل ما تحمله الكلمة من معنى. لا أسرار، لا غموض، لا خبايا، كان بطبيعته واضحًا صريحًا لا يناور ولا يداور، منفتحًا على الجميع بشكل مذهل جذاب. تتعدد صداقاته مع أهل الصحافة والفن والإعلام، وصِلاته مع رجال السياسة، يتعامل مع المناوئين والخصوم بنفس القدر من الشفافية والاحترام والود الذي يبذله للأصدقاء والمحبين! كان كاتبًا ومفكّرا حرًا يؤمن بقدر من الاستقلال الفكري والفقهي، وضعته ظروف سياسية وتنظيمية في موقع المسؤولية الإدارية عن جماعة بحجم وتعقيد تركيبة الإخوان! ولكنه ظل أقرب إلى الزعيم الفكري، والرمز الأدبي، والمرشد الروحي، من كونه قائدًا تنظيميًا صارمًا. كان واجهة للإخوان بكل ما يقتضيه موقع الواجهة من شروط ومواصفات!

بينما الحاج (مصطفى) الذي يصغره بنحو ربع قرن من الزمان، يمتلك خبرات ومهارات تنظيمية أعلى بكثير–ربما بحكم نشأته وقيادته للنظام الخاص للجماعة–منذ أواخر الثلاثينات حتى انكشاف أمر التنظيم بسبب سيارة الجيب في أواخر عام ثمانية وأربعين!

[٢١] - المرشد الخامس للإخوان المسلمين

وكان الموضوع الأخير المتعلق بالتنظيم الخاص وممارسة العنف، هو مثار اهتماماتنا في لقاءاتنا الشبابية في غياب الكبار. ذات مرة كان ينزل في ضيافتنا شاب من المنيا وكان متحمسًا يميل إلى التهور، وسأل (عبد المنعم) بحكم صلته بالحاج (مصطفى): (أليس الحاج (مصطفى مشهور) هو عضو التنظيم السري المسلّح للإخوان في الأربعينات؟)

- بلى لكن هذا التنظيم السري المسلّح كانت له ظروف خاصة من حيث النشأة والهدف.

قاطعه الشاب في حماسة متّقدة: (ألم يكن الرجل هو الرجل الثاني أو الثالث في ترتيب قيادة التنظيم؟ وتم ضبط سيارة الجيب أسفل منزله؟)

- أخبرنا أنه كان القائد الثاني للتنظيم بعد (عبد الرحمن السندي).
- فمتى يستغل الرجل خبراته ويمزجها بحماسة وقوة الشباب متمثّلة فينا ويُعيد تسليحنا لإقامة الحكومة الإسلامية؟

كان يتحدث بانفعال حتى أنه كان لا يأخذ فرصة لالتقاط أنفاسه، كأنه كان يعدو!

رفع (عبد المنعم) رأسه وأخذ يجيل نظره في الحاضرين ثم ابتسم قائلا: (هذا الأمر لن يحدث يا أخي الكريم. فلم تكن من أهداف الإخوان ولا حتى من أهداف التنظيم السري إقامة الحكومة الإسلامية بالقوة والعنف والسلاح. ومراحل الدعوة حدّدها الإمام الشهيد بوضوح، وهي الفرد ثم الأسرة فالمجتمع، وهذا المجتمع الملتزم يفرض اختيار الحكومة الملتزمة الممثلة له بالضغط السياسي والاجتماعي اختيارًا سياسيًا ديمقراطيا حرًا!)

ولم يقنع الشاب المنياوي المتحمس بإجابة (أبو الفتوح)، وكنت شخصيًا قلقًا من إسناد مهمة الشباب إشرافًا وتنظيمًا إلى الحاج (مصطفى)، لنفس الأسباب التاريخية التي امتدحه بها الشاب!

طمأنني الدكتور (حلمي) قائلا: (مسألة العنف والتنظيمات السِريّة الخاصة عند الإخوان انتهت انتهاء فكريًا مؤسسًا على مراجعات مبدئية، فلنشأة التنظيم المسلح ظروفه وملابساته التاريخية المتعلّقة بالاحتلال البريطاني وحرب فلسطين، الفكرة في حد ذاتها كانت مقبولة وطنيًا في إطارها الزمني التاريخي. فأغلب المنخرطين في العمل الوطني كانت لهم تنظيمات سرية، وأكثرهم كان يلجأ إلى العنف ويراه حق دفاع مشروع، بداية من

اغتيال رئيس الوزراء (بطرس غالي) إلى اغتيال الوزير (أمين عثمان) الذي حوكم في قضية مقتله الرئيس السادات شخصيًا. ومن العجيب أن قضايا العنف الوطنية غير المرتبطة بالإخوان يمجّدها الإعلام وتخلدها السينما والأدب، مثل رواية وفيلم (في بيتنا رجل). والتفت إلى أخينا الصحفي الشاب (محمد عبد القدوس[٢٢]) الذي يداوم على حضور لقاءاتنا الشبابية، فابتسم له (محمد) وصاح ضاحكًا: (تذكّر يا دكتور حلمي أنا لن أعيش في جلباب أبي!). وضجّ الشباب بالضحك!

أضاف (حلمي) بعد موجة الضحك: (فموجة العنف السياسي كانت مبررة في سياقها التاريخي. ولم نسمع عن حزب وطني أو تنظيم ثوري أعلن توبته وندمه عن ممارسة العنف. لم يعتذر أحد عن قتل (أمين عثمان) لمجرد صدور تصريح صادم منه يربط بين المصريين والإنجليز بزواج أبدي! الإخوان أدانوا اغتيال (الخازندار) وإن تورط فيه مجموعة من أعضاء الجهاز الخاص لديهم. وأعلنوا أنه كان خطأ وتابوا عنه! وهذا يجعلنا نصدّقهم أكثر من غيرهم في قضية رفض العنف.)

عاندني القلق رغم أصالة التطمينات. فسألت في تشكك: (لكن إسناد مهمة الشباب للحاج (مصطفي) دون غيره تثير القلق بعض الشيء نظرًا لتاريخه السابق!)

أجاب (عبد المنعم) في ثقة أشعرتني بالطمأنينة: (أظن أن خبرة الحاج مصطفى السابقة بالتنظيمات السرية والعمل المسلح هي بالذات التي تجعله مؤهلًا لعدم تكرارها فكما يقولون: "من لُسع من الشوربة ينفخ في الزبادي".) وضحكنا، ثم دار بيننا نقاش في مسألتين لم نستطع حسمهما، وانقسمت مجموعتنا الشبابية إلى فريقين، تبنى كل فريق منا وجهة نظر مخالفة للفريق الآخر، فقررنا عرض المسألتين على فضيلة المرشد في أول لقاء لنا معه.

استوقفني (عبد المنعم) عقب هذه الأمسية الشبابية، وكان يراني ضجرًا قلقًا من قيادة الحاج (مصطفى) لشباب الصحوة والجماعة، وابتدرني قائلا: (قضية استخدام العنف والتغيير بالقوة وإنشاء أو دعم تنظيمات مسلّحة، قضية منتهية محسومة عند الإخوان وهي مرفوضة تمامًا، والذين كانوا ضمن الجهاز الخاص ويصرّون على مواقفهم وأفكارهم تم فصلهم أو تجنبهم داخل الجماعة. ثق أن كل من ينخرط معنا في العمل يؤمن برؤيتنا

[٢٢] - الكاتب الصحفي الكبير محمد عبد القدوس عضو مجلس نقابة الصحفيين المصرية لسنوات طويلة وابن الأديب الكبير إحسان عبد القدوس صاحب روايتي في بيتنا رجل- ولن اعيش في جلباب أبي.

ضد العنف والعمل المسلح! أنت لا تستطيع تقسيم الجماعة إلى فريقين، فريق يؤمن بالعنف وفريق يتبنّى السلمية والإصلاح التدريجي، فكل من يتبنى العنف يتم إما توجيهه حتى يستقيم أو عزله من الجماعة، لكنني أخشى على الجماعة من ثلاثة أنواع أخرى من التقسيمات. فريق قطبي الفكر في مقابل فريق آخر يمكن أن نطلق عليه (بنّاوي تلمساني). نسبة إلى (حسن البنا) والأستاذ (عمر). هذه إشكالية ستلاحقنا حتما.)

نظر (عبد المنعم) في عيني مباشرة ليرى تأثير كلامه علي، ثم أضاف: (كما يوجد فريق يؤمن بمرجعية الأزهر الشريف في الفقه والعلم الشرعي في مقابل فريق سلفي وهّابي لا يقتنع إلا بإعطاء الأولوية لقضايا الهدي الظاهر. والتقسيم الثالث، تقسيم بِنيوي، فريق منفتح على الآخر يرغب في العلنية والشفافية الكاملة ويسعى للتقنين، في مواجهة فريق آخر تنظيمي يؤسّس للتنظيم المغلق.) ثم وضع كفه على كتفي كأنه يحاول أن يلتمس مني الثقة، أو يبدد بعض مخاوفه من غوامض المستقبل، وأردف: (هذه هي مخاوفي الحقيقية يا محمد. أرجو أن تنشغل بالتفكير فيها، وتتذكّرها من الآن فلربما كان لها حديثًا بيننا بعد سنوات طويلة!)

وعندما التقينا الأستاذ سأله (عبد المنعم) قائلًا: (اختلفنا يا فضيلة المرشد حول هل نحن جماعة سِريّة يحظرها القانون المصري؟ أم جماعة علنية مُعارِضة يُدعى مرشدها إلى حضور الخطابات الرسمية لرئيس الدولة، وتُصدر صحفًا تُطبع في مطابع الصحف القومية للدولة، وتُباع في أكشاك بيع الصحف في طول البلاد وعرضها؟)

أشرق وجه الأستاذ بالابتسام وقال في بساطة: (نحن جماعة علنية يحظرها القانون المصري!) ابتسمنا لدعابته. وقبل أن يستوضحه أحدنا، أردف: (نحن نحرص على العلنية الكاملة. قياداتنا معروفة في كل مكان. رموزنا في الجامعة معروفون للجميع. مؤتمراتنا الشعبية لا تُقام تحت الأرض ولا نعقدها في الظلام. رئيس الدولة عرض علينا دعم مجلة الدعوة، ورفضّت حتى لا نكون عُرضة للمنح والمنع! ومع ذلك تظل الجماعة ملقّبة بالمنحلّة قانونيًا ليتمكن النظام من قلب الطاولة علينا في أي وقت شاء!)

تساءلت مندفعًا وحانقًا: (ولمَ نرضى بهذا الوضع الشائك...)

قاطعني على غير عادته قبل أن أكمل سؤالي بإشارة من كفّه وهو يقول بهدوء: (نحن يا دكتور محمد لا نرضى ولا نمانع. نحن نسلك السُبل القضائية في المحاكم، ونترك الحكم الشعبي للشعب والرأي العام، فعشرات الألوف التي تحضر مؤتمراتنا في السُرادقات في

الشوارع، وفي المساجد الجامعة وفي النوادي، والقُرّاء الذين يتلهفون على شراء مجلتنا فتنفد بمجرد نزولها الأسواق، هؤلاء من يحكم على مدى علنيَتنا وقانونية وضعنا. هل توجد دعوة دينية أو أخلاقية في التاريخ يمكن أن تكون سِرية؟ لماذا هل سنحوّل الناس التي تؤمن بفكرتنا الدعوية إلى لهو خفي؟!) وسأله الدكتور (حلمي) بأدبه الجم وهدوئه المعهود: (واختلفنا حضرتك حول إجابة السؤال هل نحن جماعة دينية أم جماعة إصلاحية؟!) ومرّت لحظة صمت ظل الأستاذ يتفرّس خلالها في وجوهنا ثم قال: (وما رأيكم أنتم؟)

- انقسمنا حيال السؤال إلى فريقين. فريق يرى أننا جماعة دينية بامتياز. وفريق يرى أننا جماعة إصلاحية تنادي بالإصلاح في مختلف شؤون الحياة العامة والخاصة.
- أريد أن أسمع مندوبًا عن كل فريق يعرض وجهة نظر فريقه في المسألة.

وتطاولت في جلستي متطوعًا وقد رفعت إصبعي وأيدت وجهة النظر الداعمة لأننا جماعة دينية بامتياز. وعرض (عبد المنعم) وجهة النظر الأخرى. وبعد أن انتهينا، ابتسم الأستاذ (عمر) وهو يقول: (وجهة نظرك يا دكتور محمد تعكس مظهرك الذي زرتني به في البيت لأول مرة. ترجمت وقتها فكرتك عن الجماعة. هل تتذكر نصيحتي لك عندما حدّثتك عن نوعية الرجال الذين نحتاجهم معنا؟).

أومأت بالإيجاب وقد احمرت وجنتاي وشعرت بالخجل. واستطرد الأستاذ: (نحن جماعة مدنية. أعضاء مكتب إرشادها، محام، وطبيب، وتاجر، وخبير بالأرصاد الجوية، وموظف بالخارجية، وفلاح مزارع، بيننا شيخ واحد. مسائلنا الشرعية والفقهية نحتكم فيها لعلماء الدين سواء ينتمون لجماعتنا أم لم ينتموا. ولا أظن أن مجتمعاتنا في حاجة إلى جماعات دينية على درب الطرق الصوفية أو المدارس الدينية. نحن نحتاج إلى جماعات مدنية تنشر مبادئها الإصلاحية بين الناس!)

*****

وانفضّ اللقاء وأخذ الشباب ينصرفون تباعًا، انصرف (أبو الفتوح) على عجل، وودعنا (حلمي) وعلى وجهه ابتسامته الودود التي لا تفارقه. وصافحنا (محمد عبد القدوس) وهو ينتظر أن نلحق به، فتلكأت عنه كنت أشعر بالسأم من كثرة الحوارات، ولم أشأ أن أستمر في التعبير عن مخاوفي وانطباعاتي وأفكاري. وكان لنا أخ –طبيعة عمله المرموق اليوم

تمنعني من ذكر اسمه- لا يكفّ عن المزاح الصاخب وإلقاء النكات وإثارة المشاغبات، فأقدّر معاناته في لقاءات المرشد، حيث يضطر لكبت طبيعته حتى لا يفسدها بمواقفه المضحكة، فانتظرته لأنصرف معه، وأستمتع بنكاته في طريق العودة إلى القصر العيني حيث كنت مناوبًا تلك الليلة. وابتدرته قائلا: (إلى متى ستظل سهراتنا جافة إلى هذا الحد؟ ألا يوجد في الإخوان لحما طريا. يروّح عن أنفسنا قليلا؟!) انفجر الأخ في الضحك وهو يقول: (عليك بالسمك يا دكتور. فالسمك لحم طري كما وصفه القرآن الكريم). ونظرت إليه ساهمًا وأنا أتساءل في ضجر: (هل كُتب علينا قضاء لياليا بين القصر العيني، وحوارات (حلمي) و(أبو الفتوح) الجادة التي لا تنتهي؟)

- لتهنأ يا (دوك). نلت الليلة كلا الحسنيين. سهرة مع المرشد و(نبطشية) القصر العيني. فيا لسعادتك!

وتطرّق بنا الحديث إلى اللحم الطري الذي أقصده. تحدثنا عن المرأة، عذوبتها ورقّتها وحنانها، تلك المشاعر التي تذيب جمود أمسياتنا وجفافها. واستشعر الرجل مني جدية واهتمامًا بأمر الإقبال على الزواج، وهو الخبير ببيوت الإخوان وأسرهم، فأخذ يستعرض أمامي بعض الفتيات من شقيقات الإخوة وأقاربهن وظروف كل منهن. واسترسل حتى جاء على ذكر صديق وشقيقته، فتوقّف خاطري عند هذا الصديق ولم أتجاوزه مع استرسال رفيقي، وتمنّيْت لو أنه سكت! اقتربنا من القصر العيني فاستأذنته ساهمًا في الانصراف، لأكمل ما بقي لي من خطوات الطريق متأملًا فيما سمعت!

وأبرمت مع نفسي أمرًا بليل.. وفي الصباح عقب انتهاء المناوبة لم أعد إلى البيت لأنال قسطًا من الراحة، وإنما توجهت مباشرة إلى الجامعة لأقابل أميري (عادل) أمير مجموعتنا في رحلة العمرة التي غيرت مجرى حياتي! ذكره صديق الأمس وذكر أن له شقيقة ملتزمة طالبة بكلية الآداب، وكثيرًا ما يرافقها لدى عودتهما من الجامعة. وتذكّرت وسامة (عادل) وابتسامته المشرقة الدائمة، وخلقه الراقي، وروحه المرحة، فقلت في نفسي: (لئن شابهته شقيقته خُلقًا وخَلقًا لكانت أروع الفتيات!) وهفا إليها قلبي دون أن أراها!

استقبلني عادل ببشاشته المعهودة، وبعد التحيات والأسئلة التقليدية لم أجد ما أحدّثه فيه. فقد تجاسرت وأقدمت على المقابلة هكذا دون تخطيط أو تروٍ وكأنني سأطلب إليه خطبة شقيقته في هذا النهار وفي وسط الجامعة، ودون مقدمات، ودون أن يرى أحدنا الآخر! وأدركت أنني تورطت في اندفاعي غير المبرر، فانسحبت متعللًا بأعذار واهية كالتي أقبلت بها عليه، وانفلتّ إلى بيتي مهموما كَدِرًا.. في لحظات انسحابي "التكتيكي" برقت

في ذهني فكرة التلكؤ في الجامعة والترصد لـ(عادل)، حتى إذا خرج مع شقيقته لمحتها وحددت مدى قبولي لها. وشرعت في تنفيذ تلك الخطّة منذ ودّعته، وبينما أسير في الطُرقات الخارجية للجامعة، بدت لي حماقة خطتي وخيبة أملي، وسألت نفسي سؤالا: (ما الذي أريده من هذه اللمحة السريعة العابرة؟! التي نطلق عليها كشباب الصحوة: (الرؤية الشرعية!) وهل هذه هي الرؤية الشرعية فعلا؟ هب أن تلك الفتاة التي لا أعرف حتى اسمها كانت آية في الحسن والجمال. أهذا هو غاية ما أريده من زوجة المستقبل؟ أن أقتني في بيتي "موديلز"؟!) وتذكّرت حديث "تُنكح المرأة لأربع..... فاظفر بذات الدين تربت يداك". وعاتبت نفسي اللوّامة: (ألم أشترط التديّن قبل كافة المواصفات؟ وهل جئت أنظر إليها إلا لأني سمعت أنها ملتزمة وشقيقة صديقي الملتزم دمث الخلق؟!)

*****

تزاحمت الأسئلة ولم أصل لإجابة أو قرار. هب أنها أعجبتني، فمن يدريني أنها ستُعجب بي أو تنجذب لشخصي؟! كانت ظاهرة الحجاب تغزو القاهرة رويدًا رويدًا. وتساءلت: (القاهرة الآن بها عشرة آلاف فتاة محجبة، فهل معنى هذا أن آلاف الفتيات العشرة يصلحن زوجات لي؟! وهل قانون الاحتمالات يسمح أن تكون شقيقة عادل هي الأنسب لي!) وتذكّرت وجه (نبيلة)، تلك الذكرى التي باتت تأتيني في أوقات غير مناسبة بالتأكيد. (نبيلة) لم تكن أجمل زميلاتها على الإطلاق، ووقعت في هواها لأسباب لا تتعلق بالمظهر الخارجي! فأنى لي أن أكشف عن روح زوجة المستقبل قبل أن أرتبط بها؟. وأخذت قراري بالانصراف من الجامعة دون التربص بأحد، واحتقرت الفكرة الخبيثة التي لمعت في ذهني الساذج! وحنقت على نظامنا الاجتماعي بالكامل، لماذا لا نعيش حياة سهلة بلا حرج ولا تعقيدات؟! ولماذا هذا التقسيم الجائر؟ هذه ملتزمة، وتلك متبرجة؟ وهذه لا يجب أن ننظر إليها، وتلك مترخصة متساهلة؟! وتذكرت قوله تعالى: "**ومَا جَعَل عليْكُم في الدِين مِنْ حَرَج**". وظلّت الآية الكريمة تتردد في صدري طويلا. وتساءلت: (ماذا لو لجأت للطرق التقليدية في اختيار شريكة الحياة؟ فلجأت إلى أمي لتختار لي من بين من تعرفهن من فتيات الأقارب والجيران والمعارف؟!) وتخيّلت على الفور مواصفات أمي في زوجة ابنها! فاستعذتُ بالله العلي العظيم من اللجوء إلى تلك الحيلة. فأفكاري الاجتماعية الساذجة تظل أفضل نسبيًا من طريقة أمي في اصطياد عروس لي. ستصطادها بطُعم لا أضمن أن يكون نزيهًا تمامًا!

ورغم حنقي على سذاجة فكرتي الأولى التي بدت لي في الصباح وأنا مع (عادل) في الجامعة، وجدت نفسي مدفوعًا إلى إنفاذها رغم اقتناعي بفسادها وانعدام أثرها، وتربّصت لـ(عادل) وشقيقته عند وصولهما الجامعة، ورأيتها كملاك-رغم أنني لم أرَ ملائكة تمشي على الأرض- تمشي بجواره أنيقة رقيقة، جميلة، رائعة الحُسن، تلون وجنتيها حُمرة الحياء دون الحاجة إلى مساحيق إضافية. تؤطّر وجهها (طرحة) لطيفة بها لمسة من إبداع وأنوثة! وتطابقت الحقيقة على الصورة. انسحبت دون أن أُظهر نفسي. وعاودتني أسئلتي التي لا إجابة لها: (وما الذي أعجبك فيها؟! أعجبتك أنوثتها؟؟ فماذا عنها؟ هل أعجبتَها؟!) وأقنعت نفسي أنها ستأخذ فرصتها الكاملة عندما تراني، ولا أظن أنه في الربع الأخير من القرن العشرين يمكن أن تُجبر أسرة ابنتها على الارتباط بمن لا ترغب؟ نحن الآن على أعتاب عصر "التلفاز الملوّن"!، وفي عصر "التلفاز الملوّن" لا يمكن أن يحدث شيء كهذا! اقترحت على نفسي أن أتجهز وأتقدم لخطبتها! ولم يبقَ على الاقتراح سوى التنفيذ، فأخذت أسوّف، وما زلت أتربّص لها وهي تغدو وتروح مع شقيقها عادل مَن وإلى الجامعة، وساءلتني نفسي عن هذا العبث الذي أمارسه متلذذًا كمراهق، وأنا الأكاديمي المتفوق، والطبيب الذي يُقابل يوميًا عشرات الفتيات من زميلات وممرضات ومريضات وذوات مرضى؟! وتذرّعت بالحديث الشريف "انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما"! وأعلم أنني أختان نفسي، وتذكّرت قوله تعالى "وأتوا البُيوت من أبوابها". ثم تذكّرت القاعدة القرآنية: "وقَدِّمُوا لأَنَفُسِكُم"، وقررت الاحتشام والكفّ عن العبث وأنا مقبل على خطوة مفصلية في حياتي. كان لي صديق من مرتادي الأندية الراقية (ابن ذوات) ممن يحضرون معنا لقاءات دار الدعوة مع صفوة شباب الصحوة، فانتحيت به وأسررت له بسري كله، وظل الرجل ينظر إلي في عجب ثم سألني في مرح: (حالتك صعبة يا دوك. تحتاج العرض على طبيب. ماذا تريد مني؟! أن أصحبك إلى الدكتور (يحيى الرخاوي)؟!) وكان (يحيى الرخاوي) واحدًا من عظماء أطباء النفس في مصر!

أجبته في حياء وعيناي إلى الأرض: (أريد أن تقيم مناسبة اجتماعية "ذواتي" وتدعوني إليها وتدعو إليها كذلك الأخ عادل وشقيقته على اعتبار أنها مناسبة عائلية تجمع الرجال والنساء). وسألني متعجبا: (ألم تذكر لي أنك رأيتها مرارًا وتكرارًا أيها المراهق؟! فما الحاجة لهذه المناسبة إذن؟!)

- لا تكن بخيلًا على إخوانك. أريدها أن تراني. أن نتحدث ولو جملتين، حتى إذا تقدّمت لخطبتها استطاعت تكوين صورة عني ولو باهتة الملامح.

قال في استياء وعلى مضض: (تطلب مني أن أتحول إلى خاطبة يا سيدي. أمري لله!!)

- أردها لك في الأفراح القادمة إن شاء الله.
- فأل الله ولا فألك يا دوك. زوجتي حبيبتي تملأ عليّ الدنيا وما فيها.
- ربنا يبارك لكما دائمًا أبدًا.

جمعتني المناسبة المفتعلة بـ(عزّة). وتجاذبت معها أطراف الحديث، أرغيْت كثيرًا على غير عادتي. وبالكاد سمعت صوتها الرقيق يقطر حياءً وخجلًا، وأشفقت عليها ولون وجهها يتحول إلى اللون القرمزي. وشعرت بشيء من التجاوب من جهتها يبشر بالخير! ومال علي صديقي صاحب الدعوة هامسًا: (نقول مبروك؟!). وأشرق وجهي بابتسامة رضا. وقامت الأستاذة (سوزان) زوجة صديقي بدورها فأخذت تهمس لـ(عزّة)، أدركت أنها تحدثها عني! ثم نهضت المرأتان وأخذتا تتجولان في النادي بعيدًا عن أعين الرقباء. وابتسمتُ لـ(عادل) في حرج. ولا بد أن نقطع الوقت في أي حديث. وكانت اتفاقية "كامب ديفيد" هي حديث الساعة، قال عادل مندفعًا – على غير عادته–: (مسألة الصلح مع الصهاينة، ودماء العرب لم تجف على أرض فلسطين وسيناء والجولان، ضرب من جنون. لقد جن الرئيس. فقد عقله!) وقال صديقنا ابن الذوات: (المسألة تخضع لتوازنات سياسية واقتصادية دولية وإقليمية غاية في التعقيد. منذ حلّت أمريكا كزوجة أب بديلة للسوفييت، والأوضاع تسير إلى أسوأ.) ونظرا لي يستنطقاني رأيي وكنت مشغولًا عن (ديفيد ومعسكره بالكامل) بـ(عزّة) وحديث السيدة (سوزان) معها. فقلت ساهمًا: (كلتاهما زوجة أب. زوجة أب شرّيرة لا تبحث إلا عن مصلحتها!) أمّن عادل على حديثي ويْكأنه حديث عاقل حاضر المناقشة بكيانه، قال: (والأب زوج الشريرتين سفيه أو معتوه!) وأجابه صديقنا: (بل مجذوب). وكدت أهتف وأنا ألمح طيْف المرأة والفتاة تتحركان نحونا: (بل أنا المجذوب!) ولكن ستر الله ألجم لساني فلم يسمعني أحدهما!

*****

هاتفني صديقي مساءً وأبلغني بالبشرى. فتقدّمت على إثر ذلك إلى (عادل) طالبًا الارتباط بشقيقته، وجرت إجراءات ومراسم الخطبة والزواج بترتيب عائلي، وفي يسر وبساطة. لقد كان التفاهم بين الشباب تامًا، وانعكس ذلك تلقائيًا على الأهل في الأسرتين الكبيرتين. وتبع ذلك انتقالي إلى حياتي الجديدة في مسكن الزوجية رفقة (عزّة) وانغمست في السعادة. غمرتني (عزّة) بجمالها ورقتها. كانت مثالًا للحبيبة المثالية الرائعة! ونظرت

حولي متسائلا: (وما الذي ينقصنا عن أي زوجين جديدين سعيدين؟ أو بالأحرى في قمة السعادة بزواجهما وحبهما؟!) غنّيْنا ورقصنا معا. تسابقنا في شقتنا متوسطة المساحة، لعبنا. وسهرنا أمسيات في غاية اللطف والجمال والبهجة. فعلنا كل ما يفعل شباب عصرنا. غير أن بهجتنا كانت لنا بمفردنا في خصوصية تامة وبعيدًا عن أعين المتطفلين! وكانت (عزّة) تدرس الفلسفة مما سينعكس علي بعد ذلك في إدراكي للأمور. وشجعتها على الاستمرار في تفوقها لتلحق بي في سلك التدريس بالجامعة. وطالت غيبتي عن الواقع الاجتماعي والسياسي والدعوي، الذي كان يضطرم حولنا في ذلك الوقت في أعقاب اتفاقية السلام. ولم أخرج من عزلة "شهر العسل" اللذيذة– والتي استمرت أشهرًا عديدة– إلا على دعوة كريمة وجهها لي الأستاذ (عمر التلمساني). وصلتني عن طريق عادل شقيق زوجتي. وعلمت فيما بعد أن (الأستاذ) كان يتفقّد أحوالي ممن حولي، وكان كلما شعر بابتعادي، وأحسّ الشباب بضيقه من استمرار غيبتي، يعرضون عليه زيارتي ودعوتي إلى استئناف اللقاءات والأنشطة الدعوية، فيجيب في حنان أب: (اتركوه. لا تقطعوا عليه سعادته. عندما يستشعر وحشتنا سيعود من تلقاء نفسه). بيْد أن غيبتي طالت والتهاب الأحداث من حولنا جعلته يرسل لي بعد طول انتظار. وأفقت من عُزلة "العسل اللذيذ" التي أحياها على دعوة (الأستاذ)، لأجد شباب الصحوة بمدينة الإسكندرية يملأون السجون. فـ(مناحم بيجن) رئيس وزراء الصهاينة يزور مصر، حيث استضافه الرئيس السادات في مدينة الإسكندرية. ومن المقرر إقامة برنامج حافل واحتفالي يليق بالزيارة التاريخية في أعقاب "كامب ديفد". ومن ضمن برنامج الزيارة، زيارة المعبد اليهودي بالمدينة الساحلية شمال البلاد. فقام زميلنا الدكتور (إبراهيم الزعفراني) ومجموعة من رفاقه من خيرة شباب الصحوة بالإسكندرية، بالعمل على إفساد تلك الزيارة وتعكير صفو برنامج (مناحم بيجن). فقاموا بتوزيع منشور مناهض للصهاينة، منشور مبدع في عبقريته ودلالته، رسمه ولا شك فنان كاريكاتير مبدع. كان عبارة عن رسم كاريكاتير على وجهي المنشور يغني عن أي تعليق! في وجه المنشور صورة لـ(بيجن) يبتسم ابتسامة كريهة صفراء وهو يحمل وردة، وعلى الوجه الآخر للورقة تظهر صورة خلفية للرجل يُخفي خلف ظهره خنجرًا مدببًا والدماء تقطر منه! وتم توزيع مائة ألف نسخة في أقل من ساعتين. مع دعوة لمؤتمر حاشد في مسجد (القائد إبراهيم)، لمنع زيارة (بيجن) للمعبد اليهودي بمحطة الرمل. ونجحت الخطة بكاملها بعدما وافق عليها الأستاذ (عمر) للأخوة الشباب الذين سافروا إلى القاهرة لإطلاعه على الخطة، وأبلغوا الموافقة للزعفراني هاتفيًا بثلاث عبارات شفرية: **(ولّع البوتجاز. رُص الأطباق في المطبقية. وعلّق البرواز!)**[٢٣]

[٢٣] - من مذكرات الدكتور الزعفراني على الفيس بوك

احتشدت الجماهير في محيط محطة الرمل ومسجد القائد إبراهيم، ولم تستطع الدخول إلى مكان المؤتمر، الذي حاصرته قوات الأمن بالمدرعات وعربات الأمن المركزي، وسيارات الإسعاف والمطافئ، وأعلنت حالة الطوارئ، وظل التوتر بالمنطقة إلى ما بعد منتصف الليل. في استفتاء شعبي حقيقي على سياسة التطبيع، التي دعا إليها وانتهجها (السادات). وفشلت الدعوة إلى التطبيع في أول اختبار لها. وبأدوات بسيطة اعتمدت على الوعي والشعور الشعبي العفوي، وحماسة شباب الصحوة، أكثر بكثير من اعتمادها على خطط طويلة الأمد، وتكتيكات سياسية، وخُطب ومقالات نخبوية مقعرة المبنى، مستعصية المعنى. لكن هذا النجاح الباهر والتجاوب الشعبي الفعّال مع حركة شباب الصحوة أزعج النظام. بتنا نشكّل له شوكة أكبر وأصلب مما تصور، ومشكلة أعمق من محاصرتها بموجات إعلامية، وقرارات قانونية عادية. كان (السادات) متوتّرًا بسبب الضغوط العربية التي تمارس عليه، خاصة بعد تعليق عضوية مصر في جامعة الدول العربية، ونقل مقرها الدائم من قلب القاهرة إلى (تونس) العاصمة في عام ألف وتسعمائة وتسعة وسبعين!

*****

الاعتقال والسجن للشباب والرجال داخل صفوف الإخوان، حالة شديدة الخصوصية والحساسية لدى القيادة الإخوانية –على كثرة ما يتعرضون لذلك– والإخوان عامة يعتبرون السجن بلاءً في سبيل الله لا بد للسالكين من المرور به، ومعلمًا على سلامة الوسائل ونُبل الغاية، وكثيرون منهم يرونه وسامًا يعلّقونه على صدورهم ويعتزّون به أيما اعتزاز! فإن القيادة الإخوانية التي يعيش أفرادها نفس هذا الإحساس تجاه السجن والاعتقال –على المستوى الشخصي– تعيش حيال اعتقال أفراد الجماعة حالة الأم الثكلى المكلومة في ولدها! فالعلاقات داخل الجماعة وبين أفرادها شديدة الإنسانية والحميمية. أذكر أنني في بداية التزامي بالجماعة حضرت محاضرة لأحد الدعاة موضوعها عن الأُسرة في الإخوان. استفاض المحاضر في الحديث عن معنى الأسرة وشروطها وواجباتها، ثم عرج على مفهوم "التعارف والتكافل والتكامل" الذي يجب أن يتحقق من خلال الأسرة الإخوانية. فعلّق أحد الشباب وكان مهندسًا زراعيًا يعمل في مناحل العسل قال: (إن تقسيم العمل داخل المملكة الإخوانية يكاد يتطابق مع تقسيم العمل داخل خلية النحل. والأسرة الإخوانية تشبه خلية نحل صغيرة!) نظر إليه المحاضر الشيخ طويلًا متأملًا، ثم قال في امتعاض: (يؤسفني يا باش مهندس الاعتراف بأنني محاضر فاشل. فبعد ساعة كاملة من الحديث

والشرح لم أستطع إفادتكم بشيء. أيّ شيء على الإطلاق!) وسكت الشيخ وساد جو من الارتباك والحرج، ثم سألنا الشيخ: (من منكم يا إخوة يعقّب على ملحوظة أخيكم النحال؟!) لفّنا صمت مهيب كأن على رؤوسنا الطير، وانتابنا شعور أقرب للبلادة وعدم الاستيعاب، فقال الشيخ وهو يتكلم بعمق، ويسكت سكتة لطيفة بين كل عبارة والتي تليها متأملًا أثرها على ملامح وجوهنا: (داخل خلية النحل يوجد تقسيم طبقي وظيفي: ملكة، ذكور، شغّالة، تخصصات من الشغّالة، قسم يختص بغذاء الملكة، وقسم للحراسة والموت فداء الخلية. ملكة النحل توظّف الذكور ثم تُعد لهم مذبحة. والملكة المنتصرة تتخلص من الملكات الأخريات داخل الخلية. وشغّالة النحل ليس لهن ثمن داخل المملكة. التنظيمات المختلفة في العالم سواء كانت يسارية أو ليبرالية استلهمت فكرة خلية النحل. فحوّلت العمل السياسي السِرّي إلى ما يشبه أعماق البحار كالسمك يأكل بعضه بعضا. الإخوان شيء آخر تمامًا. عندما سُأل الإمام الشهيد عن سر تسميته الوحدة التنظيمية للإخوان بـ"الأُسرة" خلافًا للمتعارف عليه في العمل التنظيمي، وهو "الخلية".. قال: (الأسرة قائمة على الحب والإخاء والتكافل والتفاهم والتراحم والعاطفة. الحب بين أفراد الجماعة هو الذي يجعل الأسرة الإخوانية أسرة حقيقية تتفوق داخلها وبين أعضائها علاقات الحب والترابط والإيثار عن علاقات الأفراد مع ذويهم وأرحامهم. الحب في الله وإيثار الأخ لأخيه عن نفسه، وحبه له أكثر مما يحب لنفسه هي وحدة البناء الأساسية لهذه الدعوة المباركة! وهذا البناء الرباني هو ما لا تستطيع صواريخ الأرض ولا قنابلهم الذرية أن تكسر رابطته أو تحطّم صلابته)!

*****

لمست كل ذلك في حادثة اعتقال عدد من شباب الجماعة بالإسكندرية، فعلى خلفية زيارة (مناحم بيجن). كلّفني الأستاذ بالسفر إلى الإسكندرية ومتابعة الموقف الإنساني مع إخوان الإسكندرية. كانت أول سفرية لي خارج القاهرة بعد زواجي. وقررت اصطحاب زوجتي معي. فهي فرصة للقيام برحلة ترفيهية على هامش مهمتي الدعوية! حجزت بالهاتف غرفة مزدوجة في أحد الفنادق الراقية بمنطقة محطة الرمل تطل مباشرة على البحر. ولم أرَ تعارضًا بين مهمتي الدعوية الإنسانية، وبين إدخال السرور والبهجة على نفسي ونفس عروسي، خاصة ونحن على أعتاب عام دراسي هام وشاق على كل منا! حيث تعلّمت من إخواننا الكبار، خلال المهمّات الدعوية السابقة أننا نستمتع بالعمل الدعوي ونعيش لذة العبادة والقرب من الله، فلسنا رهبانًا نعيش العبادة عبئًا وتوترًا وحرجًا. وبمجرد وصولنا إلى محطة مصر تبخّرت كل الآمال في قضاء أجازة ترفيهية لذيذة

وسريعة على هامش المهمّة. وجدنا في انتظارنا على رصيف المحطة شابيّن من شباب إخوان الإسكندرية تعلو وجهيهما دلائل التوتر والقلق والانفعال المفرط. أصيبا بالحيرة والخجل بسبب وجود (عزّة) بصحبتي. قال أحدهما في حرج بالغ: (لم نكن نظن يا دكتور أنك ستصحب معك أحدًا، فرتّبنا لك أمر إقامة عاجلة في مكتب أحد إخواننا المحامين، لتكون قريبًا من أسر وذوي المعتقلين من الشباب. كما أن برنامج العمل مكثّف جدًا. فمطلوب الجلوس مع فريق الدفاع من المحامين، ومحاولة مقابلة مدير الأمن أو نائبه. وأيضا مقابلة رئيس النيابة، وأعضاء مجلس الشعب، وعدد من المشايخ والعلماء والإعلاميين، للتعريف بقضية هؤلاء الشباب.) سكت الشاب وهو ينظر لصاحبه في حرج وتوتر. وتبادلت مع (عزّة) نظرة سريعة مرتبكة، وأنا أرمش بعيني أستأذنها في التصرف حيال هذا الموقف المحرج الذي وجدنا أنفسنا فيه. قلت مرتجلًا: (طبعًا. طبعًا يا شباب. أنا مقدر كل هذه المهام المطلوب إنجازها. ولقد فكرنا في حضور زوجتي معي، لتقوم بمقابلة زوجات وأمهات بعض المعتقلين لتقديم واجب التضامن والمواساة. وإشعار الأسر بمدى اهتمام فضيلة المرشد بأحوال ذويهم) تبادل الشابان النظرات في استحسان، وكان عليهما أن يجدا حلًا سريعا لمسألة إقامة زوجتي. ابتسمت في شحوب وأنا أدرك أنني صدّرت إليهما المشكلة والحرج. ولم أجرؤ على الإشارة إلى مسألة الحجز بفندق محطة الرمل المطل على البحر! وحلا للمسألة استأذن أحدهما وذهب إلى أقرب هاتف فاتصل بشقيقته التي تطوعت وجاءت لتصطحب زوجتي خلال جولتها الإنسانية التضامنية. ولم نلتقِ إلا بعد عصر اليوم الثالث على رصيف محطة مصر، في انتظار القطار السريع العائد إلى القاهرة. في هذه الرحلة قابلت الحاج (عباس السيسي[٢٤]) الذي لم أره متوترًا قلقًا في حياته مثلما رأيته في هذا الموقف وهو يتابع أحوال المعتقلين، ويبذل المساعي الكبيرة من أجل سرعة الإفراج عنهم جميعًا. وكان من فرط قلقه وتوتره يعنّف الشباب عن أي خطأ أو تقصير في تنفيذ مهمة من المهمات أو تكليف من التكليفات، وهو الأمر الذي لم يكن يصدر منه أبدا في أحلك الظروف وهو صاحب مقولة: (الدعوة إلى الله حب!)

وبمجرد انفرادي بـ(عزّة) على مقاعدنا داخل القطار، تبادلنا النظرات وانهمكنا في ضحك غريب. ضحك يحمل كل معاني السُخرية والمرارة من سذاجتنا وتخيلاتنا وأمنياتنا البسيطة الحمقاء. وتعلّمنا درسًا عن احترام مصائب الإخوان وأن نعيشها بكل كياننا فمصابهم مصابنا، وجرحهم جرحنا النازف. تعلّمنا كل ذلك معايشة دون الحاجة إلى أن نقرأه في كتيب أو نسمعه في محاضرة أو درس!

[٢٤] - أحد دعاة الاخوان وصاحب كتابي الذوق- الدعوة إلى الله حب

عُدنا من الإسكندرية وقد تجددت فينا روح الحماسة والانفعال. وارتفعت معنوياتنا إلى عنان السماء –رغم مرارة المقلب الذي تلقيناه–لكننا شعرنا أن إخوان الإسكندرية، وشباب الصحوة عمومًا بها، يحملون أرواحًا أخرى غير أرواحنا. والناس هناك في قمة الانفعال والتأثر! وشعرنا أن أرواحنا غُسلت في ماء البحر –ذاك الذي لم يُكتب لنا أن نطلّ عليه أو نلمحه لمحة عابرة أثناء حركتنا المكوكية الذائبة–!

*****

التقيت بصديقي "مؤمن آل فرعون". فهو ابن من أبناء الصحوة، نبغ في دراسة العلوم السياسية وتخرّج في أوائل دفعته. رأى الأستاذ (عمر) فيه نبوغًا ووضعًا اجتماعيًا يؤهله للعمل في (السلك الدبلوماسي)، فطلب منه أن يتجنّب الظهور في لقاءاتنا العامة، وإخفاء انتمائه حتى يتمكن من شغل وظيفة مرموقة في وزارة الخارجية، فلا يكون عُرضة للاستبعاد بناء على التقارير الأمنية!! وعُيّن بالفعل في قنصلية مصرية في إحدى الدول الأجنبية. كنت أحرص على لقائه على انفراد إذا حضر في أجازة إلى مصر. وهو الآخر يحرص على هذا اللقاء فيهاتفني فور وصوله القاهرة. والتقينا هذه المرة ورويت له في لهجة يملؤها الفخر والتقدير مغامرة شباب الإسكندرية التي تُوّجت بإفشال زيارة (بيجن) ودلالات ذلك على عملية التطبيع مع الصهاينة، كنت متحمسًا أكثر من طبيعتي الوقورة المتزنة، خاصة وقد شاركت في جزء من المغامرة ولو على المستوى الإنساني والحقوقي. وانتظرت أن يشاركني صديقي حماستي وانفعالي. لكنه صمت طويلًا متأملًا. وعندما تحدث أخيرًا صدمني حديثه، خاصة وهو يصدر عن مختص محترف! قال في شرود كأنه يحادث نفسه: (عندنا أزمة داخل صفوف الصحوّة والجماعة. في الحقيقة عندنا أزمات.....) مرّت لحظة صمت، ورغم صدمتي من تعليقه المفاجئ، عقّبت في خفّة: (في الحقيقة عندنا أزمات، وتحاصرنا أزمات، لكن ما قمنا به في الإسكندرية عمل جيد ومبشر، إننا ننتشر، نؤثّر، نحقق نجاحات، ومدى تأثيرنا لم يعد محصورًا في الجانب المحلي من السياسات، صرنا نؤثر في السياسة الخارجية، تيارنا يصعد، تستطيع أن تختبر قوتنا في الجامعة، وفي ظواهر اجتماعية تنمو في المجتمع وتنتشر...) قاطع بياني المسترسل، وخطبتي العصماء بسؤال: (هل تعرف الدروشة يا دكتور محمد؟!) جفلت إذ أخذني السؤال على غِرة، ليس من عادة الرجل أن يهزأ بي، كررت في شيء من تردد: (الدروشة؟!) نطقتها كرجل يتحسس رأسه بحثًا عن أثر جرح بعد اصطدامه بعامود إنارة في الطريق العام!

قال في بساطة: (نعم، الدروشة. أسألك عن الدروشة دكتور محمد؟!) قلت مشدوها، فبدت كلماتي أقرب إلى التمتمة: (الدروشة التي نعرفها هي إحياء البدع والموالد والأضرحة، وحلقات الذكر الراقصة على أنغام الدفوف وهز الجسد والتطوّح يمنة ويسرة...)

قال في بساطة عالم: (الدروشة يا سيدي هي أسلوب حياة، منهج فكري، نوع من الانفصال عن الواقع، والهروب في التهاويم والأحلام الهروبية، والآمال الوردية. الدروشة هي بالضبط لعبة الساحر، لعبة تعتمد على خلط الأوراق، تعمُّد قلب ترتيب الأولويات، ضرب التخصص بذريعة الشمول والشمولية، تُوزّع الاختصاصات الدقيقة على الهواة، مع إبعاد ممنهج ومتعمد للمحترفين! الدروشة يا صديقي هي التعامل والحكم على الأمور بالعاطفة في مواقف وظروف تُحتّم استخدام العقل والمنطق، توظيف آيات قرآنية ونصوص دينية مقدّسة في غير مواضع الاستدلال الصحيح بها، ما ذكرته أنت يا (دوك) هي بعض مظاهر الدروشة عند الطرق الشاذلية والبرهامية وغيرها. هذه يمكن أن نُطلق عليها الدروشة الشعبية، أو الدروشة الرخيصة! هناك مظاهر أخرى للدروشة: الدروشة الراقية، أو دروشة الأثرياء والمفكرين والساسة وصناع القرار! دروشة النخبة يا (دوك)!) أشار إلي بيد حازمة وأضاف: (تذكّر يا دكتور مقولتي هذه. إن كل نظام يحاول خلط الأوراق واستغلال العاطفة، وتوظيف نصوص الشرع في غير مواضعها، هو نظام وضعه ساحر لدروشة الأتباع. فإذا كان القائم بعملية خلط الأوراق نفسه غير مدرك لخطورة ما يفعله، بحيث يتحول الساحر نفسه إلى درويش، عندها تصبح الكارثة أعمق وأكثر خطورة!)

هممت أن أعترض ولو من باب إثبات وجود في الحوار، تجاهل نحنحتي، وأضاف: (نظام كامب ديفيد في مصر يمارس فن استخدام وتوظيف الدروشة، ويروّج لها سياسيًا وإعلاميًا للسيطرة على الأتباع وتحويلهم إلى مريدين للدرويش؛ فيخلط أوهامًا اقتصادية بأخرى سياسية، ويطلق عبارات فضفاضة ومصطلحات لا معنى محدد لها مثل "الرخاء". ويتركه يداعب أحلام الناس وينمو في عقولهم، دون أن يكون له مدلول واضح محدد. فالرخاء عند الفقراء يا دكتور غير الرخاء عند الأثرياء. وهو في ذات الوقت يوظف نصًا قرآنيًا مثل قوله تعالى: "**وإن جَنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله**"، في غير موضعه السليم، وُيطلق حول النص حملة المباخر من أصحاب العمائم الكبيرة، ليوهموا المسحورين بشرعية مقدّسة لاجتهادات بشرية تقبل الخطأ أكثر مما تحتمل الصواب!)

بلعت ريقي وقلت وقد استرحت نفسيًا لتعريض صديقي بالنظام السياسي القائم: (أؤيدك فيما تقول يا صديقي، لكن...)

قاطعني للمرة الثالثة: (نفس الدروشة التي يمارسها نظام السادات باتت تتسرب إلينا داخل الجماعة يا دوك، ثق فيما أقول لك. كل أعراض ومظاهر الدروشة بدأت تظهر داخل التنظيم!). أغمضت عينيّ وحاولت تخيّل (التلمساني) درويشًا، والحاج (مصطفى)، و(أبو الفتوح) و(حلمي) و(العريان) و(أبو العلا) و(الزعفراني) و(داوود) مريدين يدورون حوله حاملين المباخر، ويدقّون على الدفوف، فلم أستطع تخيّلهم على هذه الصورة!

ابتسم صديقي الدبلوماسي وصاح كأنه يقرأ أفكاري ويتابع خيالاتي: (لا يا دوك، لا تحاول تخيل الأمر على هذا الشكل؛ فدراويش الحسين وأم هاشم غير دراويش التوفيقية![٢٥]) وكان للإخوان مكتب يديرون منه الدعوة – الجماعة والمجلّة – في سوق التوفيقية بالقرب من السيدة زينب، أكمل صديقي: (التنظيم بات يمارس الدروشة ويوظّفها. ولأنني لا أشك في نوايا وإخلاص الرجل الذي يدير الجماعة أخشى أن يكون هو نفسه درويشًا مسحورًا!)

كدت أن أخرج عن طوري وأصرخ فيه ليحترم مكانته ويحفظ لسانه من هذه الترُّهات، تحلّيْت بأعلى درجات الصبر وضبط النفس، وعبّرت عن ضيقي بزفرة طويلة قوية حمّلتها كل الغيظ المكبوت داخلي، تجاهلها صديقي بكل اقتدار دبلوماسي ناجح، وقال: (يا دوك ما معنى أن يقوم بتقرير المهام السياسية التي لها خطورة على مستقبل الجماعة ومستقبل الدولة والمنطقة ككل مجموعة من الشباب المتحمس من الأطباء والمهندسين وغيرهم؟! قل لي بالله عليك وأنت الطبيب الذي ينتظره مستقبل باهر في عالم الطب، هل تقبل أن أُجري لك جراحة بسيطة كإزالة الزائدة الدودية، أو اللوزتين، وهي أسهل عمليات الجراحة عندكم؟!)وأغمضت عيني من جديد وسرحت مع خواطري وأنا أدرك أبعادًا جديدة لم أكن منتبهًا لها في حديث الرجل، إنه يعبر عن ضيق نفسي دفين من حرمانه من القيام بوظائفه واختصاصاته داخل التنظيم، نوع من الغيرة والحسد لا يجب أن يكون بين أبناء الجماعة الواحدة، لمست له عذرًا من السبعين الذي يوصينا بالتماسهم (الأستاذ) دائمًا. لعله لا يحسدنا وإنما يغبطنا، لقد حرمناه من شرف المغامرة معنا، وتساءلت في دهشة: (أنسيَ أن ما يقوم به من عمل خارج الجماعة فيه نوع من الإفادة أكبر بكثير من دوره داخل التنظيم؟ فلماذا يشعر بالغيرة أو الغبطة من عملنا المتواضع إذن؟!) أفقت من تأملاتي على صوته وهو يقول: (قل لي بالله عليك يا دكتور، ما علاقة جماعة الإخوان

[٢٥] - سوق التوفيقية عنوان مكتب الإرشاد قبل انتقاله إلى المنيل ومن ثم إلى المقطم

بما فعله الشباب في الإسكندرية؟!). فتحت فمي في بلاهة ظاهرة لا أجد جوابًا، لاحظ حيرتي أو بلاهتي فأكمل: (لماذا أصلًا تم دمج تنظيمات الشباب في الجامعة، أو ما تُعرف بالجماعة الإسلامية في تنظيم الإخوان المسلمين؟!) أجبت هذه المرة عن قناعة وثقة: (لتجديد دماء الجماعة العريقة، ولمد جسورها مع جيل الشباب، ولتقوية التنظيم وضمان انتشاره وتغلغله في كل مكان، كما كان قبل أن يحلّه (عبد الناصر) ويسجن عشرات الآلاف من المنتمين إليه والمتعاطفين معه) رفع صديقي بصره إليّ وهو يبتسم بلطف معلِم لتلميذه، قال وهو يضرب الطاولة بيده برفق: (بالضبط، أنت إذن تدرك أهداف قادة الإخوان من دمج أجيال الشباب في تنظيمهم العريق، كلها أهداف لخدمة التنظيم العريق، لتأكيد وجوده، وتثبيت مكانته، وتدعيم قوته، ومد جسوره، كما ترى يا صديقي...) ترك جملته معلّقة، ورسم وجهي علامة استفهام كبيرة، أضاف: (يا دوك كلها أهداف خاصة بالتنظيم، ليس فيها هدف واحد خالص للدين أو الدعو.)

اعترضت في تبرّم: (وما التنظيم إلا لخدمة الدين والدعوة، وقوته قوة للدين والدعوة) صاح في انفعال وهو يشير إليّ بإصبع الاتهام: (هذه هي الدروشة يا دوك، هذه هي عملية خلط الأوراق والمفاهيم، لا تغضب مني يا صديقي، ولا تظن أنهم في أروقة وزارة الخارجية جنّدوني لضرب التنظيم، أبدا! سأشرح لك، لو تركتْ جماعة الإخوان تنظيمات الجماعات الإسلامية في أوساط الشباب والجامعات ككيانات منفصلة مستقلة، كانت هذه الكيانات المتعددة ستشكل جماعات ضغط سياسي واجتماعي على النظام الحاكم، ونترك الشباب وإبداعهم وحماستهم ليكونوا مسؤولين عن ممارساتهم، وتظل الإخوان في منأى عن المواجهة. سألتك منذ قليل ماذا احتاج العمل الذي وصفته أنت بالبطولي في الإسكندرية لإحراج النظام وإعلان فشل فكرة التطبيع الشعبي، وإحراج ضيف النظام (مناحم بيجن)؟! ماذا قدّم تنظيم الإخوان من دعم للشباب للقيام بمغامرتهم؟!)

هممت أن أجيبه معتزًا بدوري الشخصي في العملية، استوقفني بحركة من كفه، واستطرد: (كل ما قدمه التنظيم هو الدعم المعنوي والحقوقي، أما على مستوى التخطيط والتنفيذ والتحرك والتمويل كل ذلك قام به الشباب دون معونة فعلية. هذا العمل من وجهة نظر سياسية محايدة عمل طائش! كسب الشباب معركة ولم يكسبوا الحرب، لفتوا نظر النظام إلى خطورة تمددهم على خططه المستقبلية. النظام الآن يحشد بمعاونة الرأي العام الغربي لتصفية الصحوة، الجماعة الأم بدمجها الشباب فيها ستدفع ثمن عمل متحمس غير مدروس النتائج دراسة كافية، ودون أن تشارك فعليًا سوى بمنح الموافقة المتسرّعة التي

تُعبّر عن مسايرة الشباب أكثر منها كقرار سياسي واعٍ. كل هذا دروشة يا دوك ليس أقل ولا أكثر!) تساءلت في استنكار: (تريد أن نترك شباب الصحوة في أتون المعركة بمفردهم، وذلك لحماية التنظيم من المشاركة في المواجهة؟! اسمح لي هذه ميكافيلية!)

- لا يا دوك، الميكافيلية هي التترس بأجيال الشباب لتعميق التنظيم، أما ترك الشباب يخوضون معاركهم يضمن تنوّعًا وتعددًا بحيث يستعصي على النظام مواجهتهم وحصارهم جميعا!

قلت مجادلا في إصرار محارب شرس: (وهل من المروءة ترك الشباب المنفعل المتحمس يتعرّضون لتيارات العنف وأفكار التكفير، ويندفعون في محاولات يائسة، وتجارب طائشة مجنونة ثبت فشلها في التاريخ قديمه وجديده دون دليل ينير لهم الطريق، وحصن يعصمهم من الوقوع في براثن الغلو أو التفريط؟!) أجابني وعلى وجهه ابتسامة عريضة: (لولا أنني أتحدث مع أخي وصديقي الشاب الأكاديمي النابه، لكنت صفقت لك على هذه...) سكتَ مفكّرًا كأنما يبحث عن كلمة أقل إزعاجًا لي –على ما يبدو–، ثم نظر إلي في عمق وهو يتساءل: (على هذه، ماذا أسميها يا دوك؟!) صمت مرة أخرى برهة، وعندما أجاب انبثق الازعاج أمامي منتصبًا بصورة قاتمة، قال: (أصفّق لك على أدائك الرائع في فقرة الساحر في عرض السيرك السياسي العربي، أو الشرق أوسطي! يا سيدي الفاضل، حماية الشباب من تيارات العنف وأفكار التكفير والتطرف وتحصينهم لا تحتاج إلى دمجهم في تنظيم عريق، هذا دور وواجب، أو فريضة شرعية ودعوية وفكرية، تستطيع رموز الجماعة أن تؤديها من فوق المنابر في المساجد، وفي الجامعات، وفي المصانع، وفي الإعلام، ومن خلال نشر الكتب. والنظام السياسي سيترك لهم حرية الحركة في هذا الاتجاه، لأنها تخدم مصالحه في ترشيد ظاهرة العنف! أمّا الدمج التنظيمي فهو دروشة لا أكثر!) قلت مهمومًا وقد كرهت المجادلة: (لم تعد تحترم القيادات والرموز يا سيدي. ألا تذكر يا أخي أن هؤلاء –الدراويش من وجهة نظرك–هم ذاتهم القيادة الحكيمة التي أعطتك فرصة التفرغ للعمل بالخارجية؟! وهذا في حد ذاته يعبّر عن رؤية ثاقبة وفكر مستنير!)

- لا أفهم دكتور محمد، لماذا تُصر على وضع البيض كله في سلة واحدة؟! لماذا يجب أن تلوّن رؤيتي للرموز والقيادة بأحد لونين فقط: أبيض وأسود؟!

قلت في بساطة مؤمن عميق الإيمان: (الدعوة يا أخي الحبيب قائمة على الحُب، الحُب وإعمال القلب مقدّم على إعمال العقل! الإيمان نفسه فضلا عن كونه عمل قلبي بنص

الحديث الشريف "الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل"، فهو أيضًا يُبنى على الحب والبغض في ذات الله! "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؛ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّار."، الإيمان قائم على الحُب والبُغض بامتياز، والحب والبغض نقيضان لا وسط بينهما، لونان لا ثالث لهما، أبيض وأسود كما ترى!)

- لن أجادلك يا صديقي في مسألة أعمال القلب وأعمال العقل، فهي قضية جدلية لا تُحسم بنص دون آخر. وحتى لو كنت أملك مائة دليل على وجهة نظري فلن أستطيع إقناعك. لقد صرت يا دوك درويشًا بامتياز.

ابتسم في لطف ربما ليخفف وقع كلماته القاسية، ثم استطرد: (حبي وتقديري للقيادة والرموز توجب علي توجيه النصح والنقد لها، فالإخلاص في الحب الذي أعرفه يقتضي النصيحة، والنصيحة جوهر الدين!)

قلت في تأفف، وقد سئمت طول الجدال: (صدق المثل: طول البعد يوّلد الجفاء. أخشى أن قرار إبعادك التكتيكي عن التنظيم جعل بينك وبيننا فجوة شعورية ومنطقية يا صديقي!)

قال وعلى وجهه ابتسامة ودود: (تذكّر يا دوك، أنا ابن الفكرة، ابن الصحوة والدعوة، ولن أكون ابن التنظيم!) ولم أشأ أن أُعقّب، وكان لا بد لكسر جمود المشاعر وحدّة الجدال الذي دار أن نعرّج في حديث مفتعل عن الأهل والأحوال الخاصة والعامة، حديث بدا متكلّفًا فاترًا وخاليًا من عمق المشاعر –على الأقل من جهتي–، وانتهت المقابلة، وحيّاني صديقي وانصرف. كانت أمامي على الطاولة أجندة أهداها لي أحدهم في صباح ذات اليوم، ولم أكن استخدمتها بعد، ووجدت نفسي ساهما أفتحها، وأكتب اسم صديقي القنصل، وأفتح قوسًا أكتب فيه ملحوظة: (التنظيم ضرورة لحفظ الدعوة، ومن القواعد المقررة أنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، من أراد أن يكون ممثلًا للفكرة دون التنظيم، فليفعل بعيدًا عن التنظيم، ومن غير دعمنا ومساندتنا، لا يجب أن يتسلّقنا أحد ولو كان مخلصًا لدعوته!) أغلقت القوس، ثم وجدتني أحيط اسم صديقي بدوائر عديدة متعرّجة، وكانت هذه الملحوظة هي البداية!

الأوراق

عُدت من المقابلة الصاخبة مع صديقي القنصلي (نكد المزاج، سئمًا)، لاحظت (عزّة) ضيقي وتبرمي، وكانت قد أعدت مفاجأة لإحياء ليلتنا بالسعادة، وهي مبدعة، تجيد فن صناعة السعادة الزوجية، وتبتكر لتلك الصناعة فكرة جديدة كل فترة. سألتني في قلق، تعمّدت إخفاءه بابتسامة مشرقة: (حبيبي، ماذا به؟! ما الذي يقلق نفسه، ويزعج تفكيره؟! فقط أخبرني باسم من فعل بك هذا) قلت متصنّعًا المرح: (وماذا ستفعلين إذا عرفت اسمه؟!) أجابت في تلقائية عاشقة: (لا شيء، فقط سأقتله!)، عبّرت بيدها بحركة تمثيلية وهي تمررها بالقرب من عنقها الجميل كناية عن الذبح! سألتُ مشدوها: (ألهذه الدرجة؟!)

- أليست نفسك هذه ملكي أنا وحدي يا حبيبي؟ من يعتدي عليها يستحق الذبح!

ثم ضحكت في صخب وهي تمد لي ذراعها لتسحبني إلى غرفة النوم، وتهتف: (هيا يا حُبي، ستبدّل ملابسك، وتخرج إلى الردهة تنتظرني على الأريكة وأنت مغمض العينين، في انتظار مفاجأة الليلة وكل ليلة)، وتركت ضحكتها تجلجل في سكون الليل. طاوعتها مستسلمًا، فأنا في حاجة ماسة للتغيير. طالت لحظات انتظاري في الردهة مغمض العينين، حتى خشيت أن يغلبني النعاس قبل أن تبدأ عزة في تقديم مفاجأتها، ففركت عيني أوقظ نفسي خوفًا من إفساد احتفائها بي، أفقت من أفكاري على صوت موسيقى ينبعث من جهاز التسجيل، وفتحت عيني على خلفية من الأنوار الملونة تضيء وتظلم في انتظام رتيب، وقد أطفأت (عزّة) كافة أضواء الشقة. كانت الموسيقى هي موسيقى جديدة مصاحبة لرقصة راقصة عصرها وأوانها (س ز) "شك شاك شوك!"، وأدرت عيني أبحث عن (حبيبتي) وسط هذه الأجواء المفعمة بالإثارة، ولم أعرف كيف انسلت متفلّتة من المكان دون أن ألمحها بعدما أضاءت الإضاءة الملوّنة وأدارت جهاز التسجيل!، أطلّت من جديد ترتدي (بدلة رقص)، لتقّدم وصلة من الرقص الشرقي على نغمات الموسيقي الشهيرة! ولا تسلني يا صاحبي السؤال الذي يقف الآن في حنجرتك: (وهل يفعل الإخوان ذلك؟!)، ففلسفة (عزّة) أستاذة الفلسفة، أن على الأسر الزوجية الإخوانية أن تفعل! وترى في ذلك نوعًا من العبادة، لا يتخاصم مع عبادة قيام ركعتي الليل جماعة مع زوجها في الليلة التالية! سألتها وأنا هائم في جو السحر الشرقي الذي أبدعته في المنزل: (هل يستقيم ما نفعله الآن مع شخصية الأستاذ الجامعي، والقيادة الدعوية الموقرة؟!)

تجيب وضحكاتها تطوّق المكان بما فيه: (وإن لنا به لأجرًا إن شاء الله) تضحك في دلال وهي تضيف: (خذها مني يا (حمادة) بلا سؤال ولا تعقيب. نحن أتباع دين يجعل ما يفعله الزوجان في خصوصياتهما ما هو أبعد من ذلك بكثير، ولهما به أجرًا!) تذهلني، فأصمت، وهي تضع إصبعها الرقيقة على فمي، تنهاني عن المجادلة: (هش، كفى فلسفة، نحن الآن عشيقان وكفى!)

*****

أحاول بعد هذه الفترة من الزمن إعادة ترتيب الأحداث وفق أهميتها على الرغم من تداخلها وتشابكها وسرعة إيقاعها. أحاول الإجابة عن بعض الأسئلة، هل (السادات) درويشًا وفق المفهوم الذي وضعه صديقي القنصل للدروشة؟! أم ساحر يجيد فنون خلط الأوراق في خفّة وفي زمن قياسي؟! والأحداث الكبرى تمر بنا بسرعة مذهلة، فلا تعطينا فرصة للتحليل والتقدير واستشراف الخطوات التالية، ولا وضع استراتيجية المواجهة بالطبع، وكرة الثلج تتدحرج وتكبر منطلقة نحونا في جنون! حتى ترتيب الأحداث نفسه بدا مشوّشًا متداخلًا، لا تستطيع عزل حدث عن الآخر، ولا أن تحكم مطمئنًا أن هذا كان مقدّمة لذاك. وهل نحن في هذه المرحلة دراويش نتمايل ذات اليمين وذات الشمال مع تموّجات عصى الساحر وحركاته السحرية؟! أم أننا في خانة رد الفعل، في موقع إعراب المفعول به دائمًا من أي جملة ينطق بها النظام، سواء جملة حسنة أم قبيحة؟! تتبدل الجمل، ونظل نحن دائمًا أبدًا مفعولًا به؟! أم أننا في موقع المفعول به من جملة آمرة ينطق بها الكبار في ساحة السياسة الدولية؟!

ولم تكن حياتي كلها مرهونة للعمل العام، أو موقوفة عليه، وإن تشابكت مع متغيرات ومستجدات الحياة العامة، وتأثرت بتقلباتها بشدة! نحن في الإخوان لا نُلقي بالًا كثيرًا لمصطلحات وعبارات من أمثلة: (العمل العام والخدمة العامة، أو العمل التطوعي، أو الممارسة السياسية) وغيرها من العبارات الطنّانة! نحن نؤمن أن حياتنا كلها عبادة ودعوة، "**قُلْ إِنَّ صَلاتي ونُسُكِي ومَحْيَّاي ومَمَاتي لله رب العالمين**"، قد وهبناها كلّها لله! متاعبي الخاصة، وطموحاتي، ورغباتي الشخصية، أهدافي المهنية، ومتطلباتي الاقتصادية، حياتي مع زوجتي (عزّة)، وعلاقاتي، وواجباتي الاجتماعية، كل هذه العلاقات شديدة الخصوصية والأهمية تصبح داخل الإخوان اهتمامات على الهامش! نسجّلها على ظهر ورقة الأسئلة للتذكرة بالعناوين فقط، دون أن نضعها أبدًا على ورقة

الإجابة في امتحان الحياة الطويل! حياتي الخاصة مجرد صدى لما يحدث في الشأن العام، وانعكاس صادق لعلاقة الدعوة بالسلطة والعكس!

*****

حاول نظام (السادات) إعادة ترتيب أوراق المشهد السياسي والاجتماعي والاقتصادي بشكل عام، وفق رؤى جديدة تنسف فعليًا كل الترتيبات التي اتخذها سلفه رفيق (ثورة يوليو)، –ونحن في الإخوان نرفض تسميتها "ثورة" سواء في أدبياتنا المنشورة أو داخل صفوف الجماعة– بعضنا يصفها ب"الانقلاب العسكري"، وآخرون يتفضّلون عليها بمنحها لقب "حركة الجيش"، أو "حركة يوليو"، في ذات الوقت الذي تؤرّخ فيه كُتبنا ومحاضراتنا لمشاركتنا في صناعة ذات الحركة، باعتبارها ثورة أو هبّة وطنية! فنتباهى بمشاركتنا فيها وحماية لحظاتها الأولى، ونجرّمها والقائمين عليها في ذات الوقت! ولم يدرْ في أذهاننا أن نصحّح المفاهيم فنقول مثلا (أنها كانت ثوّرة تم الانقلاب عليها في أعقاب إطاحة مجلس قيادة الثوّرة برئيس الجمهورية الأول لمصر اللواء (محمد نجيب)، لسنا معنيّين سوى بما حدث للإخوان على أيدي أعضاء مجلس قيادة الثورة! –ماذا يمكن أن نضيفه لتاريخ مصر الحديث لو كففنا عن كتابته مستقطَبين إلى ناصريين وإسلاميين؟ ورويناه بعين مجردة كما أحاول أن أفعل الآن؟! عموما كنا كتيارات شبابية بدأت تحتل مكانة مرموقة في صفوف الجماعة، مستريحين لهذه الازدواجية الفكرية التي تسيطر على عقول شبابنا! حيث نؤمن بالشيء ونقيضه، ونطلق منطقة رمادية **(جميلة)** عند أفراد التنظيم تعطينا مساحة واسعة من المرونة في اتخاذ القرارات المحورية، فدائمًا الأسئلة تحتمل تعدد الإجابات، هذا ليس فقط مقبولًا في عالم السياسة، لكنه أيضًا دليل تنوع فكري يؤتي ثماره الممتازة داخل الجماعة، فلسنا قوالب مصمتة! دع من يريد الإيمان بأن مبادئنا مرحلية تكتيكية قابلة للتغيير المستقبلي وفق الظروف والمتغيرات، دعه يؤمن بذلك حتى لا تخسره إن أجبرته على قناعات ثابتة غير قابلة للتطور! وفي ذات الوقت حافظ على من يخالف هذه الرؤية ويرى أن (اللا عنف) –على سبيل المثال– ثابت عقائدي لدينا، فكلاهما فرسي رهان!

ومع ذلك فإننا نواجه عقبات أمام القيادات الشبابية صاحبة الرؤى والمبادئ الثابتة، الذين يحبون الوضوح والصراحة، ويتترسون بها ويرون أنفسهم تلاميذ نجباء لشخصية التلمساني، هؤلاء أمثال (أبو الفتوح) و(العريان) و(حلمي) و(الزعفراني)، وغيرهم. كنا نرى أن أفضل أدوارهم أن ينفتحوا على العالم الخارجي بعيدًا عن إشكاليات العمل التنظيمي

وتعقيداته. فهم واجهة مشرقة وصادقة –فترينة عرض رائعة– أما نحن داخل التنظيم فنفعل ما يسهل لنا قياده، دون أن نفقد مبادئنا الأساسية. نطبق نصيحة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب "أشغل الجند". ونوظّف طاقات إخواننا ونشغل الآخرين. ولا تنسَ عزيزي القارئ أن هؤلاء الإخوة الأفاضل كان لهم فضل السبق، ولا نستطيع تهميش أدوارهم بشكل فعلي، وإنما نحاول دائمًا إزاحتهم للخارج، خاصة في المرحلة التي تحالفنا فيها بشكل ضمني مع قيادات وأعضاء تنظيم (٦٥). هؤلاء كانوا أقرب لأفكارنا وروحنا، وكنا تلاميذ مخلصين لأفكارهم، ولن أذكر من أسمائهم إلا أخي وصديقي الرجل الذي تعلّمت منه أسرار القيادة البارعة، الدكتور (محمود عزت[٢٦]) وتستطيعون استنتاج باقي الأسماء! كونهم ظلوا أصدقاءه المقربين!

إن نظرتنا هذه للأمور تُعتبر ولا شك من باب الكياسة، ألم يوّظف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوة عمر بن الخطاب وشجاعته وشدته وغضبه لله ورسوله، كما وظف لين أبي بكر الصديق وسماحته ورقته وحلمه؟! كذلك نفعل. ولكل سهم في كنانتنا هدف سينطلق إليه إن أحسنّا توجيهه وإطلاقه!

نضحك ونحن نستمع إلى حكايات عمّنا الحاج (فرج النجار) الفلاح بن محافظة المنوفية –أطول هارب في التاريخ– الرجل الذي فاقت فترة هروبه واختفائه داخل القطر المصري، فترة اختفاء المناضل خطيب الثورة العُرابية الشيخ (عبد الله النديم). فللرجل بطولات خارقة اقتضت مصلحة التنظيم عدم نشرها على الملأ!

الحاج (فرج النجار) كان مسؤولًا عن النظام الخاص في منطقة الدلتا، واستطاع في نفس الوقت اختراق الحزب الشيوعي المصري، استطاع أن يصبح شيوعيًا صرفًا، حتى أقنع قادة الحزب وأعضاءه وساسته ومنظّريه، فوصل إلى منصب نائب السكرتير العام للحزب! أي الرجل الثاني في الحزب بطول مصر وعرضها! وقرر الحزب القيام باغتيال (حسن البنا) الداعية "المُطربَش" الذي زلزل الأرض تحت أقدام الشيوعية في مصر! وتم تكليف (فرج النجار) نائب السكرتير العام للإشراف على تنفيذ العملية التي حددت لها مدينة طنطا، حيث يحضر (الإمام البنا) احتفالًا هناك ويلقي كلمة في الصوان المعد لذلك. كما كُلف (فرج النجار) من قيادته في النظام الخاص بالإخوان بإفشال

[٢٦] - نائب المرشد العام المحسوب على التيار القطبي وتنظيم ٦٥

محاولة الاغتيال والقبض على مجموعة الشيوعيين المكلفين بتنفيذ الاغتيال وتسليمهم للشرطة!

يحكي الحاج (فرج) بأسلوبه الفريد الممتع في بساطة وغير تكلف، كيف استلم القنابل الشيوعية المعدة لعملية الهجوم وتنفيذ الاغتيال. وكيف قام بمفرده بإفراغ هذه القنابل من محتوياتها من المواد المتفجرة، وأعاد تعبئتها بالرمال والأتربة محافظًا على وزنها، ومظهرها الخارجي. وسلمها إلى رفاقه أعضاء الخلية الشيوعية قُبيل التنفيذ بوقت قصير لا يسمح لهم بمراجعة شيء! وكيف اتفق مع إخوان النظام الخاص الذين تسلحوا بالشوم والعصي، ليكونوا عن يمينه على مبعدة حيث يقف هو في المنتصف تمامًا خلف منصة شادر الاحتفال، ورتّب مع أعضاء الخلية الشيوعية أن يكونوا عن يساره على نفس المسافة تقريبا في الاتجاه المعاكس. ثم. (ويفرقع بإصبعيه هكذا محدثًا صوتاً وسط ضحكات المتابعين لحكايته)، يشير بيده اليسرى لأفراد الخلية الشيوعية ليتقدموا من اليسار عدوًا إلى خلف الشادر مباشرة، وفي أيديهم القنابل لإلقائها بعد نزع فتيل الأمان منها. ويشير بكفه الأيمن في خفة – وهو يضحك من كل قلبه– إلى إخوة النظام الخاص لتعدو بسرعة أكبر وتحيط بأفراد الخلية الشيوعية وتقبض عليهم متلبسين وفي أيديهم قنابل الرمل والتراب! كان عمنا الحاج (فرج) يضحك، ونستلقي على ظهورنا من الضحك. أستلهم هذه الحكاية دائمًا وأنا أعقد عمليات الموائمة والموازنة. ناظرًا إلى كفيّ، إشارة الكف اليمنى في اتجاه، وإشارة الكف اليسرى في اتجاه آخر تمامًا. لعل هذا هو ما دفع بي بسرعة الصاروخ إلى قلب القيادة النابهة، حيث لا يغلبني الخب!

*****

أعدّت لنا (عزّة) في بداية أجازة نصف العام، ليلة خميس مترعة بأصناف من السحر واللذة. قضينا أمسية ممتعة بدأناها بلعب الشطرنج، وحينما حاصرتُ (ملكة) الجيش الأبيض الذي كانت تلعب بقطعه دائمًا –وتُصر على أن قائد جيشها ملكة كـ(كليوباترا) وليس ملكًا ككل قطع شطرنج العالم!–عندما كششت (ملكتها) تمرّدت، وقررت أن تقلب الرقعة وأن تهزمني في (الديمنو)، لأنها من الأساس لم تُحب (الشطرنج) أبدًا. لا تُحبه وهي مهزومة! وهزمتني في (الديمنو) ثم في ورق (الكوتشينة). ولم أستطع ان أجد في نفسي على (عزّة) وهي تُلحق بي الخسارة إثر الأخرى، إذ كانت قد أعدت لنا مشروب (السحلب) الساخن اللذيذ تفوح منه رائحة (القرّفة) تُزيّن وجه الأكواب. وأمامنا على ركن الطاولة أنواع التسالي من لب وفول سوداني وحمص، ثم توالت خسائري في ورق (الكوتشينة)، فغاضبتها وقلبتُ طاولة اللعب مُحدثًا فوضى عارمة في الردهة، فقفزت

تجري من أمامي، وتختبئ خلف قطع الأثاث –التي كانت من الطراز الضخم ما يتيح لها الاختباء هنا وهناك–وتحولت الأمسية إلى لعبة الاختفاء (الاستغماية)، ثم في غمضة عين كبست زر الكهرباء لتطفئ الضوء، وتكبس زر التسجيل في نفس اللّحظة لتتبعث الموسيقى الراقصة. ولم أكن أقل كرمًا منها، ودفعت بنصيبي في (شركة السعادة الزوجية)، حيث أعددت لها مفاجأة في صبيحة اليوم التالي –نهار الجمعة– رحلة إلى القناطر الخيرية. كان من حسن التوفيق أن اليوم كان من أيام فبراير المشمسة بعد عدة أيام من الغيوم والأمطار التي لا تنقطع! كانت قبل مغادرتنا المنزل تَعجب من إصراري على ارتدائها بنطالا –من الجينز– أسفل عباءتها الفضفاضة، تملّصتْ متذرّعة بأن هذا سيجعل ملابسها غير مهندمة، لكنني صممت على ذلك. ولم تكن المرة الأولى التي نقضي فيها عطلتنا بالقناطر الخيرية، نمرح في حدائقها الفسيحة بجوار نهر النيل المنساب في روعة. لكنها كانت المرة الأولى بالتأكيد التي أستأجر فيها دراجة، وأرفع (عزّة) لأجلسها أمامي عليها، وأنطلق بها مسابقًا الريح! كنا في الفضاء الأخضر الرحب، ولم يكن المكان مزدحمًا بالمتنزهين، وضحكاتنا تطير بنا في هذا الهواء الطلق، حيث ابتعدنا حتى كدنا نحازي أسوار سجن النساء! ولم أكتفِ بذلك، بل أصررت على تعليمها قيادة الدراجة، وكان من الصعب عليها حفظ توازنها فوق الدراجة، ولا يمكنني الآن إحصاء المرات التي دفعت بها الدراجة لتسقط على الأرض الخضراء، وأنا أقهقه على حالها وقد تلطّخ بنطالها من الأرض المبتلة من أثر مطر لم يجف! وحان وقت الغداء، وعدنا إلى وسط المنتزه، لأجد جمعًا من أُسر الإخوان بالقاهرة، في قبالتنا، حيث رتّبوا لرحلة ترفيهية جماعية، وسرعان ما انخرطت الزوجات في حلقة بالجوار، ووجدت نفسي أجلس بين عدد من شباب الإخوان، كلهم ينظرون إليّ باعتباري قيادة مهمة مطّلعة على بواطن الأمور، ودار حديث منصب في مجمله على السياسات الجديدة للرئيس (السادات)، ابتدرنا أحد الشباب بقوله: ((السادات) ينقلب على سياسات (عبد الناصر))

عقّب آخر مبتسما: (ألم تسمعوا نكتة الناس على المقاهي وفي المواصلات العامة؟ (السادات) يمشي على خطى (عبد الناصر) بـ(أستيكة) ليمحوها!)

ثم انساب حديث السياسة –الذي ما يلبث أن يُفتح حتى يستمر ساعات طويلة لا تنقضي– فتح (السادات) الباب بعد محاورة ومداورة مع الاتحاد الاشتراكي، وشد وجذب، لتأسيس الأحزاب السياسية في أعقاب تأسيسه لفكرة المنابر السياسية داخل الاتحاد. سألني أحد الشباب يدرس العلوم السياسية –بلهجة ذكّرتني بصديقي القنصل–: (علينا يا

دكتور محمد أن نحدد أهدافنا بوضوح ودِقة. ماذا نريد وسط هذه الأجواء المتقلبة التي تثيرها سياسيات (السادات) كزوابع أمشير! هل نريد أن نتحول إلى جماعة ضغط سياسي؟ أم مؤسسة إصلاحية اجتماعية تحافظ على توازن المجتمع وقيَمه وتراثه؟ أم نريد أن نتحول إلى حزب سياسي معارض ينافس الحزب الحاكم على السلطة؟!) أجابه أحدهم بسؤال: (وهل يسمح لك النظام بالتحول لحزب سياسي منافس على السلطة؟ أما سمعت (السادات) شخصيًا يتحدّث عن أنياب الديمقراطية؟!) أجاب طالب العلوم السياسية: (السلطة تتمنى دمجنا في الحياة السياسية، فهذه أفضل وسيلة للحفاظ علينا داخل المنظومة العامة للدولة. هناك شواهد كثيرة على ذلك منها دعوة (السادات) الأستاذ المرشد للتعيين ضمن الأعضاء المعينين داخل مجلس الشورى!) أخذت أتأمل في حديث الشاب، وأبحث عن إجابة لسؤاله ماذا نريد على وجه التحديد والدقة؟! نحن نريد كل شيء. ولا أفهم –حتى الآن– فقه التخيير بين الأشياء! قلت بنبرة القائد الواثق، وأنا أسلط نظراتي على طالب العلوم السياسية بشكل أكبر من الآخرين: (نحن جماعة تحتوي كل تلك التعريفات، سنظل مؤسسة وشركة وجماعة ضغط وهيئة إصلاحية جامعة، ومنافسًا سياسيًّا قويًّا يلقف –بعون الله– ما يأفكون من أفاعي سحرة فرعون من أحزاب سياسية وغيرها، سنظل نمارس السياسة. نعارض، وننافس، ونضغط، ولكن بأسلوبنا، لا بأسلوب يفرضه علينا العصر، ولا بأسلوب يُمكّن الحكومة من احتوائنا، لاحظوا يا إخوة أننا نملك مفاتيح هذا الشعب المتدين بفطرته، منابر المساجد. ساحات صلاة العيد، والهدايا التي نوزعها في الصلاة على الأجيال الصاعدة من الأشبال، لدينا مؤسسات خيرية، وجمعيات خدمية واجتماعية، وجذور تحت الأرض ضاربة بفروعها في كل قرية وكل نجع. وداخل كل حارة وربع وزقاق في مصر! الخصم أيضًا لديه أسلحة وامتيازات. ليس من حقه استخدامها لأنها في الأصل ملك الشعب، ملكنا نحن أيضًا كجزء من الشعب! النظام السياسي يستخدم الدين عبر وزارة الأوقاف التي تشرف على منابر المساجد التابعة لها، ولديه تلفاز ملاكي ومحطات إذاعة خصوصي، وصحافة موجّهة، وجيش وشرطة وسلطات قضائية وتشريعية. الحرب بيننا وبينه مفتوحة. سجال، هو يملك المؤسسات، ونحن نتمدد على الأرض!)

*****

باتت سياسات (السادات) حديث الساعة. فكما أفسد حديثها فرصة استجمامي و(عزّة) منفرديْن في القناطر الخيرية. استطاع حديثها المستمر أن يُسمّم الأجواء حولنا في كل مكان. وأسوأ ما في حديث السياسة في أوقات الانتقالات الكبرى في حياة الشعوب، هي تلك التصنيفات المؤدلجة التي ينتهي إليها، لقد انفتحنا على المجتمع فوجدنا أنفسنا

والناس مختلفين، فلكل ذائقته وأسلوبه وهوَاه. وجدنا من بيننا الأهلاوي والزملكاوي، وتساءلت مبكرًا كيف يتقاسم القطبان الرياضيان عالم الساحرة المستديرة –كرة القدم– رغم فارق عدد الألقاب الحاصل عليها كل منهما، ومع ذلك يظل جمهور المنافس الأقل حصولًا على الألقاب على انتمائه وعشقه، وقد يتحول الانتماء إلى حالة مرضية من التعصب! ووجدنا الناس ينقسمون بين حب غناء (العندليب الأسمر)، وبين الاستمتاع بفن (فريد الأطرش). ويجعلون بينهما خصومة وصراعًا! ووجدنا أناسا يحبّون زعيمًا سياسيًا وينحازون له دون سواه، وآخرين يمقتون ذات الزعيم من كل قلوبهم، نشأتُ في منطقة (الفجّالة) وقد امتلأت بأكثر من كنيسة تاريخية من كنائس إخواننا النصارى، وكذلك مدرسة (اليوسفية) للروم الكاثوليك، وكان نصف زملائنا وأترابنا من أبناء الجيران من النصارى، وكنا ندرك مبكرًا الفروق العقائدية بيننا وبينهم، ورغم كل الانقسامات السابقة، على مختلف المستويات، فإنها كانت تذوب في المجموع، توجد دائمًا لحظات فارقة في حياتنا لا يسأل فيها المرء جاره عن التصنيف! الآن صرنا إذا اختلفنا، صنّف كل منا المخالف له إلى قسم آخر من البشر، وصار هذا التصنيف سببًا من أسباب التباعد النفسي والروحي، لم نعد داخل الوحدة الواحدة من وحدات المجتمع منسجمين كما كنا من قبل، لم نعد مختلفين، وإنما تحولنا إلى خصوم، وحولتنا الخصومة، إلى متربصين، يتوجّس كل منا من صاحبه، ولا يحب له الخير، بتْنا نرى في صعود زميل هبوط وتردٍ لنا. حديث السياسة على هذا الشكل لوّث نفوسنا وأرواحنا!

*****

نحن ثلاثة زملاء في القسم، دكتور (مصطفى سيد)، ودكتورة (سامية جورج)، وكاتب هذه السطور، ويرأسنا أستاذ دكتور (جمال الشيمي)، وكنا قليلا ما نجتمع جميعًا داخل القسم لساعات طويلة. لكننا نتقابل بشكل شبه يومي بالتأكيد، ونتبادل بعض الأحاديث الودية أثناء عملنا، وأحيانًا تسنح الظروف لتناول قهوة الظهيرة معا. وكنت كثيرًا ما أفتح حديث السياسة مع زميلي (مصطفى)، الذي لم يكن مهتمًا بالشأن العام، فهو يكرّس جُل وقته لعمله والانكباب على إتمام رسالته، فإذا تبقى لديه وقت بعد الفراغ من جدول أعماله اليومية، أو أراد الترويح عن نفسه قليلا، يذهب إلى السينما، أو يفرّغ طاقته النفسية في متابعة مباراة في كرة القدم. ويحرص على شراء إحدى الجرائد اليومية بانتظام، ولا يقرأ منها عادة إلا صفحة الرياضة، فإذا غلبه الملل تطرّق إلى بعض العناوين المثيرة في صفحة الحوادث، هذا فقط ما يربطه بالمجتمع الذي يعيش فيه! وكنت مهمومًا بكيفية

دعوته لمشاركتي في العمل العام من خلال الدعوة، ولم أجد مدخلاً مناسبًا له، هل أُحدّثه في الدين والالتزام بالعبادات والقيم والمُثل؟! إنه أمر شائك وشديد الحساسية، فأنت إذ تواجه أحدًا بقضية الالتزام الديني فكأنك تصفه بالمروق من الدين، وتشعره بأنك حامل مشعل الهداية إلى الإنسانية، كما أن الرجل في إطار زمالتنا لم يكن خارجًا عن أعراف المجتمع في أخلاقه وسلوكه العام، ولم أجد مدخلًا أمارس معه من خلاله واجب الدعوة الفردية إلا حديث السياسة، ودكتور (مصطفى) رغم عدم مبالاته بالشأن السياسي العام، يملك تطلعات وانحيازات تجاه أمريكا، عنده أشواق إلى المجتمع الأمريكي، ولديه طموح الابتعاث إلى هناك، ليحصل على الدكتوراه من إحدى الجامعات الأمريكية، ويضيق بي إذا حدّثته مطولًا عن الخطايا التي ارتكبها (السادات) بتوقيعه على اتفاقية (كامب ديفيد). قال لي محتجّا ضائق النفس: (وما الضيْر في ذلك؟ إنما اخترع البشر الحروب للحفاظ على حدودهم أو الحصول على حقوقهم، فإن كانت ثَمّة وسيلة للحصول على نفس الحقوق دون إراقة دماء، فلمَ الإصرار على الدمار؟!) وأحدّثه مطولا عن التنازلات التي قُدّمت، وعدم ارتباط الحقوق بعدد حبات الرمال التي سنحصل عليها فعليا، مقابل التخلي عن الدور الاستراتيجي الإقليمي والدولي، وعن الاعتراف غير الأخلاقي باللص وهو المحتل الغاصب، ورفض مبدأ فرض الأمر الواقع بالقوة والعنف وإرهاب شعوب المنطقة. سألني مجددًا: (أنتم رجال دين. غايتكم غرس القيم والمبادئ السامية، ونشر الأخلاق القويمة والفضائل في المجتمع، فلمَ لا تستغلون هذه الفرصة لتنطلقوا إلى غايتكم، وتتركوا معارضة (كامب ديفيد)، لأنكم سواء قبلتم أو عارضتم، وسواء أبديتم احتجاجًا صارخًا، أو التزمتم الصمت، فإن الاتفاقية مُرّرت فعلًا، وهي مشروع الرجل الذي جاء من أجله، (السلام الدائم والعادل)، حلم الرجل الذي يبدو أنه كرّس حياته من أجله، والعالم كله يصفّق له ويكرّمه لذلك، فلماذا تصرون على السباحة ضد التيار؟! تستطيعون الصمت مع تحقيق مكاسب ضخمة لجماعتكم؟!) لم تكن طبيعة النقاش تسمح لي بسرد فكرتي الكاملة عن مدى ارتباط الدين بالسياسة، وأن الله يزع بالسلطان، ما لا يزع بالقرآن، ولا أننا لسنا دعاة أخلاق وفضيلة على الطريقة الكهنوتية فحسب، وإنما دعاة إصلاح الدنيا بالدين، فإصلاح الدنيا يتطلّب الانخراط في العمل السياسي، فاكتفيت بالقول: (هل تعلم أنك تفكّر بنفس طريقة (السادات)؟!) سألني وقد لمعت عيناه ببريق حاد: (حقا؟! كيف ذلك؟!)

–(السادات) دعا الأستاذ (عمر)، وطلب إليه الصمت عن معارضة (كامب ديفيد) مقابل السماح لنا بالانطلاق في دعوتنا كيف نشاء، ودعم مجلة (الدعوة) من أموال

الدولة، أسوة بجرائد الصحف الحزبية، (مايو والشعب والأهالي والأحرار)، ولكننا بعد طول مناقشة رفضنا هذا العرض المغري.

- والله لقد أعطاكم الرجل أكثر مما تستحقون، ولكنكم –اعذرني– تصرّون على المضي في طريق مسدود.
- كيف أعطانا الرجل أكثر مما نستحق، وهو يغرينا أساسًا بمال الدولة الذي هو ملك للجميع من الأساس؟!
- يا سيدي كان الرجل كريمًا معكم إلى أقصى حد. فهو لم يطلب منكم تأييد الاتفاقية، ولا الرقص على أنغام التهليل والتطبيل له باعتباره بطل الحرب والسلام، وإنما طلب الصمت، التغاضي والانشغال بأمور دعوتكم، ولم يطلب منكم التوقف عن تناول الشأن السياسي، وإنما فقط تركه وشأنه مع مشروع حياته الذي وهب له نفسه.
- المسألة من الأساس يا (مصطفى) مسألة مبدأ. والمبادئ لا تتجزأ. كيف نواجه الشعب بمعارضة قضية فرعية أو جزئية هنا أو هناك، وقد تغاضينا عن أُم المصائب؟ وهل يصدقنا الشعب بعد ذلك؟ وهم يروننا نرقص على أحبال السلطة، وفوق جثث شهدائنا الذين قضوا بالآلاف من أجل هذا الوطن في حروب ٤٨، و ٦٧، والاستنزاف، و ٧٣؟!

سألني في استنكار: (وهل تسمون معاهدة تحرير سيناء أُم المصائب؟!)

- هذا يتوقّف على الزاوية التي تنظر بها إلى الأمور يا سيدي، فنحن نرحب بتحرير سيناء كاملة غير منقوصة بأي طريق كان، ذلك حقنا الوطني وليس منّة من أحد علينا، ولا يجب أن ندفع مقابله الاعتراف بعصابة الصهيونية لترتع في المنطقة كيف تشاء!

ولا ينتهي نقاشنا حول مسألة (كامب ديفيد) إلا بتعميق انقسامنا حول المسألة وحول غيرها من قضايا الحياة، ويتناثر رذاذ من حديثنا ليصل إلى الدكتور (جمال)، وهذه هي القضية الوحيدة التي تتلاقى وجهتي نظرنا فيها، فالدكتور (جمال) يكره في (مصطفى) حبه (السادات)، وتعلّقه بالحلم الأمريكي، كرهًا يجعل (مصطفى) يعتقد أنه يضطهده لإفشال مساعيه في الحصول على بعثة لاستكمال دراسته بأمريكا، والدكتور (جمال) يمقت أمريكا، ويقبل (العمى) ولا يقبل أن يسمع اسم (إسرائيل). كان مثلي يطلق عليها دولة

(الكيان الصهيوني). وفيما عدا هذه المسألة، فوجهتي نظرنا تتباعدان حتى تسيران في خطين متوازيين غير قابلين للتلاقي! حتى أشعر أحيانًا بتعنته معي في شأن رسالتي، لأسباب نفسية تتعلق بمسألة كرهه للصحوة الإسلامية وكل مظاهرها، وكل من يمثّلها من أمثالي. ولم يكن يُخفي هذا العداء أو يغلّفه بأدبيات المجاملة الأكاديمية. فهو يجاهر بعدائه لقيمي وأفكاري ومظهري، وفي المقابل أجد لذة غريبة في إعلان التحدي له، فذلك على المستوى النفسي يعطيني إحساسًا فائقا بالبطولة والفروسية، فأرى نفسي من المجاهدين أصحاب المبادئ الثابتة، وأنا أصر على عدم التخفيف من مظاهر التحدي لرئيس مباشر، فأعاني من جرّاء ذلك بعض العنت –وكله في سبيل الله!– أما العلاقة بيني وبين زميلتنا الدكتورة (سامية جورج) فعلاقة يسودها الاحترام المتبادل، وآداب الزمالة المهنية والأكاديمية، فبطبيعة نشأتي لا أجد أي تحفظ في تعاملي مع أصدقائي النصارى، وكان هذا الأدب متبادلًا بيننا في هدوء. فإني أتحفّظ على وصف بعض أصحاب الهوَس الديني من الزملاء أو شباب الطلاب للنصارى، أو الإشارة إليهم بلفظ مثل (الصليبي، أو الصليبية). فمن التديّن أن أناديهم بما وصفهم به القرآن الكريم "**ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى**". وإذ كنت أعلن التحدي للدكتور (جمال) بإصراري على إظهار بعض مظاهر (الهديْ الظاهر) من السُنّة النبوية –مخالفًا بذلك نصيحة الأستاذ (عمر) المبكّرة لي!– فإنني لم أحلم مجرد حلم، أن ذلك يمكن أن يستفز زميلتي (سامية) أو أحدًا من أصدقائي النصارى. فالاختلاف العقائدي سنّة من سُنن الله في خلقه.

*****

ونجحت الثورة (الخمينية) في إيران، الثورة الإسلامية، التي جاءت بآيات الله، ذوي اللّحى الطويلة، والعمائم السوداء، إلى سُدّة الحكم في بلد إسلامي غني بالبترول، مُطل على الخليج العربي، متماسٍ بدول عربية حليفة استراتيجيًا لأمريكا، على أنقاض نظام الشاه (محمد رضا بهلوي) الذي كان هو أيضًا حليفًا استراتيجيًا فوق العادة لأمريكا بالمنطقة! ولم أندم في حياتي على شيء قدر ما ندمت على تفاؤلي وتبشيري بتلك الثورة الطائفية الإثنى عشرية، صحيح أنها كانت ثورة تركب آلام شعب مغلوب منهوب ثرواته الكبيرة لحساب حفنة من الحكام ومن يسير في ركابهم، وتعلن التحدي الصريح لأمريكا والغرب، وأطلقت العنان لمجموعة من الطلاب الثوريين لاحتلال مبنى السفارة الأمريكية بطهران واتّخاذ طاقمها رهائن لعدة شهور، وأعادت إنتاج (فُقّاعة) إلقاء دولة الكيان الصهيوني في البحر! إلا أنني أصارحك بكل وضوح، لقد خُدعت أكبر خدعة في حياتي،

وتعلّمت من ذلك درسًا قاسيًا، عليك ألا تضع رهاناتك إلا فيما تملك فعليًا، لا تضعها أبدًا في أفراس الآخرين. ووقعت الجماعة في فخ التعاطف مع الثورة (الخمينية)، ولو من باب التضامن مع الشعوب المقهورة، أو لإقرار مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها. ومن بين فروع الصحوة من هلّل علانية في إعلامه وصحفه لهذه الثورة، وبشّر بها، ولا أنسى لقاءً صحفيًا نشرته مجلة (المختار الإسلامي) مع آية الله الخميني في بيته المتواضع في طهران! و(مجلة المختار) محسوبة على الصحوة، بصرف النظر عن اختلاف توجهاتها عن توجهات جماعة الإخوان، ومجلتها الناطقة باسمها (مجلة الدعوة). لأنهم كما يقولون في المثل الشعبي: "كله عند العرب صابون"، فكل ما يتعلّق بالصحوة وفصائلها لدى الشعب (إخوان)! إن أخطأ شاب في جامعة من جامعات الصعيد وتعدّى باللفظ على أستاذ أو (معيد)، فقد أخطأت جماعة الإخوان، وإن تحرش طالب ملتح بفتاة متبرجة على محطة قطار بالمنصورة رفضًا لتبرجها، فلقد تجاوزت جماعة الإخوان! وأخيرًا ألصقوا بنا أننا نقبض من (ملالي إيران)، و(آيات الله) ذوي اللحى الطويلة والعمائم السوداء! ولا أستطيع يا سيدي أن أقرر بدقة هل هذا يعبر عن خطئنا في تحديد هُويتنا بوضوح؟ أو هو تغاضينا عن بعض الخطايا التي يرتكبها الآخرون المنسوبة إلينا من باب التعاطف مع كل من يرفع راية مكتوب عليها الإسلام، ولو كان دعيّا؟! أم أن الأمر يتعلّق بسذاجة الشعوب التي تصدّق ذلك، دون أن يكون لنا في ذلك ذنب أو جريرة؟!

*****

ذات مساء زارنا في المنزل (عادل) شقيق (عزّة)، وما إن شرعنا في الحديث بعد تبادل السلامات والتحيات، والسؤال عن الأحوال وغيرها من الأسئلة الاعتيادية في مثل هذه الزيارات ذات الطابع العائلي، بدا عادل منزعجًا غاية الانزعاج –على غير طبيعته الرزينة الهادئة– وهو يصف استقبال (السادات) لـ(شاه إيران) الذي رفض أسياده في أمريكا استقباله، واستقبلته مصر، بالحماقة الكبرى!

علّقت (عزّة) باسمة وهي تجلس بيننا منكبّة على تقليب السكر في أكواب الشاي: (يبدو أنه مكتوب عليه أن يموت ويُدفن في مصر، فمصر مقبرة الطغاة كما هي دائما مقبرة الغزاة!) ولم يمر على نبوءة (عزّة) إلا بضعة أشهر حتى تحققت، فمات الشاه ودُفن في القاهرة!

*****

ولم تهدأ الحوادث من حولنا وتعطنا فرصة لالتقاط الأنفاس المبهورة، فبدأ الغزو السوفيتي لأفغانستان، وأعلنت فصائل المقاومة الأفغانية (الجهاد الأفغاني) ضد الروس. وأصبحنا كسيارة الإطفاء الوحيدة العاجزة، بين عدد من الحرائق تندلع هنا وهناك في آن واحد! اجتمعنا اجتماعات عاجلة وقرّرنا بعد مناقشات مضنية، وسط أجواء مفعمة بالحماسة والانفعال، دعم الجهاد الأفغاني. وكان من بين القيادة الإخوانية من هم على اتصال بزعماء الفصائل الأفغانية ويعرفون كثيرًا من التفاصيل الخافية علينا، وعلى رأسهم الدكتور (أحمد الملط) والأستاذ (كمال السنانيري). وعلمنا منهما أن الأفغان لا يريدون الدعم بالرجال، لا يريدون من العرب أن يشاركوهم القتال، وإنما يحتاجون إلى الدعم المالي بشدة لشراء الأسلحة، وتوفير سبل العيش والاستمرار في المواجهة، كما يحتاجون إلى الدعم الإعلامي والمعنوي، وصناعة رأي عام عالمي مناهض لموقف السوفييت للضغط عليهم. وقررنا أن نلقي بثقلنا في المعركة!

أصبحنا في حالة (تعبئة عامة)، وبسرعة البرق، تبنّت منابر الصحوة (الجهاد الأفغاني) في كل مكان، في خطب المساجد التي يعتليها خطباء ينتمون لنا، وفي صحافتنا، وعقدنا عشرات المؤتمرات الشعبية في كل مكان في مصر، وباتت الجامعات في حركة دائبة، وانهالت التبرّعات من أفراد الشعب (المُعدم) لمساندة الجهاد. وقامت المرأة بدور عظيم في تلك التعبئة، فكانت النساء والبنات يتبرعن بحليّهن الذهبية لصالح دعم الجهاد. ووقفتُ في الجامعة متحدّثًا في المؤتمرات الطلابية التي أقامها اتحاد الطلاب والجماعة الإسلامية، وتغلبت عليّ طبيعة حماسية، لم تكن معروفة عني من قبل، وحوّلني رئيس القسم إلى التحقيق. وكانت مواجهة ساخنة بيننا عندما ذهبت إليه في مكتبه محتجًا على التحقيق، وكان هو كذلك في حالة قصوى من الهياج والثورة، وابتدرني صائحًا في انفعال وبلهجة لم يكن يخاطبني بها من قبل، بها كثير من التجاوزات التي لا أقبلها: ((السادات) يستخدمكم لأغراضه يا مغفّلين. وأنتم تسيرون خلفه كقطعان الأغنام العمياء!) وكان عليّ أن أرد الإهانة التي كانت الأولى من نوعها، فقلت وأنا أكز على أسناني، وحاولت أن أجعل صوتي خفيضا: ((السادات) الذي يوظّفنا لأغراضه يا دكتور، هو نفسه الذي تهددنا سيادتك ببلاغاتك عنا لمباحث أمن دولته! فإن كنا نعمل لحساب السادات. فلماذا تحاصرنا مباحثه و(بوليسه) السياسي؟!) أجابني بنفس الحدّة: (صحيح بعض أجهزة الدولة تتخبّط في سياستها، وبعض الأجهزة الأمنية ترفض، أو لا تفهم مرامي (السادات) من وراء استخدامكم، واللعب بورقتكم، فيظلّون خلفكم في المطاردة التقليدية، لكنكم في النهاية تحققون أهداف سياسته العليا) كدت أصرخ في وجهه: (هُراء) لكنني تمالكت أعصابي،

واندفع قائلا: (ألم تتابع استقباله (للمجدّدي) السياسي والدبلوماسي الأفغاني؟ ألم تلحظ دعمه للعصابات المسلّحة في أحراش أفغانستان؟ إنه ينفّذ الأجندة الأمريكية بامتياز. الإخوان المسلمون باتت في قبضة (العم سام). أنتم ورقة الأمريكان الجديدة في المنطقة) ساءتني بشدة أوصافه لنا، وتوصيفه للمشهد برمّته، وساءني أكثر وصفه للمجاهدين الأفغان بالعصابات المسلّحة، ولأني أدرك (ناصريته) المتأججة، وارتباطاته بالفكر والثقافة السوفيتية، أجبته بجملة زادت من هياجه، قلت: (نحن لا يستخدمنا أحد إلا مولانا الله. نحن عباده وجنوده الذين ينصرون رجاله في الجبال والمستنقعات والأحراش، ولو كانوا حفاة عراة، فنحن سندهم وعونهم) رفع رأسه إليّ مسددًا نظرة طويلة قاسية، وقال متوعدًا: (يمكنك قول ما تشاء في التحقيق. أمام مجلس التأديب) وانصرفت من أمامه مرفوع الرأس تعلو وجهي ابتسامة هازئة، وصفقت الباب خلفي في عنف!

*****

في الوقت الذي أصدر فيه (السادات) أوامره بعدم المشاركة في دورة الألعاب الأوليمبية في موسكو (٨٠)، احتجاجًا على الغزو السوفيتي لأفغانستان، وكان واضحًا دعمه هو ودول الخليج لموقف المجاهدين الأفغان، ظلت الملاحقات الأمنية، والمضايقات تطال أبناء الصحوة في المؤسسات والمصالح الحكومية، وتفكّرت في مظاهر النفاق والتطبيل والتهليل التي يبديها مسؤولو القطاعات المختلفة لرئيس الجمهورية وسياساته، التي هي دائمًا حكيمة وملهمة. ورغم ذلك لا يستطيعون التخلّص من آثار إرث العهد الناصري، فما زالوا في تشكك نحو كل ما هو إسلامي! ولو كان ينسجم مع سياسات (السادات)!)

في اجتماعنا المسائي في مكتب (التوفيقية)، جاءنا أحد الأخوة مُستثارًا حانقًا، إذ تعرّض لمضايقات عديدة في وظيفته من قبل مديريه، لترويجه لدعم الجهاد الأفغاني، ومحاولة جمع التبرعات من زملائه وزميلاته العاملين معه! سأل في انفعال: (إلى متى نظل ندور مع قضايا الخارج، وكأنه ليست لنا قضية ننشغل بها في الشأن العام المصري؟! بقايا الشيوعية وفلول الناصريين يعيّروننا بأننا أصحاب أجندة أجنبية، لا نهتم بالواقع المصري، لا ننشغل بقضايا الكادحين من أبناء الشعب المطحون. لا نرفع مطالب لتحسين الدخل، ومواجهة غلاء المعيشة، ومطالب العمال، وتحسين مواصفات رغيف العيش الذي يصل للمواطن الكادح بعد معركة في طابور طويل محشوا بأعقاب السجائر ونشارة الخشب والمسامير الصدئة! والمحصلة أنه لا يُؤكل! نحن يا فضيلة المرشد نخرج

من مناصرة قضية فلسطين، لندخل في قضية الثورة الإيرانية، ثم الحرب الأفغانية، وكل هذه القضايا تسحب من رصيدنا الشعبي) أصابنا هذا الكلام بضيق شديد، وتعلّقت أبصارنا بالأستاذ (عمر) الذي احتفظ بهدوئه المعتاد، ولم يجب بشيء، وإنما أومأ إلى الحاج (مصطفى)، فانبرى مدافعًا عن توجّهات الجماعة. وأعقبه الدكتور (الملط[٢٧]) الذي أخذ يعدّد أدلة فريضة تلاحم الأمة ووجوب الاهتمام بقضاياها في المشرق والمغرب. وزفر أخونا السائل الثائر في ضيق وهو يقول موّجهًا حديثه للأستاذ (عمر): (يا فضيلة المرشد لم يخفَ عليّ كل ما تفضل به الإخوة الأفاضل من وحدة الجسد الإسلامي، وأنه من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم. لكن في المقابل فإن الأقربين أولى بالمعروف، والله تعالى يقول: "**وأنذر عشيرتك الأقربين**". والاهتمام بقضايا الناس تجعلهم أكثر التفافًا حول منهجنا الإسلامي. فليس معقولًا أن نستنزف طاقات هذا الشعب الكادح لصالح شعوب كادحة أخرى. علينا أيضًا أن نشعرهم باهتمامنا بهم) وقابلْنا حديث أخينا بالصمت المطبق، كأن على رؤوسنا الطير. وتبادلنا النظرات في هدوء. وفهم الرجل من نظراتنا أننا نتهمه –ولا شك– بخلل في الفَهم. فانسحب من اللقاء منكسرًا مطأطئ الرأس، بعدما ودّعنا بكلمات مبهمة غائمة. ولم أستطع النوم ليلتها. وظلّت الأسئلة تطوف برأسي حائرة، وظللت أتقلّب على الفراش، فلأول مرة منذ التحاقي بالإخوان، أتعرّض لمحنة حقيقية على مستوى العمل والدراسة والمستقبل. وتذكّرت كلمات أخي القُنصل: "**تستطيع دائما أن تدفع المخلصين إلى المحرقة تحت عنوان برّاق لقضية كبرى. حماستهم للعنوان ستسلبهم عقولهم، فينهار أهم سديْن أمام سَريَان نهر الدماء. (المقابل). لأنهم لا يقبلون ثمنًا مقابل تضحيتهم إلا الجنة. و(النتائج). إذ ليس عليهم إدراكها، فهي بيد الله تعالى وحده. قمة دروشة الأتباع!**". وراجعت منطق أخي الغاضب الذي أفسد اجتماعنا بالتوفيقية الليلة. ثمّة قوى خفيّة، يتبعها تيار داخلي تدفعنا دائمًا إلى تبني قضايا خارجية، لنظل عالقين بمستنقع فلسطين، وأفغانستان وغيرهما من المستنقعات، ولا نلتفت لقضايا الداخل، نتركها كلها لليساريين، كأن كل ما يهتم به اليسار رجس من عمل الشيطان! ما هي هذه القوى التي تزيحنا دائما جهة الخارج؟! كنت وحدي أعرف. وتجاهلت ما أعرفه لأمضي في طريقي المرسوم! دوّى في أذني صراخ الدكتور (جمال) ظهيرة اليوم: (أتباع العم سام، في طهران، يموّلون ما يُطلقون عليه تصدير الثورة الإسلامية في كل مكان، ثم سينقلبون عليكم!) كدت أتهمه بالجنون. فكيف تكون طهران تابعة لأمريكا، وقضية رهائن السفارة الأمريكية لم تنته بعد؟! رد على دهشتي دون أن أنبس ببنت شفة، قال: (ما زلت غرّا يا سيدي –مثلك مثل سائر الإسلاميين– تنطلي عليك هذه التمثيليات التي يلعب

[٢٧] - الدكتور أحمد الملط قيادي بارز سابق في الجماعة

بطولتها الإيرانيون، ويخرجها الـ(CIA). و(الموساد الصهيوني)! صدق من قال الإخوان المسلمون (أخيَب) ناس في السياسة!). لماذا يهاجمنا كل الناس؟ لماذا يصرّون على نزع فتيل حماستنا لقضية الجهاد الأفغاني؟ لماذا يسمح لنا (السادات) بجمع وتمرير التبرعات لفصائل الجهاد بيد. ويطلق علينا كلابه من كل جانب باليد الأخرى؟! تقلّبَتْ (عزّة) على الفراش، وشعرت بي مستيقظًا، جذبتني إليها، وأخمدت أنفاسها في أنفاسي، وأذابتني في حضنها. ولم أفق إلا في الصباح متأخرًا عن موعدي المعتاد.

*****

خرجت من مجلس التحقيق في الجامعة، وجلسات التحقيق المتعاقبة في مبنى مباحث أمن الدولة بعديد من الانطباعات، احتفظت ببعضها لنفسي، وصارحت ببعضها إخواني القيادات ذات مساء في اجتماع مكتب التوفيقية، قلت موضحًا فكرتي بعد تجربتي القصيرة مع المحققين: (بتنا كتابًا مفتوحًا للجميع. الدولة. أجهزة الحكم المختلفة. تعرف عنا ربما أكثر مما نعرف نحن عن أنفسنا. أعرف أن فضيلتك يا أستاذ (عمر) وثُلّة من إخواننا أصدقائي شباب الجامعات) صمتُّ برهة شاملًا (أبو الفتوح) و(العريان) و(حلمي)، بنظرة ذات مغزى، ثم أكملت حديثي بتأنٍ وهدوء مؤثر: (تُفضّلون العمل العلني المفتوح على العمل التنظيمي المنضبط بقواعد الجُندية والالتزام الصارم. ولا شك عندي أنه ليس لدينا شيء نُخفيه أو نخافه من نشاطنا في النور. لكننا نوشك أن نتحول من جراء تلك السياسة إلى تيار عام لا إلى تنظيم محكم. التيار العام يوشك أن ينّفض من حولنا مع أول غضبة للحاكم، أو هبّة من جنوده لخنق المساحات الممنوحة الآن. إنما التنظيم المحكم لا يمكن تحريكه أو التسلل إليه أو العبث به) أجلت بصري متفرّسًا في وجوه الآخرين، وأحصيْت في لمحة عابرة، من هم معي على مثل رأيي، ومن سيقف لنا بالمرصاد في قادم الأيام. وقدّرت المشاق التي تواجهنا، والأخطار التي تحدّق بنا من الداخل والخارج. وكم الجهد المُضني الذي يجب أن يُبذل لتحويل الدفّة لتميل ولو قليلًا لصالحنا! ولا شك عندي الآن أن هذا الحديث كان بمثابة إشارة البدء بتنفيذ خطة إحكام سيطرة أنصار التنظيم الدقيق المحكم على الفكرة والتيار بالكامل. كنا نسبح ضد تيار يضع رمز الانفتاح على رأس القيادة، وكان علينا تهميش تأثيره إلى أقل درجة ممكنة، مع تصفير دور تلامذته والمحيطين به. وكانت وسائلنا جد محدودة، تكاد تكون مساحة المناورة فيها معدومة، فسلاح الحب، وشعار الأخوّة كانا سيفًا مصلتًا على رقاب الجميع، فكيف

تزيح تأثير من يملك حبه –على مئات الألوف من البشر– شغاف قلوبهم، دون أن تشعرهم لحظة واحدة أنك تعزله عنهم؟!

وكان لا بد للإجراء الدقيق القاسي أن يتم ما دمنا جادّين بالفعل في مسألة تطبيق الأهداف التي نؤمن بها. لم نكن بدعًا من التاريخ ولن نكون، لا تنجح ثورة إلا ويقوم بها عُصبة أولو بأس شديد، يحكمهم تنظيم مصمت. الانفتاح على البشر وتأليف القلوب وسيلة (قسم نشر الدعوة)، فليعمل هذا القسم في المساحات العلنية المتاحة، وليربط قلوب البشر كيفما شاء. لكن التنظيم المصمت كان لا بد له أن يولد ويتمدد داخل جسم الكيان القائم. لم يكن في هذه الفكرة التاريخية ما يعيب، بالعكس لقد استفدنا من دروس التاريخ، واعتبرنا بتجارب الماضي القريب، فلم نهدف أبدًا لإقامة تنظيم عسكري مسلح، ولم يكن حمل السلاح في مواجهة الحكومات أو غيرها من أساليبنا ولا من مبادئنا. لكن التنظيم لا يكون منضبطًا إلا إذا كان عسكريًا، فليكن عسكريًا إذن دون تسليح. عسكرية الصرامة والترتيب الدقيق والبُنيان المرصوص والصف المحكم، عسكرية السمع والطاعة، وترتيب القيادات. هذه هي دعوة (حسن البنا) كما فهمناها على حقيقتها، هو الذي حدّث أتباعه في رسائله عن الجُندية، وعن الطاعة في المكرَه والمنشَط، وهو الذي وضع رسالة التعاليم، للإخوان المجاهدين العاملين. أمّا بقية الإخوان –وكان فيهم وقتها الأستاذ (عمر)– فلهم دروس ومحاضرات وكتب ومقالات، ومظاهر وإداريات، فليمكثوا حيث أراد لهم الإمام أن يكونوا، وسواء ألقوا هم الخطب والدروس والمواعظ، أم أُلقيت عليهم، يظلّون دائمًا هم جمهور الدعوة وامتدادها وتيارها المنفتح على الناس. أما القاعدة الصلبة فنحن أهلها وأولى بها! ولم نعمل في السر، ولم نوّرط أنفسنا في استخدام تقنية (التُقية)، حيث نقول غير ما نؤمن به أو نعمل له. وضعنا رجالنا في لجان المناهج والتربية، وحرصنا على أن تُدرّس أجزاء من كتب (سيد قطب) و(فتحي يكن) مثل كتاب (ماذا يعني انتمائي للإسلام) و(متساقطون على طريق الدعوة) ثم (الإيدز الحركي) وغيرها، مع كتاب (المدخل)، وكتب (سعيد حوّى) جنبًا إلى جنب مع كتب (القرضاوي) وبعض كتب (الشيخ الغزالي) وفقه (سيد سابق) وغيرهم. فتكوّنت لدينا على مختلف المستويات عقلية تتقبل كلا المنهجيْن المتناقضين دون غضاضة! وعندما أصدر (منير الغضبان) المجاهد والمناضل السوري كتابه (المنهج الحركي في السيرة النبوية) بعد ذلك بسنوات قليلة، تلقّفناه بشغف وألحقناه بالمناهج، لما فيه من تركيز على فكرة الاصطفاء والنواة الصلبة، وتميُز الصف المسلم. المحصلة أننا كنا نعمل بدأب لـ(**عسكرة الدعوة**)، ونتشبث بعبارات (الإمام البنا) عن (الجُندية). وامتلأت كتب

ومناهج السيرة النبوية المشرّفة التي برعنا في دراستها وتدريسها بتلك المعاني السامية عن عظمة جند الله في الأرض!

*****

فوجئت ذات صباح بزميلتنا (سامية) ترتدي ثياب الحداد السوداء، وبمجرد أن لمحت طيفي أشاحت بوجهها عني وتجاهلتني، ألقيت تحية الصباح تصاحبها ابتسامتي الوقور المعتادة، لكنها نهضت من أمام مكتبها بعصبية ظاهرة دون أن ترد التحية ومضت في خطوات مسرعة، كأنها تفر من أمامي إلى الباب المفتوح للمكتب، ثم صفعت الباب خلفها في عنف. أصابتني دهشة ممزوجة بحيرة، وتساءلت عما بدر مني تجاهها وأثار حفيظتها إلى هذا الحد المتهور من ردة الفعل؟! فتّشتُ في تصرفاتي كلها خلال اليومين الماضيين، حيث كانت علاقة زمالتنا الودية على أحسن ما يكون، فلم أرَ لما قامت به توًا أي معنى! تجاهلت الأمر، وشرعت في مراجعة ما قمت بإنجازه في اليومين الماضيين في رسالتي، التي أوشكت على الانتهاء منها، حيث عكفت في الأيام الماضية عليها لا أبرح مكتبي تقريبًا. حتى لقاءات (مكتب التوفيقية)، اعتذرت عنها لبعض الوقت. ولم أرفع رأسي عن الأوراق التي أتابعها إلا بدخول (مصطفى سيد) المكتب مثيرًا زوبعة هو الآخر بانفعاله وصياحه: (ما هذا الذي تفعلون؟ ستخربون البلد على من فيها. أنتم تلعبون بالنار!) رفعت حاجبيّ تعبيرًا عن الاستفهام أكثر منه عن الدهشة، من الزوبعة التي يثيرها زميليّ بلا مقدمات ولا أسباب مفهومة! استمر الرجل في هجومه الحاد: (لا تمثل دور البراءة دكتور محمد، وتنظر إليّ هكذا كالحمل الوديع، بينما إخوانك ينطلقون في كل مكان يقتلون النصارى في الزاوية الحمراء) مادت الأرض بي. تساءلت في صدق متجاهلًا امتعاضي واحتجاجي على أسلوب زميلي الذي ما كنت لأمرره أبدًا في الظروف الاعتيادية: (ما هذا السخف الذي تُلقي به إليّ يا دكتور مصطفى. منذ متى وبيننا كلنا كمصريين مشكلة مع إخواننا النصارى؟!) ألقى (مصطفى) بجريدة الصباح في حركة صاخبة على مكتبي، فتلقفتها مسرعًا ومتجاوزًا ما في حركة إلقائها بهذا الأسلوب من سوء سلوك، كأنه يريد أن يصفعني بها على وجهي. كانت عناوين من أمثال (اشتعال الفتنة الطائفية)، (أعداد قتلى الفريقين في الزاوية الحمراء)، (أسباب اندلاع الفتنة) وغيرها من تلك العناوين المخيفة تملأ الصفحة الأولى، وغيرها من صحف مصر. وكان لا بد لي من التصرّف في حدود علمي وفي حدود نطاقي الجغرافي، والدعوي، فأزحت (مصطفى) جانبًا، وأسرعت الخُطى خارج المكتب أبحث عن الدكتورة (سامية)

حتى عثرت بها جالسة على المقعد المقابل لمكتب الدكتور (جمال) تبكي، والرجل يحاول تهدئتها، اندفعت إلى داخل المكتب، قاطعًا على رئيسي حديثه المكرّر عن علمه المسبق بأن (الأولاد بتوع الجماعات الإسلامية دول مش حيجبوها البر!) وأن (عبد الناصر قالها زمان اتنين مالهمش أمان الصهاينة والإخوان!) وأسررتها في نفسي، لو كان الوضع اعتياديا لبيّنت له تدليسه حتى فيما يرويه عن صنمه الذي يعبده (الزعيم ناصر) شخصيًا، ولصحّحت مقولته المنسوبة إلى (ناصر) بأنها كانت (اثنين ما لهمش أمان الشيوعية والإخوان)، ولسألته: لماذا حرّف الشيوعية إلى الصهيونية؟! لكنني عدلت عن كل ذلك ووجّهت حديثي لزميلتي متجاهلًا كل هذه التُرّهات، قلت وأنا أمد لها كفي مستحثّا إياها للنهوض: (دعيني يا زميلتي العزيزة أحدّثك في هذه اللحظات حديثًا من القلب والعقل. نحن الآن نمر بأزمة حقيقية مشتركة. ولا يسعني سوى التأكيد أننا لا نُكّن لإخوة الوطن ورفاقه إلا كل ود ومحبة واعتزاز، ولنا في ذلك وصايا دينية نحفظها عن ظهر قلب ونطبّقها عبادة لربنا) ظلت تشيح عني بوجهها، وزاد صوت نشيجها ارتفاعًا، وأراد الدكتور (جمال) أن يصطاد في المياه العكرة، فينهرني، أو يثنيني عن عزمي، لكني تجاهلته كما تجاهلت صدّها، ومضيت أقول: (فكّري معي يا دكتورة سامية أرجوكِ. ماذا يحدث إذا انتقلت عدوى الفتنة إلى الطلاب بالجامعة في هذه اللحظات؟ لا يخفى عليك أن الشباب من الطرفين الآن في قمة الغليان والانفعال، وأي تباطؤ في مواجهة الموقف سيترتّب عليه عواقب وخيمة. هل يرضيكِ أن تتحول (خناقة) –ولو راح ضحيتها عشرات من الطرفين– إلى حرب أهلية؟!) ويبدو أن حديثي الأخير أصاب هدفه، فرفعت إليّ وجهها أخيرًا، قالت في امتعاض، وقد رسم الحزن والانفعال على وجهها أخاديد لم أكن ألحظها من قبل. وسألتني وما زال في صوتها رنّة الغضب والامتعاض: (وماذا تريد مني أن أفعل لمنع اشتعال حرب أهلية يا دكتور؟!) أجبتها وما زلت محتفظًا بابتسامتي الوقور الراجية: (تنهضين معي الآن يا سيدتي ونخرج للطلاب في كل الدفعات والأقسام سويًا، ونلقي كلمة مرتجلة نعلن خلالها تضامننا كإخوة وشركاء وزملاء، وأن ما يحدث أيًا كانت بواعثه وأسبابه زوبعة، لنقُل مستصغر شرر لا نريد لها أن تتحول إلى نيران مشتعلة، ونتعهد بأن الجميع سيأخذ حقه في ظل نظام قضائي عادل وحكيم) لمحت الغيظ في نظرات الدكتور (جمال). ولم يستطع الصبر دون أن ينتهز الفرصة للهمز واللمز، فعلق متسائلًا: (وهل استطلعت رأي قياداتك في الجماعة يا دكتور محمد في هذا الإجراء، قبل أن تدعونا للقيام به؟ أم أنك تتصرف من تلقاء نفسك، ومن دوافع إعزازك للدكتورة سامية؟) أعقب السؤال الأخير الذي لفظه

بطريقة مبتذلة، بابتسامة وقحة، تجاهلته، ولم ألقِ له حتى نظرة ازدراء، وأنا أسبق زميلتي إلى باب مكتبه، وأستحثّها: (هيا يا زميلتي العزيزة. لدينا عمل طويل وشاق، لا يجب أن نضيع لحظة واحدة). ومضينا إلى جموع الطلاب وهم في أشد درجات الغليان. وتحمّلنا العاصفة، ووقفنا في وجهها. وفي آخر اليوم، وصلتني الأخبار عن استعانة اللواء (النبوي إسماعيل) وزير الداخلية بالأستاذ (عمر التلمساني) لتهدئة مشاعر الأهالي الغاضبين في الزاوية الحمراء وما يحيط بها من أحياء شعبية. وانضممت –دون تكليف– إلى قيادات وشباب الإخوان المرابطين هناك لتهدئة ثائرة الشباب المنفعل والأهالي المتحمسين، وفوجئت بـ(عزّة) –ولم يكن قد تسنّى لأحدنا الاتصال بالآخر في هذه الظروف– تتّجه إلى بيوت بعض نساء المنطقة، في محاولة مستميتة لإقناعهن بتهدئة ثائرة الأزواج والأبناء. وعلمت فيما بعد أن (السادات) خرج ليخطب في الشعب خطبة طويلة عصماء عن أصابع الفتنة وفتيلها، وعن (حبل الغسيل) الذي كان سببًا في اشتعال الأزمة، وارتفعت بعد ذلك شعارات وزّعتها الحكومة وألصقتها على الجدران في الشوارع والميادين، "الدين لله والوطن للجميع"، وانتشرت صور (للهلال) يحتوي بداخله (الصليب). لكن مما لا شك فيه أن النفوس عُبّئت، واندلعت أحداث تثير الريبة هنا وهناك. لسنا وراء تأجيجها بحال، فرجال الدعوة العامة يستنكرونها بصدق وشفافية، وينتقدونها في السر والعلن، أما نحن فكنا نعلم أن تنظيمنا الذي ما زال يتشكّل جنينًا في رحم الكيان، لن يقوى على الاستمرار في هذه الأجواء المجنونة، المشحونة بالأزمات العاصفة، فكنا أحرص الناس على الهدوء. لكن إرادات أخرى كانت تعمل في فضاءات موازية، حركتها أسرع وثمارها أقرب!

*****

في منطقة (دير الملاك) بحدائق القبة كان الشيخ (عبد الحميد كشك) يجلجل بصوته الجهوري المؤثّر، فيصول ويجول، ويُلهب حماسة الجماهير، وأتباعه يحتشدون حول المسجد وفي المنطقة بالآلاف المؤلّفة، ويحرص من يأتي منهم مسافرًا شادّا الرحال من الأقاليم على التبكير في الحضور، حرصًا على حجز مكان أقرب إلى عتبات المسجد! وهم أقرب لجمهور متعصّب لفريق في كرة القدم، منهم إلى آمّين الصلاة في سكينة وخشوع وطمأنينة. وشعبية خطب الشيخ (كشك)، تنافس شعبية أشرطة (أحمد عدوية) في سيارات الأجرة، و(الميكروباصات)، والشيخ يخبط خبطًا عشواء، فيصيب في كل مرة هدفًا جديدًا يُلهب حماس الجماهير المتعلّقة به، فبين

"هل أنت قرموط؟!" التي أطلقها عن (عبد الحليم حافظ)، إلى "خُذني في حنانك خذني. أخذك الله يا امرأة!" (لأم كلثوم)، إلى "أين الرحمن الرحيم يا رجل هل خبّأتها لك جيهان؟!"، سُخرية من بدء (السادات) خطاباته للشعب بـ"بسم الله" فحسب، دون إتمامها بـ"الرحمن الرحيم"! فهل كانت الحوادث الحبلى بالمفاجآت في انتظار المزيد من هذا الأداء العنتري ولو كان يصدر عن قلب صادق ونيّة صافية؟!

وفي الإسكندرية، يحتشد عشرات الآلاف بمسجد القائد إبراهيم وما حوله في منطقة محطة الرمل، للاستماع إلى الداعية الشيخ (أحمد المحلاوي)، يصدع بالحق ولا يخشى في الله لومة لائم، وهو صاحب العبارة التي أزعجت السادات، وعجّلت – ربما– بقرارات سبتمبر الاستثنائية، وهي عبارة "لا بد (للسادات) أن يستقيل أو يُقال)! و(السادات) نفسه ضيّق الصدر مما يُمارس ضده ليل نهار في إذاعات الدول العربية الرافضة لمعاهدة السلام، من سب وذم وقدح، والمقاطعة العربية له وللنظام في مصر بسبب تلك الإجراءات. فأصبح يرى في كل كلمة معارضة بذاءة ما بعدها بذاءة!

*****

عُدت إلى بيتي مهمومًا مرهقاً من أثر السهر لأوقات متأخرة من الليل لعدة ليال متتالية، ومواصلة عملي في الرسالة وقد تأخر كثيرًا، بسبب تعنّت الدكتور (جمال) معي من جهة، وتراكم المسؤوليات والأعباء الإدارية داخل التنظيم المصمت عليّ من جهة أخرى، ولم أكن بطبعي أحب التأخر، أو التخلف وراء زملائي. دائمًا أضع نفسي في المقدمة. هدهدتني (عزّة) حتى غبت في نوم عميق، وسحبتْ الهاتف من جواري إلى الردهة، وعندما أزعجها رنينه المستمر في عناد، نهضت فرفعت سماعته في هدوء، وعادت فأخلدت إلى النوم. واستيقظت من نومي متأخرًا عن صلاة الفجر، مما سبب لي ضيقًا طيلة اليوم، ارتديت ملابسي على عجل، وخرجت إلى الجامعة، دون أن أتنبّه إلى الجريمة التي ارتكبتها (عزّة) في حق الهاتف، مما عرّضني للوم شديد من مسؤولي في الإخوان. قال لي معنّفًا: (الداعية الصادق يا أخ محمد ليس ملكًا لنفسه. ألم تقرأ قول الإمام البنا عن صفات الداعية ألا ينام ملئ جفنيه، ولا يضحك ملئ شدقيه. إلى آخر ما قال؟!) وأطرقتُ إلى الأرض خجلًا لا أحري جوابًا!

وعندما عُدت إلى المنزل أفرغت شحنة الغضب كاملة في (عزّة)، التي قابلت غضبي بتفهمها وهدوئها اللطيف، ونهضت إلي وأخذت تدلّك لي طرفيّ جبهتي بأناملها برفق، تمتص طاقة الغضب كلها من أعصابي المشتعلة. وسألتني في تودد: (من أغضب حبيبي كل هذا الغضب؟!) أردت الانفجار في وجهها: (حضرتك يا

هانم!) لكني تريّثت أمام لطفها ورقتها البالغة، وأجبت في ضيق: (إخوانك في الإسكندرية يا سيّدتي) قالت وهي تضحك متذكّرة ما حدث معنا في سفرتنا السابقة إلى هناك أيام (شهر العسل): (خيرًا اللهم اجعله خيرًا. ماذا فعلوا هذه المرة أيضا؟!) أجبتها وأنا أفرغ عن نفسي شحنة الغضب دفعة واحدة: (لا أدري يا (عزّة). ألم يلحظوا ما يتجمّع من سُحب مُحمّلة بالأحداث الجسام في سماء مصر؟! ألم يلحظوا تبرم الرجل وضيق صدره جرّاء الانتقادات العنيفة الموجّهة له في الداخل والخارج؟! لم يراعوا كل هذه الأجواء المشحونة، وافتعلوا مواجهة جديدة مع النظام، وأشعلوا أزمة عنيفة من لا شيء. لم أعد أدري والله يا عزة ما الذي يجري داخل جماعة الإخوان، وهل هناك طرف ثالث يعمل لحسابه أم ماذا؟!) التقطت (عزّة) الذكيّة عبارتي الأخيرة وقالت بلطف: (اهدأ هكذا يا حبيبي واشرح لي قصة الطرف الثاني والطرف الثالث الذي يعمل لحسابه داخل جماعتنا المباركة؟!)

أدركت أنني بحت بأكثر مما يجب البوح به، -قاتل الله الغضب إنه يُذهب العقل- غطيّت على فلتة لساني بالحديث عما فعله إخواننا في الإسكندرية في قضية الشيخ (المحلاوي)، قلت وقد تمالكت أعصابي: (وصلت أخبار خطب وشعبية الشيخ (المحلاوي) إلى (السادات)، ممّا أثار حفيظته، فأوعز إلى وزارة الأوقاف بإيقاف الشيخ عن الخطابة. وكما ترين هذا أمر ممكن الحدوث، خاصة في ظل الأوضاع الملتهبة وفي أعقاب أحداث الزاوية الحمراء) قاطعتني متسائلة: (وهل يتناول الشيخ المحلاوي النصارى بسوء في خطبه ودروسه؟!) أجبتها بيقين: (لا أظن، ولم يبلغني شيء من هذا. يقولون أنه انتقد زوجة الرئيس بشدة، كما ينتقد دائمًا كامب ديفيد وسياسات السادات)

- وماذا فعل الشيخ والإخوان؟
- أمّا الشيخ فكان ميالا إلى الانصياع لأمر الأوقاف، فلقد صدع بالحق في المواقف المختلفة كما أملاه عليه ضميره. وحمد ربه -ربما- على أن الأمر اقتصر على المنع من الخطابة، وكفى الله المؤمنين القتال. لكن عم الحاج (عباس السيسي) رأى في ذلك إعطاء الدنية في الدين. فالصحوة في الإسكندرية على أشدها، والشيخ (المحلاوي) رمز بارز من رموزها. فقرر التصعيد، وطلب من الشيخ تحدّي القرار، وصعود المنبر في حماية الإخوان رغم أنف الحكومة!

نظرت (عزّة) مشدوهة، وكل خلجة من خلجات وجهها تصرخ لأُتم ما أرويه. ابتسمت لها، وقلت بمكر وأنا أعرف شغفها الآن بإتمام الموضوع: (هذا ما قد كان يا سيدتي) صاحت في انفعال: (لا تتلاعب بأعصابي يا محمد. أتم لي ما حدث بالتفصيل) ادّعيْت البرود الشديد وقلت: (ألا يوجد في البيت شيء يؤكل؟ أنا على لحم معدتي منذ الصباح) قفزت في خفّة، وهي تهتف: (الغداء جاهز. خمس دقائق للتسخين، ويكون أمامك. ماذا لو أتممت لي الحكاية وأنا أجهزه في المطبخ؟) اتسعت ابتسامتي أخيرًا، ودلفت خلفها إلى المطبخ، سألتها متخابثًا: (ماذا تريدين أن تعرفي أكثر؟)

-احكِ لي كيف نفّذ الحاج (عباس) تحدي قرار وزارة الأوقاف؟

-أعلن حالة الطوارئ في صفوف الإخوان هناك. اتفق مع الشيخ على عصيان الأوامر، وطلب منه ألا يبيت في منزله خوفًا عليه من الاعتقال قبل يوم الجمعة، وطلب من (إبراهيم الزعفراني) و(وجدي غنيم) مرافقته إلى مسجد القائد إبراهيم. وعندما نزل الثلاثة إلى الشارع وجدوا أكثر من عشر درّاجات بخارية ترافقهم وتحميهم في موكب مهيب، ووصل التحدي مداه بقيام شباب الإخوان بالوقوف صفّيْن حراسة على طول الطريق إلى المسجد وحتى دَرج المنبر!

هتفت (عزّة) مبهورة الأنفاس: (حالة حرب!). قلت في قلق: (وماذا تظنّين الدولة ستفعل في مواجهة هذا التحدي؟!) أجابت وهي تغرف الطعام إلى الأطباق: (إعلان التعبئة العامة من جانبنا شر لا بد منه) قلت مستنكرًا: (من يشد ذيل القط وهو مُستَنفر ومُستَفز، لا يشكو بعد ذلك من خربشته!) لم تعلّق، اكتفت بأن حملت صينيّة الأطباق، وتبعتها إلى الردهة صامتًا أفكّر في تبعات ما حدث. أقلّب في عقلي كافة الأسئلة والاحتمالات حول التنظيم الثالث. متسائلًا عن تلك الأيادي التي تعبث في الخفاء. لماذا لا يعطونني فكرة مسبقة عنها؟!

في الجمعة التالية استجاب إخوان الإسكندرية إلى رجاء أمن المحافظة، بنقل خطبة الشيخ إلى مسجد (عمر بن الخطاب)، حفظًا لماء وجه النظام بالكامل، بعد أن طلبنا إليهم عدم التصعيد والاكتفاء بما قد كان!

وفي الجمعة الثالثة، اكتظ الكورنيش بمدرعات الداخلية لإتمام عملية اعتقال الشيخ والتحفظ عليه في مكان أمين، وفق تعبير (السادات). ولأن الأمور كانت تتفاقم بسرعة مذهلة، داهمت قوات الأمن مقر التوفيقية، وصادرت العدد الجديد من مجلة (الدعوة). باتت الرسالة في غاية الوضوح والقوة. وفُرض علينا فرضًا أن نقبل التحدي!

*****

أرادت (عزّة) في ليلة الجمعة، وقد أظلنا شهر سبتمبر مؤذنًا بفصل خريف يبعث على الاكتئاب، أن تُرفّه عنا وسط هذه الأجواء المشحونة بكل أصناف التوتر العملي والدعوي والإداري والسياسي. لعبنا ورقصنا، وشربنا مشروب الكاكاو بالحليب باردًا تعلوه رغوة كثيفة كانت مبعث تندّرنا. وحملتها في أحضاني ومضينا إلى غرفة النوم. لم نهنأ طويلا إذ سمعنا طرقات عنيفة على الباب الخارجي مع صوت رنين لا ينقطع لجرس الباب. تشبّثت بي (عزّة) خائفة. التفتُ فأضأت مصباح (الأباجورة) على (الكومودينو) المتاخم للسرير، وقلت لها برباطة جأش: (انهضي فارتدي عباءتك وضعي حجابك بسرعة. ونهضت أضع جلبابا على جسدي أستر به نفسي. وخرجت إلى الردهة وأنا أهتف بصوت جهوري: (حاضر. لا تكسروا الباب. سأفتح حالا) وفي لمح البصر كانت الردهة ممتلئة برجال وجنود من كل صنف ولون. خاطبت كبيرهم الذي كان برتبة مقدم: (أنا تحت أمر حضرتك. برجاء ألا تُسبّبوا إزعاجًا لزوجتي الدكتورة (عزّة). ولا تزعجوا الجيران. طالما أنكم ستصحبونني إلى مكان أمين، فلا داعي للتوتر والشوشرة!) وضح الاستحسان والتفهم على وجهه وقال في لطف: (أرجو أن ترتدي ملابسك وتأمرها أن تُعد لك حقيبة صغيرة بسرعة. وأظن بعد استقبالك الطيب لنا لم نعد في حاجة إلى تفتيش شقتك) أجال نظره في رجاله، فانسحبوا جميعًا إلى الخارج، ولم يبقَ معه إلا رجلين. اتجهت إلى غرفتي في رباطة جأش. كانت (عزّة) تقف على عتبتها وفي عينيها دموع متحجّرة. همست لها بأن تتجلد. وطبعت قبلة فوق رأسها المحاطة بطرحة الصلاة، وسحبت حقيبة ملابسي ولوازمي الضرورية وكنت أحتفظ بها في أسفل ضلفة الدولاب استعدادًا للطوارئ، ومضيْت مع الضباط الثلاثة في هدوء.

الأزهـــار

توافدت علينا في (استقبال طُرة) كافة أصناف المعارضين، لم يقتصر الأمر على قيادات وشباب الإخوان، ولا على أبناء الصحوة موزّعين على فصائلها المختلفة فحسب. لكنها امتدت لتشمل كل ألوان الطيف المعارض في مصر. فشملت كل صاحب صوت حر، ولو لم ينتمِ لفصيل من فصائل المعارضة التقليدية المنظّمة. وكنا نتندّر بأن (السادات) غرس أنياب ديمقراطيته في أجسادنا جميعا! لا سيما أن الأمر لم يتوقف على الحبس، ولو كان كذلك لهان. لكنه امتد ليقصف كل الأقلام ويصادر كل الصحف. حتى البرنامج الأسبوعي لـ(الشيخ متولي الشعرواي) وزير أوقافه في فترة من الفترات، والذي يُلقي فيه خواطره حول (القرآن الكريم) ويعرض في الساعة الثانية ظهرًا من بعد ظهر كل يوم جمعة، لم يسلم من المنع! كما طالت أنياب ديمقراطية (السادات) الأنبا (شنودة) أكبر شخصية دينية معتبرة لدى إخواننا النصارى، فحدّد إقامته في الدير! لقد آمن الرجل بالمقولة الباطلة أن (المساواة في الظلم عدل)، ولم تُميّز أنيابه بين (خيار وفقوس)!

وسمعنا فيما بعد أن خُطب (السادات) في تلك المرحلة استفزّت عموم الشعب، خاصة تصريحه ضد الشيخ (المحلاوي) الذي قال عنه: "أهو مرمي في السجن زي الكلب!".

ولم ينقضِ شهر أو بعض شهر إلا ووصلنا في (طُرة) بأقسامه، خبر اغتيال الزعيم بطل الحرب والسلام. وأدركنا أن خَلَفه سيبادر بإطلاق سراح كل من تحفّظ عليهم (السادات)، تخفيفًا لحدّة التوتر في الأجواء السياسية والاجتماعية. ومع ذلك لم نفرح، لم يفرح الإخوان بخبر اغتيال (السادات)، ولم يفرحوا بتوقع الفرج، وكان سؤالنا الذي يطرحه كل منا على أخيه كلّما التقينا في فناء السجن: (ثم ماذا بعد؟) وكانت فترة الحبس القصيرة –نوعًا ما– فرصة لتقوية أواصر التعارف والتفاهم والمحبّة مع إخواننا في مختلف المحافظات. واستطعنا خلال هذه الفترة الوجيزة نقل فكرة (عسكرة الدعوة) بين هذه القيادات الشابة، فلم تكد تنتهي فترة الحبس إلا وآمن بها في كل محافظة رجلين أو ثلاثة! وأصبح هؤلاء عُدّتنا فيما بعد!

وخرجت من الحبس، وعدت إلى (حبيبتي)، وجامعتي، وانهمكت كل الانهماك للانتهاء من أمر رسالتي التي تأخّرت فيها كثيرًا، وبت ألهث خلفها. ووجدت حنق زميلي (مصطفى سيد) في استقبالي بغرفة المكتب، وعتابه المستفز لي: (قتلتم الرجل

الذي فتح لكم مسارات العمل والحركة؟!) ولم يكن مزاجي يسمح بالاستمرار في المناوشات السياسية، فاكتفيت بالتعقيب المقتضب: (أفضى إلى ما قدّم. الله يرحمه!) ولاحظت نظرات الدهشة في عيني زميلتي (سامية) وتجاهلت الجميع والتفت إلى ما بين يدي من أوراق.

أبلغ مسؤولون رفيعو المستوى في وزارة الداخلية الأستاذ (عمر) فور الإفراج عنه، أنه لم يعد مسموحًا بإصدار مجلة للإخوان المسلمين، لا مجلة (الدعوة) ولا غيرها من المجلات. وخسرت الدعوة رئة للتنفس والانفتاح على المجتمع. ولم يحزنّا ذلك في فريق عسكرة الدعوة، على العكس تمامًا وجدناها فرصة سانحة للانكفاء على الذات وإحكام بناء نواتنا الصلبة. نسابق الزمن داخل الجماعة والحركة، والأستاذ (عمر) ورجاله –رغم الحصار– لا يعدم وسيلة إلا ويحاول استغلالها للخروج من القُمقم المفروض عليه، بدا نظام (مبارك) أكثر إحكامًا وانغلاقًا من نظام (السادات). فلم يسمح لنا بإصدار صحيفة، ولا عقد مؤتمرات وندوات، ولم يعد يدعو (الأستاذ) إلى أي لقاء أو مناسبة رئاسية عامة كما اعتاد سلفه أن يفعل. حتى وزير داخليته الجديد اللواء (حسن أبو باشا)، لم يطلب لقاء الأستاذ، ولم يطلب إليه ولو لمرة واحدة نزع فتيل أزمة هنا أو هناك، كما كان يفعل (النبوي إسماعيل). وعلّق الأستاذ على ذلك: (قرّر النظام تحويلنا من ملف سياسي كما كنا على عهد (السادات) إلى ملف أمني بامتياز). ولم يجرؤ أحدنا على سؤاله عما يعنيه وعن تبعات ذلك علينا. بتنا ننتظر ونترقب. وعبثًا حاول الالتفاف على قرار منع مجلة (الدعوة) بإصدار مجلة بعنوان (البشير)، لم يصدر منها سوى عدد واحد وتوقّفت. لكنه فاجأنا وفاجأ الجميع بقرار التحالف مع حزب (الوفد الجديد) لخوض انتخابات مجلس الشعب عام ١٩٨٤! شكّل القرار مفاجأة لنا، وصدمة للنظام الذي اخترع نظام الانتخابات بالقائمة النسبية للحيلولة دون تسلّل الأفراد والهيئات غير الحزبية إلى البرلمان!

ثم فاجأنا الأستاذ مرة ثانية بقرار التغلغل في مجالس إدارات النقابات المهنية المختلفة. أراد أن يلاعب النظام بنفس طريقته وأدواته، أراد انتزاع الاعتراف بنا كفصيل وطني سياسي من النظام انتزاعًا. لكن المنيّة وافته قبل أن يتحقق له ما أراد، أو تتحقق بشريات تدلّ عليه!

*****

(مات رجل العمل العام والسياسة الذي احترمته الدوائر السياسية محليّا وإقليميّا ودوليّا، ولم يعد للتنظيم الكبير المخيف دور على الساحة السياسية. هذا الرجل كان

يعطيه ذلك الزخم الكبير) هكذا بدأ رئيس الاجتماع حديثه، وهو رجل ستّيني يضع نظّارة تنزلق على أنفه الذي يشبه منقار الببغاء، وهو يقرأ من تقرير موضوع أمامه. عارضه أحدهم وقد تنحنح وأظهر قدرًا مناسبًا من الاحترام يناسب مقام رئيسه قال: (اسمح لي يا سيدي. تظل خطورة هذا التنظيم في قدرته الفائقة على تنظيم صفوفه والعمل بشكل منهجي. لا أريد أن أصفه بالعمل المؤسسي. لا. فأمامهم للوصول للمؤسسية الكاملة زمن لا بد من قطعه. لكن...)

قاطعه رئيس الاجتماع بصرامة: (هُراء. هذا التنظيم قوي ومنهجي ولا يعتمد على الأشخاص أيا كان مدى نبوغ أسمائهم. ربما كان هذا صحيحًا إلى حد ما. لكن كل هذه القوة بموت (التلمساني) ستتجه للداخل. ستنكفئ على الذات. لن تعود منفتحة على الخارج. هؤلاء الناس لن يجدوا واجهة يواجهون بها العالم بعد فقد زعيمهم الحديث. نحن نتحدث عن (الكاريزما)، عن الوجاهة الاجتماعية والحنكة السياسية. لا. لم يعد أحد مؤهل لشغل هذا الفراغ. هناك ولد شاب. هذا الذي وقف يومًا وهو طالب بكلية الطب للرئيس السادات واعترض عليه. هذا الولد يمكن أن يملأ الفراغ. لكن هؤلاء قوم يحترمون كبارهم بشكل فظيع. يتعاملون مع الكبار كآباء مقدسين. وهذه نقطة ضعفهم). اتسعت ابتسامات المجتمعين وعقّب أحدهم ساخرًا: (التلمساني على فراش الموت منذ عام تقريبًا، ورغم طول فترة مرضه، لم يعملوا على اختيار بديل على نفس قوته. ثم خرجوا على الأتباع بأكذوبة لائحية مستمدّة من لوائح السوفييت. حيث يتولّى منصب المرشد أكبر الأعضاء سنًا، وهو كلام مضحك للغاية. كلام معناه أن التنظيم يشيخ ويموت) اعترض آخر قائلًا بصوت قوي واضح: (لكن حذارِ من التهاون أو الاطمئنان. (أبو النصر) ذئب عجوز. وله تاريخ طويل في التنظيم. وهو رجل صعيدي من الجنوب صلب المراس قوي الشكيمة) نقر الرئيس بقلمه نقرات على الأوراق أمامه وقال باسما: (وهذا ما قلته يا سادة منذ البداية. سيد (أبو النصر) قوي وصارم كفاية لأن يحول التنظيم إلى تنظيم مغلق بالكامل. إنه سيساعد الرئيس (مبارك) في إبقاء ملف الجماعة ملفا أمنيا بامتياز. لا مستقبل سياسي حقيقي للإخوان بعد الآن. لا قطار يسير بلا قاطرة. بموت (عمر) عطبت القاطرة. توجد قاطرة أو أكثر لكنها حديثة السن، قليلة الخبرة، وكل ما سيحدث هو تحويلها إلى تروس في ماكينة التنظيم. وتنكفئ الماكينة على الذات)

سأل الأول في دهشة: (هل نفهم من ذلك أننا نبحث الآن عن صناعة عدو جديد في المنطقة؟ وأن دور ذاك التنظيم العتيق انتهى للأبد؟) صفّق الرئيس بكفيه في جزل وهتف: (هيا يا أصدقاء. شركاء إدارة تلك اللعبة. أعملوا خلايا عقولكم، وأجيبوا زميلكم

المتفائل كثيرًا) دارت الرؤوس وتُبودلت النظرات، ولم يجب أحد. فاستمر في حديثه قائلا: (إذا كان الأفق السياسي لهؤلاء القوم قد توّقف. فسنمد لهم أفقا سياسيًا. نصنع لهم مستقبلًا. هم (الشبح) الذي نُخيف به الأنظمة في المنطقة! ثم ماذا نريد أكثر من ذلك؟ نحن نريد البديل المستأنس. بديل يملأ الفراغ السياسي والاجتماعي، دون أن يتمكن من إثارة مشكلات وتعقيدات حقيقية لا داعي لها في المنطقة) أجال نظره في المجتمعين، ثم أضاف: (كلكم درستم التقارير المرسلة إليكم منذ أسابيع. كلكم تعرفون مواصفات هذا البديل المستأنس وشروطه؟)

أجاب الرجل الأول: (تضخّم الحجم بحيث يفتقد إلى مرونة الحركة وبالتالي يفقد عنصر المفاجأة، أو المناورة في اللعبة المحكمة. المتانة والصلابة التنظيمية حيث لا يتشظّى التنظيم أو تخرج منه فصائل عشوائية تُفسد قواعد اللعبة). وأضاف آخر: (حرصه الكبير على القبول المحلي والإقليمي والدولي. هذا الحرص الذي يجعله لا يشذ كثيرًا عن السياقات الحاكمة للعملية السياسية برمّتها. ناهيك عن الملاحقة المستمرة بتاريخ من التشكيك والاتهام الجزافي بممارسة الإرهاب الأسود، مما يصنع عندهم عقدة مزمنة تدفعهم دائمًا إلى نفي هذه الصورة القاتمة!)

ضرب الرئيس المكتب بقبضة يده وهو يهتف منفعلا في جزل: (هذا هو. هذا هو. مهمتنا أن نضع لهم المضمار (التراك) حيث لا يخرجون عنه. نرسم لهم خطوطًا حمراء لا يتجاوزونها. وهذا هو موضوع الاجتماع اليوم. وهذه هي مهمتكم. اتفقوا على معايير الإبقاء عليهم كبديل مستأنس، ورجالنا بينهم قادرون على التنفيذ الدقيق!)

*****

السؤال الذي يدور في دهاليز تحضير هذه الاجتماعات الدولية شبه الدورية، في أذهان أفراد أجهزة المخابرات العالمية الكبرى الجُدد، وعلى ألسنة موظفي الخارجية لتلك الدول المسؤولين عن الإعداد للاجتماعات، وجمع المعلومات، وتجهيز التقارير المبدئية الخاصة بها هو: (وهل يوجد تنظيم على وجه الأرض -كائنًا ما كان- يستحق كل هذه الضجّة؟! ما قيمة التنظيمات على وجه العموم دون أن تمتلك ما يمتلكه سادة العالم من ترسانة رهيبة للأسلحة النووية والصواريخ عابرة القارات، والأسلحة الكيميائية والبيولوجية وأقمار التجسس؟) والإجابة التي تتردد أيضًا على ألسنة من سبقوهم في الالتحاق بهذا العمل الحيوي: (إنه صراع الأفكار، الأيديولوجيا التي تُمهّد لصنع وبناء الحضارات. الحرب الباردة انتهت أو أوشكت على نهايتها، سباق التسلّح لا قيمة حقيقية له. الصراع الحقيقي الذي يهدّد استمرار سيادتنا الأحادية

الآن هو صراع حضارات. صراع أديان. لا من حيث التعصب الأعمى لرموز وطقوس دينية قد يكون بعضها بالٍ. لكن التعصب للأيديولوجيا التي يفرضها الدين على أتباعه. هذه الفصائل خطورتها تتجاوز قوتها المادية على الأرض، لأنها إذا وصلت إلى رؤوس الدول التي تعمل وتنمو فيها، سيطرت بذلك على مقدّرات تلك الدول! يرفع أحدهم عقيرته قائلا: (أنتم الآن تتعاملون مع فصائل أصولية تعيش داخل مجتمعات متشكّكة، وتحت حكم أنظمة استبدادية متعاونة معنا إلى أبعد مدى. انظروا ماذا يحدث إذا سقطت هذه الدول المحورية بين براثن تيارات أصولية؟ ماذا يحدث إذا تحولت السعودية ببترولها، ومصر بقناتها وربطها بين قارتين، وسوريا وتأثيرها على الصراع مع إسرائيل. إلى دول أصولية؟ عندها تتعقّد كل المعادلات العالمية الحاكمة في السياسة والاقتصاد والعسكرية وكل شيء). يبتسم أحد المنزوين في ركن بعيد يدخّن سيجارًا ويضيف: (إما أن تُمنع الأصولية من الوصول إلى سلطة دول قوية ومؤثرة. أو..) ويترك عبارته معلّقة وهو يكملها بنصف ضحكة ماكرة. ليضيف الأول: (أو تصل إليها حطامًا، بعد فوات الأوان. تصل إلى سلطة أشباه دول. لتظل تراوح مكانها. لكننا في هذه المرحلة –على الأقل – ما زلنا في حاجة إلى تلك الدول، لا نريد أن نضطر إلى تدميرها!)

*****

فرض (مبارك) على (الأستاذ) أن يعيش سنوات عمره الخمس الأخيرة في الظل، عامله وجماعته كملف أمني يتبع (قلم) الأمن السياسي، ولم ينظر إليهم أبدًا كتيار سياسي حقيقي ينتشر داخل مصر، وتجاهل دخول عشرة أفراد من أعضائنا برلمان عام (١٩٨٤)، وهو أول برلمان أُنتخب في عهده! وأصر على وضع الحاجز الفولاذي متذرّعًا بأنه لا مكان للأحزاب الدينية في مصر!

لكن (الأستاذ) فرض شخصيته السياسية الأخّاذة لحظة وفاته –رحمه الله– إذ حضر تشييع جنازته من مسجد (عمر مكرم) بميدان (التحرير) بعد صلاة جمعة في شهر رمضان، والناس صيام في حرّ الصيف، نحو نصف مليون مشيّع، يتقدّمهم رئيس الوزراء وشيخ الأزهر، وبعض الوزراء، ووفد رسمي ممثّل عن الكنيسة المصرية، وعدد من الشخصيات العربية ووفود الدول المختلفة! وفرض علينا (الأستاذ) أسلوبه بعد مماته، فما زالت روحه هي التي تقود حركة الجماعة، فبعد أقل من عام على رحيله، دخلنا في تحالف انتخابي مع حزبي (العمل والأحرار) لخوض الانتخابات البرلمانية لعام (١٩٨٧). اختلفنا مع الرجل حول مسألة (عسكرة الدعوة)، وأسلوب التيار العام

الذي تبنّاه، واسترحنا للعزلة الإجبارية التي فرضها عليه نظام (مبارك)، لكننا لم نملك إلا أن نُحبّه في حياته، ونحترم روحه بعد رحيله!

وتم تكليفي بالقيام بجولة توعية وتعبئة لإخوان المحافظات لتبصيرهم بحقيقة التحالف الانتخابي الإسلامي وأهدافه ومكتسباته. كانت تصلنا الأخبار عن تبرم ينتشر داخل الصف من جراء هذا التحالف، فالأمر يحتاج لتوضيح رؤية، لا تكفي فيه البيانات الصادرة من مكتب (التوفيقية)، وتحرّكت بالقطار قاصدًا أول عاصمة من عواصم المحافظات المستهدفّة، بدا التكليف فضفاضًا، يُركّز بشكل عام على تبصير الإخوان بأهداف المرحلة وشرح إيجابيات التحالف، والإجابة عن أي أسئلة وشكوك تحيك بصدور الإخوان، كبيرهم وصغيرهم، وسط مشاغلي لم أعدّ (سناريو) واضح يمكنني الاعتماد عليه، فأسندت عنقي إلى ظهر مقعد (الديزل) وأغمضت عيني، وأسلمت عقلي لتفكير طويل للإجابة على سؤال كيف أبدأ؟ واستقر رأيي على دباجة كلمة قويّة تخاطب عقول وقلوب الإخوان وتأسر لُبّهم، فابتدرت جمعهم قائلا: (مقالة وصلتني عن بعضكم –وكلّكم لدينا عزيز مُقدّر– والأخوّة التي تحتم وحدة القلوب ووحدة الشعور ووحدة الفهم ووحدة الجسد، إذا اشتكى منه عضو أو انزعج تداعى له باقي الأعضاء بالسهر والحمى! فكيف وأنتم روحنا التي بها نُحس؟ وعيوننا التي بها نُبصر؟! تداعينا لكم تضامنا وحُبّا) صمتُّ بعد هذه المقدمة العاطفية الطويلة أجيل النظر في الحاضرين، فرأيت على رؤوسهم الطير، تلفّهم سكينة، ويشملهم تأثر، فضربت ضربتي الثانية: (هذه هي دعوتكم، وتلك هي جماعتكم، أنتم أصحابها، لا نحن، وإن كانت الدعوة تسير بالأُمراء، لكنتم أنتم الأُمراء ونحن في مكتب الإرشاد خدم نأتمر بأوامركم. هي دعوتكم لأنكم جند الله، والله أستخلفكم عليها، فالأصل أنها دعوة الله، وجماعتكم جماعة ربانية، تقوم على عين الله ورعايته، بلغكم ما آل إليه حالنا وقد فقدنا منذ شهور قلال فلذة من فلذات أكباد الدعوة المباركة، فقدنا حبيبا نعدّه فينا كالابن، وأخا ناصحًا لا يتكرر في مكانته غيره، وأبًا حكيمًا، اجتمعت له صفات كـ(لقمان) و(شعيب) و(يعقوب) وغيرهم من الشخصيات المباركة في كتاب الله، فإذا الموت أفقدنا مرشدًا فأنعم بإيماننا مرشدا! وتربّص بنا المتربّصون الدوائر، وراهنت القوى الكبرى على نهايتنا بفقده، فإذا بنا نخرج من هذه الفجيعة كالمعادن النفيسة، خُلصاء لله، فما يضيركم من أمر تحالف سياسي انتخابي مؤقت؟! لقد تحالف الأستاذ من قبل مع حزب الوفد، وبيننا وبينه في الماضي خصومة سياسية تاريخية، فهل ذبنا فيه أو ذاب فينا؟!) ألقيت سؤالي وصمتُّ، وانتظرت إجابة، وتطوّع مسؤولو الإخوان

بالمحافظة فرفعوا أصواتهم: (لم يحدث شيء من هذا) واصلت الصمت مُصرّا على سماع إجابة الجميع، فهتفوا جميعًا بالنفي، أضفت شارحًا: (كنا والوفد كمن تشارك في سيارة لتنقلهم إلى القاهرة، وقد تشاركوا في دفع تكاليفها، فلما وصلت بنا إلى ميدان التحرير تفرّقنا، منا من دخل المسجد ليقيم الصلاة، وآخرون وجهتهم المتحف المصري، فلا هم أجبرونا على دخول المتحف معهم، ولا نحن أجبرناهم على الصلاة!) كنّا والوفد شريكين، سلكنا معا طريقًا واحدًا متشاركين في وسيلة؛ للوصول لأهداف متفرّقة. كانوا معنا شُركاء لا أُجراء. واليوم نتحالف مع حزب العمل الاشتراكي وحزب الأحرار اليميني الليبرالي، فبماذا بالله عليكم أسمت الدوائر المختلفة في البلاد والعالم من حولنا هذا التحالف؟!) وانتظرت الإجابة على ألسنتهم من جديد، فهتف بعضهم: (أسموه التحالف الإسلامي). أضفت: (لم يطلقوا عليه التحالف الاشتراكي ولا التحالف الليبرالي. فمن الرابح في تلك الشراكة؟!) وحدثتهم حديثا مقتضبا عن كفاح المجاهد الأخ (إبراهيم شكري) رئيس (حزب العمل)، وعن التاريخ الوطني لهذا الحزب الذي يمثّل امتدادًا لـ(مصر الفتاة) والزعيم (أحمد حسين)، وتحدّثت عن مواقف جيدة لشريكنا (حلمي مراد) رئيس حزب (الأحرار)، ثم شرعت أجمل لهم بعد ذلك أهداف التحالف ونتائجه المرجوة، وختمت كلمتي منوّهًا عن بركة الشورى، وأهمية السمع والطاعة، وصفات الجُنديّة الحقّة خُلقًا وعملًا! فانبسطت أسارير الإخوة، حتى قال كبيرهم: (حدّثتنا حديثا ملك علينا قلوبنا، ودخل عقولنا بغير استئذان!) ثم أشار إلى أحد الإخوة الشباب فتقدم إليّ مصافحًا، واعتدل مواجهًا إخوانه وقد ارتسمت الحماسة على وجوههم، وبدأ ينشد بصوت ندي:

لكِ الله يا دعوةَ الخالدين..... لقد أوشك البغيْ أن يخمدا
نشرنا دمانا الزكيّة نورًا..... يُضيء الظلام ويجلو الهُدى
وفي كل قطر لنا شهداء..... تعيثُ الحراب بهم والمُدى
ومن كان أكرم منا عطاء..... ومن كان أبيض منا يدا
وهل عرف الدهر فينا جبانًا..... إذا هتف الحق يخشى الردى
ومن غيرنا يستجيب النداء..... ويبعث في الخافقين الصدى

وكل من في القاعة يردد منتشيًا:

لك الله يا دعوة الخالدين..... لقد أوشك البغي أن يخمدا[٢٨]

وبرق الدمع في العيون مترقرقًا، وهاجت مشاعري وسط هذا الزخم الروحاني الفيّاض، واقتحم هذا الشعور الرقراق خيال كنت أظنني نسيته، أو تغافلت عنه، رأيت وجهه

[٢٨] - (https://www.youtube.com/watch?v=AOCDOSx4pPU)

يبتسم في وقار، وصوته الهادئ الرزين يقتلع الاطمئنان المستقر في نفسي في مُجالسة الإخوان، يهتف وسط هذه اللذّة الأخاذة في عالم الذكر: (إنكم يا دوك تمارسون دروشة الأتباع!) وتساءلت في امتعاض: (الفروق الدقيقة بين القمم لا تُرى أبدا، فمن لنا بتوضيحها؟ الفرق بين الجنون والعبقرية شعرة! بين قمة الإيمان وبين الدروشة؟!) أؤمن وأنا أكاد أرى قلوب الإخوان أمامي تتعانق من شدة شفافيتهم، حتى كأن أجسادهم شفّت عن قلوبهم وأرواحهم، أن لقاءً يبدأ بآيات بينات عن (الأخوّة ووجوب الاعتصام بحبل الله) ويتخلله حديث عاطفي مرصّع باستشهادات من آي الذكر الحكيم، وحديث سيد المرسلين، تزيّنه عبارات من رسائل (الإمام الشهيد)، ثم ينتهي بنشيد عبقري مؤثر مثل (دعوة الخالدين)، أو (جدّد العهد)، أو (نشيد الكتائب) لقاء مثل هذا يستطيع أن يحرّك الجبال، ويجنّد الصخور، فما بالنا ببشر من لحم ودم؟! إنه الإيمان. وليس دروشة! مقتنع أنا تمام الاقتناع بمنطقي، فهل أَسكت اقتناعي صوته الذي أفسد علي تلك اللحظة الروحانية وغيرها من اللحظات؟!

*****

أعترف أننا خُضنا الانتخابات البرلمانية لعام (٨٤) بشعار بدا مُستفزًا إلى حد ما، "عودي يا مصر إسلامية". لكننا اهتدينا إلى شعار عبقري هذه المرّة، فشعار (الإسلام هو الحل) وُلد جذّابًا إلى الحد الذي طارت معه عقول الخصوم، وطاش صوابهم، والتف حوله الشعب التفافًا ظاهرًا، وعاش الشعار وصمد للزمن، فخُضنا به كافة الاستحقاقات الانتخابية اللاحقة من المحليات إلى النقابات المهنية مرورًا بالاتحادات الطلابية، ثم أصبح شعارًا عابرًا للقارات، وانتشر انتشار النار في الهشيم، ترفعه الحركة الإسلامية في ربوع الأرض، ويتغنّى به الشعراء والمنشدون!

ومن خلال تلك الجولات التوعوية على إخوان المحافظات، احتككت بإخوان الأقاليم عن قرب، وعرفتهم أكثر على الطبيعة، واكتسبت صداقات عديدة، منها ما ترك أثرًا بالغًا في حياتي الدعوية والعملية فيما بعد، ومن هؤلاء كانت صداقتي بالشيخ الداعية (محمد حسين) من إخوان الإسكندرية، وقد روى لي طرفة من طرفه بعد دخول البرلمان، ففي أولى الجلسات كان يجلس بالقرب من (محمد علي محجوب) وزير الأوقاف في ذلك الوقت، فباغته الوزير متهمًا: (أنتم ما جئتم إلى هنا إلا لأنكم تريدون الحكم!) فأجابه إجابة بليغة مدهشة: (وهل تظن أننا جئنا للعزاء؟! طبعًا جئنا نطلب الحكم بشرع الله، وإلا إذا كان طلب الحكم نقيصة علينا أن نخجل من التصريح بها، فمن باب أولى أن تستقيل فضيلتك من هذا الحكم!) أما الآخر فكان المهندس (محسن

القويعي) من إخوان (دمنهور)، هذا الرجل السياسي بفطرته، ولقد صارت لي معه ذكريات كثيرة لا تُنسى، فقد كان -يرحمه الله- مُشاغبًا حاضر البديهة، قويًّا في الحق، مُحبّا للدعابة، عاشقًا لأصناف الولائم، يشارك بها خاصة إخوانه من أبناء البحيرة.

وبصرف النظر عن أنني أُعتقلت قبل أسابيع من إجراء تلك الانتخابات البرلمانية، كوني غير مرشح فيها، وبالتالي ليست لي حصانة المترشّحين، ولمعرفة جهاز المباحث بدوري المحوري في الإعداد والتعبئة للعملية الانتخابية على مستوى محافظات الجمهورية. فلقد كانت سعادتنا في محبسنا بسجن (أبي زعبل) غامرة، ونحن نتلقّف أنباء فوز الإخوان بعدد (٣٦) مقعدًا من بين (٦٤) مقعدًا حصدها التحالف. وشكّلنا بمفردنا أكبر كتلة معارضة داخل البرلمان!

ولا أنسى العبارة الكاشفة التي خصّني بها المهندس (محسن القويعي) في أول زيارة تالية له لمكتب (التوفيقية) إذ أصبح مسؤول القسم السياسي بمحافظته: (لا يُسعدني كثيرًا تحقيق فوز في استحقاق سياسي. يقلقني دائمًا أننا لا نستطيع الحفاظ على الأرض التي كسبناها، فنخسرها، وتمتد خسائرنا إلى ما ورائها من قواعد نحسبها مكتسبات ثابتة لا تطالها يد الطغيان السياسي الحاكم! مهمتكم في المكتب سيدي أن تبحثوا عن حلول حقيقية لتثبيت المكاسب على الأرض، قبل التفكير في خوض استحقاقات جديدة!) في الحقيقة أحب هذا الرجل الفذ وأقدّره، ولم يمنعني حبي له عن التحفظ على ملاحظاته التي تقلل من شأن ما نقوم به، ولو أسرّ بها بيننا. حيث استقرت في وعينا حقيقة أننا في مكتب الإرشاد نعلم الكثير مما لا يعلمه الآخرون، لم يكن هذا غرورًا ولا تكبّرًا عن قبول النصيحة، وإنما لدينا لجان تُصب فيها من المعطيات التي تصلنا من كافة الأنحاء، ما يتيح لنا الحكم على الأمور الكلّية بشكل أفضل، ومع هذا لم نكن نهمل رأيًا يأتينا به ناصح أمين كـ(محسن القويعي)!

*****

لم يُنعم الله تعالى علينا – على عظيم نعمه ووفرتها- بنعمة الذُريّة، ولا شك أن هذا شكّل محنة قاسية على قلب (عزّة) الرقيق الحاني. لكنه -سبحانه- أرسل لنا المنحة في قلب المحنة، فتفرّغت لي (عزّة) تفرغًا كاملًا، وأضحيت بالنسبة لها لست الزوج والحبيب فحسب، وإنما الابن والذُريّة أيضًا، فغمرتني بحنان فوق حنان، وعطف فوق عطف! وتفرّغت أنا أكثر لدعوتي وعملي في الطب والجامعة. كما منحني القدرة

على ألا أبخل بمال يُطلب مني، أيا كان قدره، أصبح لدي منه الكثير، ولا أحد يرثه من بعدنا، فأولى به دعوتنا!

غرست الدعوة فينا أخلاقًا حميدة وخصالًا رائعة، وعلى رأسها خُلقيّ الوفاء، والتضحيّة، فما كنت لأُكْلم (عزّة) في قلبها إذ أفكر مجرد تفكير عابر بالزواج من أخرى، ربما أُرزق منها بالولد الذي حُرمت منه وأشتاق إليه. كان مثل هذا التفكير في خاطري من المحرّمات. محظورات الوفاء والحُب!

فاتحني أحد الكرام متودّدًا على هامش اجتماع هيئة المكتب، بأنه مستعد أن يدلّني على زوجة صالحة تُكمل رسالة زوجتي الحبيبة، ويمنحني الله تعالى منها الذُريّة الصالحة، صعدت الدماء حارة إلى رأسي، واحمر وجهي خجلًا، وأطرقتُ إلى الأرض لا أجد ما أعقّب به، فحمل عني أخ فاضل عبء الإجابة قائلًا: (وهل يستقيم الأمر لأصحاب الدعوات الصادقة والجهاد الرباني الكريم أن يتزوّجوا أكثر من زوجة؟! إن أخ محمد أكرمه الله) وأومأ إلي، ثم استطرد: (ما يلبث أن يخرج من السجن أسابيع، حتى يعود إليه أشهرًا، فليحمد ربه تعالى، أن أصبر عليه زوجته الدكتورة) ثم رفع رأسه وشمل المجتمعين بنظره، ورفع عقيرته في حبور: (احمدوا ربكم جميعًا يا أخوة أن وهبكم زوجات صالحات يصبرن على ما ابتليتم به) وسرَت همهمات الحمد والشكر، وارتفعت ضحكات خافتة، ورفع عني أخي الحرج. ولم يعُد أحد لمثلها بعد ذلك اليوم!

*****

أصبحتُ مسؤولًا عامًا عن الأقسام واللجان النوعيّة في الجماعة، كل الأرقام والإحصائيات والملاحظات والتقارير تصب عندي، فلم تعد مفاصل التنظيم كله في يدي فحسب، بل أصبحت أنا المرجع الذي يُغذّي مختلف مستويات القيادة بالبيانات والمعلومات، وأحيانًا بالأوامر! وأصبح إخواني في مكتب الإرشاد يصفونني بـ(أرشيف التنظيم)، ولم أحرص يومًا على أن أكون في مقام متخذ القرار. لكنني في الواقع كنت صانع تلك القرارات، كنت أُعدّها وافية، ليضع عليها القائمون بالأمر توقيعهم، لتصدر باسمهم!

ولمحت خلف الأفق شبح صراع خفي يدور في غير ضجّة، كان سلاحه المال. أُثر عن (حسن البنا) -رحمه الله- أنه لا يتوجّه بدعوته إلى الأعيان والإقطاعيين ورجال المال، كما تتجه كل الدعوات والأفكار والمنظمات إلى أصحاب المال، ليحقّقوا بهم وجاهة اجتماعية، وقدرة اقتصادية، لكن (الإمام) كان يحذر أشد

الحذر من سيطرة رأس المال على دعوته وفكرته، مدركًا خطورة تكوين مراكز قوى اقتصادية داخل الكيان، تؤدّي إلى السيطرة عليه وتوجيهه حيث مصالحها المالية. الآن أصبح لدينا عملًا في النقابات المهنية، التي فتحت لنا مجالات غير مسبوقة، ولعبت حركة المال دورًا ملحوظًا!

أراد إخواننا في إحدى النقابات المهنيّة المرموقة تقديم ميزة كبيرة لأعضاء النقابة، فاقترحوا إقامة معرض ضخم للأجهزة واللوازم المنزلية مما يُعرف بـ(السلع المعمّرة). على أن يكون البيع بالتقسيط، تيسيرًا على أعضاء النقابة وذويهم، ولم يكن أعضاء مجلس إدارة النقابة على دراية بعالم المال والأعمال، فمن الطبيعي أن يلجأوا في هذا الشأن لذوي الاختصاص، فنصحوهم باللجوء إلى شركة متعهدة بإقامة المعارض الكبرى، بحيث تتكفّل الشركة بإقامة المعرض وتحمّل تكاليف استئجار مكان العرض، ونسبة مُقررة تُدفع لصالح ميزانية النقابة، وتقوم الشركة المتعهّدة، بالاتفاق من الباطن مع شركات كبرى للأثاث المنزلي والسلع المعمّرة، على العرض في المعرض بنسبة عمولة محترمة، تحتفظ بها الشركة المتعهّدة بإقامة المعرض، وبذلك تحقق أرباحًا مالية كبيرة، دون الإقدام على مخاطرة تجارية من نوع ما! وأعلن مجلس إدارة النقابة عن موعد المعرض، وقُدّمَت له عروض من شركات متعهّدة، وفكّر بعض الإخوان العاملين في مجال المال، في خوض التجربة، إنه نشاط تجاري أسهل كثيرًا من الأنشطة التي يمارسونها، سواء في مجال التجارة الكبرى، أو مجال الصناعة، وكان من الطبيعي أن يفوزوا بثقة مجلس إدارة النقابة المهنية المرموقة، فعلى سبيل النسبة المالية المخصّصة لحساب ميزانية النقابة، كان عرضهم هو الأفضل، ناهيك عن ثقة أعضاء المجلس في أخلاقهم وحسن إدارتهم وحكمة تعاملهم، وجنى الشركاء في هذه العملية ربحًا عظيمًا. وحققوا نجاحًا باهرًا في المعرض، من حيث حسن التنظيم، وروعة الأداء، وكفاءة التعامل مع الجمهور. مما أكسبهم سُمعة رائعة، بالإضافة إلى الإنجاز غير المسبوق الذي حققه مجلس إدارة النقابة، من جرّاء التيسير على أعضاء النقابة بهذا المعرض. وانتقلت الفكرة إلى مختلف النقابات المهنية في مصر، وأغلبها يسيطر على مجالس إدارتها إخوان من أبناء المهنة. وأصبحت عروض المعارض ترسو كلها على تلك الشركة الإخوانية، التي قفزت في عالم المال قفزات هائلة تجاوزت كل الأرباح التي يحققها اقتصاديونا العاملون في مجالات الخدمات الطبية والتعليمية وحركة الصناعة. وكان من بين الشركاء في هذه الشركة المختصّة بالمعارض، أعضاء في مكتب الإرشاد ومجلس شورى الجماعة، وتشابكت المصالح رغم أنف الجميع. ولم يعد نشاطنا ذو الطابع الاجتماعي متنفّسًا لمواجهة

التضييق الذي يفرضه علينا نظام (مبارك)، خاصة بعد حل مجلس الشعب الذي شكّلنا فيه نسبة معتبرة فقط. لكنه أصبح أيضًا ذا نفع اقتصادي هائل لبعض أصحاب القرار. ولأول مرة في تاريخ الدعوة، يصبح للمال **(الدعوي)** وزنًا!

هذا الصراع الذي بدا كالشبح لم يلمحه إلا أصحاب المهمات الخاصة من أمثالي، ولن يحدّثك عنه غيري. وقررت أن أُلقي بثقلي المالي في حلبة الصراع. كانت الحلبة نفسها باهتة إلى الحد الذي لا يمكن أن يلمحه أحد! وكان أغلب متّخذي القرار داخل مكتب الإرشاد، إما أساتذة جامعات –مثلي– وإما علماء شرعيين، وإما أطباء منشغلون بعملهم ودعوتهم، فما كان لهم أن يلحظوا صراع المال الذي بات يدور حولهم، وتذرّعت ببيعي لقطعة أرض تركتْها لي عائلتي في إحدى الجهات الزراعية بعد دخولها (كردون المباني)، فتم بيعها بمبالغ جد خيالية! وأنا أُلقي بأسهمي المالية مضاربًا في الشركات المختلفة، ومساهمًا في مد فروع مستشفيات (الجمعية الطبية الإسلامية) إلى كل المحافظات، وأحيانًا إلى المراكز! والمساهمة في مدارس الإخوان الخاصة، التي باتت تنتشر في كل المحافظات، وأصبحت تستحوذ على المكانة الأولى في جودة الخدمات التعليمية، والتربوية، ومن ثم باتت الأعلى سعرًا بالنسبة للملتحقين بها! وصارت مشاريعنا التي أنشأناها في الأساس من أجل التخفيف على المواطنين، وبث روح الدعوة في ربوع الوطن، وتقديم خدمات متميزة في مختلف القطاعات، وتقديم سفراء الدعوة في تلك القطاعات، تحوّلت من مشاريع دعوية خيرية صرفة، ببركة وتوفيق من الله –من غير إرادة منا ولا تخطيط– إلى مشاريع اقتصادية هائلة النفع والدخل، وأصبح القائمون عليها هم الوجهاء والموجهين أيضًا، ووضح تأثير رأس المال والمصالح الاقتصادية بشكل أو آخر في حركة اتخاذ القرار داخل التنظيم!

*****

إن تعامُلنا في حركة المال، وضخنا لهذه الأموال الكبيرة في سوق الاقتصاد المصري، جعلنا نحتك بالبنية التحتية لمتخذي القرار داخل أروقة الدولة المصرية، احتككنا بعالم الدهاليز وما يدور فيها من عمليات بيع وشراء لكل شيء. كل ورقة تحتاج إلى عشرات الاعتمادات، وعشرات التوقيعات، ولكل اعتماد ثمن، ولكل توقيع سعر! ولم يكن الأمر يحتاج فقط إلى تدفق حركة المال، لكنه أصبح يحتاج كذلك إلى مرونة هائلة في المعاملة، كيف نُدين الراشي والمرتشي من فوق المنابر ونحن نتعامل في حركتنا المالية مع منظومة فساد تتجاوز بكثير وصف الراشي والمرتشي؟! بتنا

حريصين على سمعة هؤلاء، فلولاهم لتعقّدت مساراتنا المالية وفق أوامر سيادية صارمة تقضي بالتعقيد لخنق الطرق أمام الدعوة والداعية! تترسنا دائمًا بالفتوى الشرعية التي تبيح للمرء أن يُقدّم الرشوة ما دام لا يُطالب بأكثر من حقه، وما دامت لا توجد وسيلة أخرى أمامه للحصول على حقوقه المشروعة. وكانت حقوقنا كلها مشروعة في هذا المجال، كن دائمًا كما يجب أن يكون المؤمن (كيّسًا فطنًا)!

*****

من أكبر سوءات نظام (مبارك) أنه –وفي صمت تام وبهدوء وأريحية ودون كثير شعارات– جعل كل نشاط في مصر مرتبطًا بالمال، لم يعد للمتطوّعين الحقيقيين مكان على أرض الوطن، لم يعد ثمّة مجال لأن تشارك في نشاط بالمجهود، ليس في مجتمعنا مكان للذين يتوَلوْن وأعينهم تفيض من الدمع حَزَنًا ألا يجدوا ما ينفقون! رؤوس الأموال سيطرت على كل شيء في البلد، لا يمكن نجاح مرشح انتخابي للبرلمان لا ينفق أموالًا باهظة. كنت في بادئ هذا العهد –ولم يمر على نظامه سوى ست سنوات– أمرّ في جولتي التوعوية على مرشحي الإخوان في محافظات مصر، فأجد شيوخهم ومسنّيهم يبيتون على الحُصر البالية في المخازن والمستودعات، التي يوفرها لهم إخوانهم بالكاد، للتخفي عن أعين رجال (مباحث أمن الدولة)، فتترك أثرها على جلودهم وجنوبهم. وطعامهم المسرّب إليهم لا يزيد عن (ساندويتشات الفول والطعمية). وأغلبهم موظفين، وصغار تجار، وأصحاب مهن حرة بسيطة الدخل المادي، تتكفّل الدعوة بمصروفاتهم الانتخابية من جيوبنا الفقيرة شبه المُعدمة، حيث نوظّف العامل البشري الذي يميزنا عن أي تيار توظيفًا كبيرًا، فكله جهاد في سبيل الله، جيش الخطّاطين، والموزّعين لأوراق الإعلانات، ومنفّذي حملات الدعاية، ومنظمي المؤتمرات، وإخوة تأمين المسيرات والفاعليات، كله يعمل في سبيل الله! بينما كل الأحزاب تدفع لمن يقوم لها بحملات الدعاية، ومن يعمل معنا (يدفع من جيْبه)، مساهمة يساهم بها مع جهده (واجبًا ماليًا)، ولو كان ضعيفًا.

(مبارك) ونظامه لن يترك هذه البلد إلا وقد دالت دولة أصحاب القرار فيها في مختلف المجالات والقطاعات، إلى أصحاب رؤوس الأموال الضخمة. صارت دولة (الباشوات). ولم نعد –على غير إرادتنا– استثناءً من هذا التطور الخطير الذي مسّ كل عناصر الدولة، وبات مرشحونا في الانتخابات البرلمانية التالية أيضًا من أصحاب المساهمات المالية في الشركات، ومن ذوي رؤوس الأموال، وإلا فكيف سننافس هؤلاء (الباشوات الجدد)؟!

أدركت خطورة حركة المال داخل الجماعة، وساهمت فيها بنصيب معتبر، فامتلاك تحالف (عسكرة الدعوة) لقوّة المال، يجعل في أيدينا قوة التنظيم وسلاح الاقتصاد!

*****

صرتُ بحكم موقعي مسؤولًا عن تنسيق اللجان النوعية والأقسام المتخصصة، مُحتكّا بكل صنوف المشكلات الإدارية والتنظيمية التي تنشأ بين كل مؤسسات الدعوة وداخلها، تفاصيل الخلافات والاختلافات الفكرية والإدارية والتنظيمية كلها تصب عندي، وترجع إلي، ومن بين تلك المشكلات، تناهى إلى مسامعي تململ بعض الرجال من عدم وضوح الرؤية للمستقبل!

في زمن (مبارك) أنت تركب عربة طائشة، على طريق وعرة شديدة التعرج، ارتفاعات شاهقة، يعقبها منحدرات مجنونة، ثم مطبات اصطناعية عملاقة، تجعلك تقفز فوق مقعدك رغمًا عن ثباتك لتصطدم رأسك بسقف العربة الصلب، ثم تسقط مكانك شبه مغشي عليك!

أدخل النظام الشعب كله إلى دنيا ملاهي كبيرة، وتحولت **(مصر مبارك)** إلى **(مصر بارك)**!

والملاهي نفسها متاهة هائلة لا نهائية، ثم وضع النظام الشعب على (الحلزونة)!

سأل أحد الإخوة منفعلًا ثائر الأعصاب: (كيف نكون على رأس قيادة كبرى الحركات الإسلامية في العالم، ولا نملك أدنى قدرة على استشراف المستقبل؟! نحن يا إخوة لا نعرف ماذا يمكن أن يقدم عليه النظام غدا! في أي شأن من شؤون الحياة. نحن لا نستطيع التّكهن بمصائرنا. محاكمات عسكرية؟ سجن؟ غلق مقر؟ مصادرة أموال؟ تغاضي عنا ومساحات حرية هنا وهناك؟ عودة للتمثيل بالبرلمان، ثم حرمان صفري صارم منه؟!)

أجاب أخ: (بل نعرف ألاعيب النظام. نحفظها عن ظهر قلب. إنه يتعامل معنا وفق معادلات شديدة التعقيد لكنها ثابتة لا تتغير. خُذ عندك مثلا. معادلة (البرلمان – الليمان). والملاحقة بمبدأ المد والجزر. ثم معادلة قطع خطوط القيادات الوسيطة، واستهداف الجيل الثاني دائمًا، لتوسيع الفجوة بين مشايخنا وعلمائنا وبين أجيال الشباب!) قال حكيم: (نحن نتعامل مع نظام بلا عقل ولا منهج، ولا خطّة، ولا رؤية،

نظام عشوائي، يتصرّف بعشوائية مفرطة، فلا يمكنك أبدًا مهما بلغت درجة فراستك التنبؤ بالخطوة العشوائية القادمة)

ولم يكن نظام (مبارك) بلا عقل، إنه يملك العقل الكافي لتحويلنا جميعًا إلى حفنة من المجانين، يعمل بدأب لتحويل الوطن إلى مجموعة من العشوائيّات، وتحويل المجتمع إلى تجمع، مجرد حشد كبير هائل لا يربطه ببعضه سوى أرض التجمع، أو مسرح العمليات العشوائية!

سمعت ذات يوم طُرفة من زميل بالجامعة: (أعطى (مبارك) كلا من ولديه (جِوالًا) به عشرة ديوك، وطلب أن يفتح كل منهما (جِواله) وسط (ميدان التحرير) ساعة الذروة، فمن استطاع منهما أن يعود بحصيلة الديكة العشرة كاملة سيوّرثه حكم مصر! أطلقا الديكة في الميدان، وعبثًا حاولا القبض على ديك واحد، فعادا إلى أبيهما بخفي حنين، مُبعثري الهندام والكرامة، فأخذ (مبارك) –الأب– (جِوالًا) ملأه بالديكة، وتبعاه إلى (ميدان التحرير) في أوج ازدحامه، وقف (مبارك) وأمسك بطرف الجِوال بيديه بإحكام، وظل يلفّه في حركة دائرية بسرعة كبيرة عشرات المرات، وهما يتابعانه بدهشة، وبدأ يلهث من شدة التعب، ثم فتحه وأفرغه، فسقطت منه الديكة –دائخة– لا تقوَى على الوقوف، فالتقطها وأعادها إلى (الجِوال) وأحكم إغلاقه وهو يقول: (هكذا أحكم البلد!) سمعت هذه الطرفة بعد أن أحكم إغلاق الجِوال على مصر!

*****

رغم إلمامي الكبير بما يدور خلف كواليس الإخوان أنفسهم إلا أن فترات الحبس الطويلة، تمثّل لي –مع كثير من قيادات الإخوان– فرصة حقيقية لالتقاط الأنفاس، والتوقف عن اللهاث وراء الأحداث والمستجدّات، العالمية والإقليمية التي تتسارع وتيرتها من حولنا، أو الأحداث التي يصنعها النظام، والواقع الذي يفرضه علينا بعشوائيته العجيبة! فالسجن –لا سيما الذي يستمر لفترات طويلة– يمنحنا الفرصة للتقويم والمراجعة والبحث عن مواطن الخلل. ويعطينا فرصة للتقارب الفكري والنفسي. دائمًا السجن محضن التأمل، وعزلة مناسبة لنضوج الفكرة. ومعتكف إجباري يمكننا فيه إعادة ترسيم علاقاتنا مع الجميع!

وزُج بي في المحاكمات العسكرية مع عدد من قيادات الإخوان في مطلع عام (١٩٩٥). ولحقت بنا مجموعة أخرى على خلفية محاولة تأسيس (حزب الوسط)!

تساءلنا كثيرًا: ما هي الظروف التي أجبرت النظام على استخدام سلاح المحاكمات العسكرية ضدنا؟! ولم يكن من شيء لافت، فالحياة تمضي على وتيرتها المعتادة. لقد مرت علينا ظروف إقليمية أكثر خطورة وأهمية من الظرف الإقليمي

الذي لم يكن ضاغطا الآن! واستعرضنا في دراسة مستفيضة أحداث السنوات العشر الأخيرة التي مرّت بنا، ولخّصناها في عناوين موجزة:

-تدشين التحالف الانتخابي الإسلامي وإنتاج شعار (الإسلام هو الحل) مطلع عام (٨٧).

-تحقيق نجاح غير مسبوق في الانتخابات البرلمانية.

-النجاح في التحايل على إصدار مجلة شهرية يشرف عليها الإخوان (لواء الإسلام).

-تجاوز العقبة السياسية الكبرى بتمرير إعادة ترشيح الرئيس (مبارك) لفترة رئاسية ثانية من البرلمان، بموافقة الهيئة البرلمانية للإخوان بشروط إصلاحية، وفوّتنا فرصة شخصنة الصدام (خريف ذات العام).

-اندلاع الانتفاضة الفلسطينية (انتفاضة الحجارة)، وتدشين حركة (حماس) بقطاع غزة (ديسمبر من نفس العام).

-إعلان الداخلية ومباحث أمن الدولة الكشف عن تنظيم الأطفال بقيادة البرلماني عصام العريان! (كفرقعة إعلامية بعد مداهمة مخيم للأشبال في مصيف بالإسكندرية!) لإحراج الجماعة!

-إقدام صدام حسين على غزو الكويت، وما نتج عنه من توتر في المنطقة، وتدشين التحالف الدولي لتحرير الكويت (أغسطس١٩٩٠).

-إعلان موقف الإخوان الرافض للغزو العراقي وللتحالف الدولي لتحرير الكويت في ذات الوقت، وتقديم تصور لحل الأزمة في إطار الجامعة الإسلامية وإطلاق مظاهرات كبرى في الجامعات تندد بإرسال (مبارك) وحدات من جيش مصر تحت قيادة أمريكا للمشاركة في تحرير الكويت.

- حل مجلس الشعب واغتيال رئيسه السيد (رفعت المحجوب) (أكتوبر ١٩٩٠).

-الاتفاق مع الأحزاب المصرية المعارضة على مقاطعة الانتخابات البرلمانية بالإجماع سوى (حزب التجمع) (آخر عام ١٩٩٠).

-تكثيف العمل على المحور الطلابي والنقابي والإغاثي بعد الخروج من البرلمان.

-التنديد بمؤتمرات السلام الدولية مع الصهاينة (مؤتمر مدريد) (خريف عام ١٩٩١)

-الزج ببعض قيادات الإخوان في قضية سلسبيل لتجفيف منابع المال، وتكنولوجيا المعلومات، ثم صدور حكم قضائي بالبراءة فيما بعد.

-وقوع زلزال مصر الكبير والدور الإغاثي الهائل للجان الإغاثية النقابية، في ظل غياب مؤثر للحكومة عن مواكبة الحدث (أكتوبر ١٩٩٢).

-خوض انتخابات المجالس المحلية (خريف١٩٩٢)، وتحقيق نجاح في بعض المحافظات والمناطق. فهل كان ذلك اعترافًا بخطأ الانسحاب من الانتخابات البرلمانية السابقة؟ أم محاولة لمحاكاة تجربة جبهة الإنقاذ الإسلامية بالجزائر للسيطرة على البلديات؟!

-حالة من التحريض ضد سيطرة الإخوان على مجالس إدارات النقابات المهنية تنتهي بصدور القانون رقم (١٠٠) لتأميم العمل النقابي (صيف ١٩٩٣).

-بالتوازي مع تأميم العمل النقابي، تمت السيطرة الأمنية بالكامل على الاتحادات الطلابية، وحصار العمل الإخواني داخل الجامعات، باستخدام وسائل القمع المختلفة، من شطب قيد، واعتقال تعسفي للطلاب، وغيرها من وسائل.

-اندلاع مذابح الصرب ضد مسلمي البوسنة والهرسك -في البلقان- ومحاولتنا إيقاظ الشعور الإسلامي، عن طريق عقد مئات المؤتمرات لمناصرة مسلمي البوسنة. في محاولة لتكرار نموذج دعم الجهاد الأفغاني (صيف١٩٩٤)

ولم نجد في كل هذه العناوين المختصرة للمرحلة ما يدفع النظام إلى الدخول معنا في معركة تصفية حقيقية، عبر التحويل إلى المحاكمات العسكرية، مع توقعات بصدور أحكام قاسية! فقررنا عقد ندوات داخل الزنازين، لمدارسة كل عنوان من هذه العناوين في ندوة أو أكثر، خاصة أن جُل المعتقلين من قيادات الصف الثاني، ومسؤولي مكاتب المحافظات، وأعضاء مجلس شورى الجماعة، وثُلّة منهم أعضاء بمكتب الإرشاد. مما يتيح لما نُصدره من توصيات أن تُؤخذ بعين الاعتبار في مسيرة العمل الإخواني للمرحلة القادمة. وقابلت (محسن القويعي) في فناء السجن، فابتسم لي في عذوبة، وتذكّرت دون أن ينبس بكلمة، تحذيره لي من فقداننا لقواعدنا الثابتة! واستوعبت مرحلة الجزر والانحسار التي تمر بنا، حتى أنني توقّعت أي سيناريو محتمل يقوم به النظام في مواجهتنا، متجاوزًا الخطوط الحمراء التي تفرضها قواعد اللعبة السياسية. بالمحصّلة كنا نتقهقر على كل المستويات. والمشكلة الأكبر، أن كثيرًا من الندوات التي عُقدت لدراسة العناوين السابقة، كشفت عن نوع من السطحيّة في قراءة الواقع. فعلى سبيل المثال الورقة التي قُدّمت إلينا بعد مناقشة مستفيضة لمحور تأميم النقابات المهنية، تعطي الأولوية المطلقة للإحراج السياسي الذي يسبّبه نجاح النقابيين الإخوان للنظام، بالإضافة إلى تحريض الإذاعات الغربية التي غطّت بفاعلية عمليات الإغاثة النقابية لمنكوبي الزلزال في القاهرة الكبرى. مما ضغط على

أعصاب (مبارك)! لا أستطيع أن أغفل مثل هذه العوامل بالطبع، أظنها كانت قابعة في الخلفية الذهنية لمتخذ القرار، لكنه غاب عن جميع المتحاورين (البعد المالي)، ولم يغب عن صانعي سياسات النظام لحظة واحدة. أزعجهم بشدة منافستنا لهم على مستوى الاقتصاد الاستثماري في مصر. شممت لأول مرة رائحة (جمال، وعلاء) وراء تلك اللعبة، وأدركت أننا قادمون على مرحلة سيكون فيها الصراع بين الجيل الثاني من كلا الجانبين، وأن رحى الصراع ستكون بعيدة إلى حد ما عن الأساليب التقليدية المعتادة، وسيحاول (الولدان) فرض معركة تكسير عظام علينا! والغرب وأمريكا يضغطان بشأن الإصلاحات الديمقراطية المطلوب إنجازها في (منطقة الشرق الأوسط الجديد). و(مبارك) يستخدمنا كفزّاعة للغرب باعتبارنا البديل المحتمل بقوة، إذا أصرّت أمريكا على مشروعها الإصلاحي. أراد الآن أن يقول: (لا يوجد بديل جاهز، حتى الإخوان سيطرنا عليهم، فلم يعودوا يصلحون إلا لإدارة حفلات الزفاف في الشوارع والأزقّة!)

*****

تجربة (حزب الوسط) أعادت طرح النقاش المحتدم حول علاقة الدعوي بالسياسي، ومستقبل التنظيم الشمولي، وكان لا بد لتجربة هذا الحزب الوليد أن تفشل، فنجاحها قضاء مبرم على مشروع (عسكرة الدعوة) و(التنظيم الشمولي المحكم).

قدّم لي أحد الإخوان ورقة ساخطة ناقمة على تجربتنا خلال عقدين من الزمان، عنْوَنها بعنوان صادم (الممانعة الرخوة)! لا أريد أن أصف كيف صدمتني تلك الورقة، والمعنى الصعب الذي أراد كاتبها أن يلفتنا إليه! ومحصلّتها (أن كل عناوين العشرية السابقة، وما سبقها بعشر سنوات، عبارة عن كوارث كبرى وقعت، وانحرفت بمصر والعالم العربي والإسلامي من حولنا، ولم نستطع منع كارثة واحدة من الحدوث، فلا استطعنا منع كارثة (كامب ديفيد) ولا غزو السوفييت لأفغانستان، ولا ضرب الصهاينة للمفاعل النووي العراقي، ولا غزوهم للبنان، ولا منع الحرب الإيرانية العراقية، ولا منع تمديد فترات رئاسة (مبارك)، ولا منع غزو صدام للعراق، ولا تدخل أمريكا بقواعدها في الخليج، ولا عرقلنا اتفاقيات صلح العرب مع الصهاينة، ولا تطويق وحصار الانتفاضة الفلسطينية، ولا حافظنا على مكاسبنا في العمل الطلابي والنقابي والإغاثي ومن قبله البرلماني. نحن بالمحصلة مجرد "مُمانعة رخوة". نُطلق صرختين تحذير، ونداء استغاثة، ثم عويل استجداء للمغتصِب، ألا يُقدم على فعلته الشنعاء بنا، ثم أنين مكتوم أثناء ممارسة المُغتصِب لجريمته، مما يزيد من لذة المجرم الحيوانية، وشهوته

المجنونة في افتعال بطولة القضاء على مقاومة ما!) تقزّزت بشدة من تلك الورقة، والإيحاءات الواردة بها، ربّما كان خلفها أيادٍ أمنية تعبث! أجبنا على الانتقادات اللاذعة: (نحن دعوة ولسنا دولة، لا تحمّلونا ما لا تطيق الدعوة!) طرحنا بقوّة شعار "الإسلام هو الحل" وصمودنا الحقيقي هو دوام تمسكنا به، مهما كلّفنا هذا الإصرار عليه من تضحيات، ونحن نقضي عقوبات بالسجن المشدد تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات، لصمودنا على هذا الشعار، ولو لم نكن فاعلين ومؤثّرين ومزعجين، ما أُضطر النظام لاستخدام وسائله (القذرة) ضدنا. لو كان ما نُطلقه من نوع أنين المغتصَبة تحت وطأة المُغتصِب، ما تآمر علينا لإخضاعنا، نحن الآن في السجون، ولم نخضع!

*****

خرجتُ من السجن في صيف عام (٢٠٠٠)، لأجد عالمًا جديدًا مختلفًا عن العالم الذي تركته خلفي، عشيّة إلقاء القبض علي، بتهمة إحياء وقيادة جماعة محظورة! وبدأت أدرك التغييرات الجذرية التي يُحدثها عصر (السماوات المفتوحة)، وثقافة (الإنترنت). ولئن كان عامة الناس تتشرّبها كل يوم في جُرعات بسيطة غير محسوسة؛ فإنني خرجت لأجد نفسي رجلًا من أهل الكهف. المجتمع حولي يتغيّر بسرعة مذهلة. الشيء الوحيد الذي لم يتغير هو قلب (عزّة)، يخط المشيب رأسها، فتصبغه بالحناء، وتُكسبه لونًا كستنائيّا فاتنًا، تريدني أن أراها دائمًا في أبهى صورة، وتخط تجاعيد الزمن على قسمات الوجه والعنق دلائل مرور السنوات، لكن روحها تظل فتيّة، وقلبها يبقى كما هو طائر بريء يرفرف بجناحي الحنان والحب فوق العش الدافئ!

هتفت (عزّة) وهي تقود السيارة في الطريق إلى منزلنا: (لن أسمح لك أن تعود إلى بيتنا الحبيب، قبل أن نزور (ماما)) إيه يا (عزّة)!

وأغمضت عيني، وغرقت في الذكريات القريبة والبعيدة، فما أن وصلنا (الفجّالة)، إلا ووجنتي غارقتين بالدموع. أمي أيضًا وجدتها كما تركتها آخر مرة، لم تعد سنوات العمر تؤثّر فيها أكثر مما أثّرت من قبل، مرور السنوات لا يجد ما يأخذه من صحتها وهيئتها بعد كل ما أخذ. لم يكن شيء فيها يمكنه أن يحتفل لقدومي عليها بعد كل تلك السنوات، سوى لمعان خفيف في عينيها الغائرتين، وظِل ابتسامة أشعر بها –شعور الولد بأمه– أكثر من أن تلمحها عيناي، وانكببت على كفّها المغضّنة فأغرقتها بقبلاتي ودموعي، وهي لا تقوَى على سحبها من بين يدي كما كانت تفعل

سابقا. لم يعد في مقدرة عينيها أن تنظر لي نظرة عتاب على العمر الذي أضيعه هدرًا في سجون الظالمين. استقبلتني كمن تستقبل ابنًا أضاعته الغربة فهو يعود إلى وطنه كل عدّة سنوات. تمتمتْ: (بركة أنك بخير يا ابني. خشيت ألا أراك قبل أن أموت. قلبي كان مشغول عليك. لكن (عزّة) الله يكرمها دائما تطمئنني، ولا تتركني أنام كل ليلة قبل أن تكلّمني في المحمول) وغاب صوت أمي الضعيف المتكسّر عن مسامعي، وأنا أتساءل كيف تمضي حياتنا؟! إننا نحيا الحُب فعلا في ثكنات الرجال العسكرية، المشاعر الفيّاضة بين الإخوان عظيمة ورائعة، الأحضان التي توَدّعنا على أبواب الزنازين حانية ورقيقة. أبدًا لا تشم فيها عبق الحياة في كنف امرأتين. الأم والزوجة! الهواء في شقّة أمي بـ(الفجّالة) له رائحة أخرى. هواء من نوع خاص. معنى الدفء نفسه مختلف. هذه الراحة التي أشعر بها بمجرد الولوج من بابها. كطفل صغير يعود من ثقل هموم وواجبات المدرسة إلى كنف أمه التي تحميه من كل الشرور. في بيت (الفجالة) يتلاشى النظام وتحدياته، يتلاشى الطغيان، يتلاشى كل ما تلاحقنا به الأحداث، ولا أشعر إلا بالأمان الذي يحسه طفل صغير في حضن أمه، تضحك شفتاه وما زالت تبلّلها دموع الخوف والفزع حين تركته لتعد له (الرضّاعة). بتّ الليلة وأنا أخبئ رأسي داخل صدر (عزّة). لم يكن كثير كلام يُقال. فقط نتبادل الأنفاس، يطمئن كل منا على أن الآخر (حسه ما زال في الدنيا!) في الصباح وقبل أن أقرر العودة إلى عملي بالجامعة، أخذت جولة على شركات السياحة الدينية، فحجزت رحلة عمرة لي مع عزة. هذا ما تبقّى لنا من متع الحياة.

*****

على مشارف الألفية الثالثة، يتغيّر العالم بسرعة مذهلة، الأحداث الكبرى تُصنع عبر (التكنولوجيا). (الكمبيوتر) ذلك الجهاز العملاق أو (العقل الإلكتروني)، الذي كان له أكبر الأثر في توجيه حياتي إلى الوجهة التي هي عليها، عندما سلّطه الغرب علي، أصبح الآن جهازًا عاديًا في كل بيت، وأصبحت سجالات الدعوة ونقاشات الشباب عابرة للحدود والقارات في منتديات الإنترنت، وبدأنا نسمع مفردات لغة جديدة علينا. عبثًا حاولنا تثبيت الأجيال اللاحقة، فجوهر الصراع لم ولن يتغيّر، المتغير هو الأدوات فقط!

وظلّت الدعوة، كما أردنا لها، وكما هي، تجتاز كل الصعاب من الداخل والخارج، بيد أن الصعاب الداخلية باتت أكبر وأكثر عمقًا وتشعبًا الآن! فما بظنك

التغيير الذي يمكن حدوثه على منظومة الحياة السياسية والإقليمية والدولية؟ أؤكد لك أنها عَشرية مكررة، (نسخة سنخ ولصق copy & pest) من العشرية السابقة، مع تغيير في الأسماء، وتعديل في التفاصيل، واختلاف حرفية النحت، جودة ورداءة، وفق خبرات النحات وموهبته ومهاراته الخاصة! دعني أُجمل لك عناوينها كما نقلت لك عناوين عَشرية سابقة، وقارن بنفسك.

-قبل أن نخرج من السجن زُجّ بمجموعة جديدة من قيادات الإخوان في قضية عسكرية جديدة، هي قضية النقابات المهنيّة. الجديد في القضيّة، تيقني أن أجهزة الأمن لها أيادٍ داخلية على مستوى قيادات الصف الثاني. اعترفت المباحث أن لها شريكًا داخل مجموعة القيادات النقابية، ومع ذلك رفضت اعتباره شاهد ملِك، وتركته يُسجن مع زملائه. لا بد أن التعويض المادي له عن سنوات السجن كان كبيرًا. أتابع كل هذا وأبتسم لسذاجته. وتضارب الاختصاصات بين الدولي والمحلي!

-خاضت مجموعة من عناصر الصف الثاني -ممن لم تلاحقهم المحاكمات العسكرية- الانتخابات البرلمانية، (انتخابات جس نبض النظام)، وحصدنا (١٧) مقعدًا تحت شعار "الإسلام هو الحل"، وبرزت أسماء بعض هؤلاء تحت قُبّة البرلمان، كـ(محمد مرسي) نائب الشرقية، و(محمد حشمت) نائب دمنهور! (خريف عام ٢٠٠٠)

-في (خريف ٢٠٠١) ضَرب الإرهاب الأسود ضربته الكبرى في قلب الولايات المتحدة (الحادي عشر من سبتمبر)

-مطلع عام (٢٠٠٢) أمريكا وحلفاؤها تعاقب أفغانستان، وتسقط حكومة (طالبان)، وتطارد قادة تنظيم (القاعدة) إلى كهوف جبال (تورا بورا)!

-ربيع (٢٠٠٣) أمريكا وبريطانيا تحتلان العراق وتزيحان حكم (صدام حسين)، وتعلن أمريكا إعادة ترسيم المنطقة سياسيًا تحت الهيمنة المباشرة!

-عام (٢٠٠٤) تدشين الحركة المصرية من أجل التغيير (كفاية)، الحراك السياسي الأبرز في هذا التوقيت، لمواجهة تغول نظام (مبارك)، بمشاركة ممثلين عن ألوان الطيف السياسي والاجتماعي المصري.

-كان العام (٢٠٠٥) مائجًا بالأحداث السياسية الهامة، بدأه (مبارك) بالدعوة إلى تعديل المادة (٧٦) من الدستور المصري لتسمح بخوض رئيس الجمهورية انتخابات تنافسية تعددية لأول مرة في تاريخ مصر الحديث، بشروط تعجيزية تُبقي الانتخابات شكلية. ثم تدحرجت كرة الثلج.

-حركة كفاية تنزل بمظاهرات صاخبة إلى ميدان التحرير لأول مرة في مصر (مبارك) رفضًا للتمديد والتوريث!

-الإخوان ينزلون الشارع من التحرير إلى رمسيس (هل كان احتجاجًا على النظام؟ أم لمنافسة (كفاية) على الشارع الذي قد يُسلب منا؟!)
-تمرير الاستفتاء على تعديل الدستور (مايو ٢٠٠٥)
-فوز (مبارك) بفترة رئاسية خامسة في ظل مناوشة من (أيمن نور) رئيس حزب الغد.
-زلزال الإخوان الصاعق في الانتخابات البرلمانية (نوفمبر - ديسمبر٢٠٠٥)، حصدنا (٨٨) مقعدًا، لنُصبح قوة المعارضة الأولى في مصر!
-اعتداء الجيش الصهيوني على لبنان والصمود الكبير لحزب الله (صيف ٢٠٠٦).
-بروز قضية ميليشيات الإخوان في الأزهر (شتاء ٢٠٠٦) عرض مسرحي طلابي في فناء الجامعة يتحول إلى قضية عسكرية كبرى!
-مطلع عام (٢٠٠٧) ملاحقة قيادات الإخوان وتحويلهم إلى محاكمة عسكرية، وعودة المعادلة (الإخوان من البرلمان إلى الليمان!).
-صيف عام (٢٠٠٧) انفصال حركة حماس بغزة عن السلطة الفلسطينية بـ(رام الله).
-إعلان برنامج -مثير للجدل- لحزب الإخوان صيف (٢٠٠٧).
-صعود حزب العدالة والتنمية -أردوغان- في تركيا وحصوله على رئاسة الدولة لأول مرة في تاريخه.
-ربيع عام (٢٠٠٨) تأسيس حركة (٦ إبريل)، انبثاقا من الإضراب العام الذي دعت إليه حركة (كفاية).
-خريف (٢٠٠٩) إجراء انتخابات داخلية أفرزت مكتب إرشاد جديد، أثارت ربما لأول مرة كثيرًا من اللغط حول إجراءاتها اللائحية، أسفرت عن خروج رموز قيادية من العيار الثقيل من المكتب.
-شتاء (٢٠١٠) القارس، صفر المعارضة في الانتخابات البرلمانية، والإخوان لم ينجح أحد!

زهور ذابلة

قد تُبهرك العناوين السابقة التي لخّصت أهم أحداث العشرية الأولى من الألفية الثالثة، وتجعلك تلهث خلف متابعتها، لن أخالفك الرأي أن وتيرة الأحداث تتسارع بشكل محموم، لكن أثرها على المواقف يظل محدودًا، موْج هائج متلاطم يُرغي ويُزبد، يُصدر صخبًا، يوهم الأنظار أنه يقتنص الحياة على الشاطئ، فإذا تأمّلت الشاطئ بعد هدوء العاصفة، تجده لم يتأثّر بما كان. الرمال ثابتة، تعلوها ذات الأصداف اللامعة، وتتعلق بها ذات الأشواك، ربما يُستبدل شوك بشوك، وصَدفة بأخرى، ويظل المشهد العام للوحة الشاطئ على حاله! فهل غيّرتنا الأحداث المتلاحقة حقا؟! وهل أعادت تشكيل لوحتنا المركّبة من جديد؟! لو أنها فعلت –يا صديقي– ما آل حالنا إلى ما سيؤول إليه!

الحقيقة أننا نجحنا في صناعة ستار فولاذي مضاد للتغيير، مقاوم بفاعلية لعوامل التعرية الفكريّة والسياسية والاجتماعية. لم يقلقنا التكلّس بقدر ما كان يخيفنا التآكل التنظيمي.

منذ نجحت في مهمتي –التوعوية– بين صفوف الإخوان في المحافظات، في السيطرة على انفعالات القواعد تجاه التحالف مع حزبي (العمل والأحرار)، بت موفد مكتب الإرشاد الدائم لاحتواء أي أزمة تنشأ في بؤرة ما، والخلطة السحرية دائمًا جاهزة وثابتة العناصر، مع اختلاف في استخدام مقادير (التبهير) وفق الظروف. (آيات بيّنات من القرآن الكريم بصوت عذب شديد الخشوع، شديد التأثير في افتتاح اللقاء، كلمة مؤثّرة مرصّعة بآيات الأخوّة، موَشّاة بأحاديث النبي –صلى الله عليه وسلم– عن وجوب التزام الجماعة، وفريضة البيعة، وفضل الطاعة في المشاق والمكاره، والإخلاص الذي يجب أن يملك على الجندي شعوره وحياته، فإن كان في الميْمنة فهو في الميْمنة، وإن كان في الميْسرة فهو في الميسرة، وإن كان في الساقّة، فليقبع في الساقة أبد الدهر! القيادة الملهَمة الحكيمة نافذة البصر والبصيرة، هي التي تختار لك ما تراه يصلحك، إياك وأن ترى لنفسك أو تختار، وحذارِ من أن تَعرض نفسك، أو تشرئّب للقيادة، أو تتطلع إلى إبداء رأي، فلا تقدّموا بين يدي قائدكم، هو بمثابة أمير من أُمراء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلا تأكل الذئب من الغنم إلا

القاصية، ومن شذّ، شذّ في النار، واحذر التنظير، فالمنظرون على خطر عظيم، ثم ليصدع أندى الشباب صوتا بالنشيد) يتغير النشيد ولا يتبدل المعنى. فمن:

"إن للإخوان صرح ..... كل ما فيه حسن
لا تسلني من بناه ..... إنه البنا حسن"[٢٩]

إلى:

"يا دعوتي سيري، سيري، سيري...لا يوقفك ظالم أو غدر شرير
وانت يا دعوتنا.. في الشدة سلوتنا..
يا دعوتي سيري، سيري، سيري"[٣٠]

ولتتكاثر الأيدي على طعام بغية التماس البركة. ثم تتعانق الأرواح والقلوب قبل الأذرع والصدور. إنها خلطتنا السحرية التي لا يخيب مفعولها أبدا! وكل تجاوز بعد ذلك هو من نوع التصرف الفردي الذي لا يعيب إلا صاحبه، ولا يسم الكيان الذي ينتمي إليه، ومن أدراكم أننا لا نسعى لتقويمه؟ لكننا لا نعلن عن ذاك التقويم تجنّبًا للفضيحة، وإعمالًا لخُلق الستر، ولا نزيحه من مسؤوليته ولو أخطأ، فنعين الشيطان عليه. المخطئ ضعيف يا إخوة، فلا تعينوا الشيطان عليه.

هل تُحب أن أدلل لك على مدى نجاح خلطتنا السحرية في مواجهة أعتى الأزمات؟! وكيف حلّق خُلق الإيثار بنا إلى مرتبة الصدّيقين وحَسُن أولئك رفيقا؟! أُستدعيت إلى مكتب محافظة من محافظات (الوجه البحري)، للقضاء بين قاتل ومقتول. كلاهما من الإخوان. بل كلاهما من خيرة الإخوان! فالقاتلة طبيبة نابهة، ابنة داعية من الرعيل الأول، ولهم فضل صحبة الإمام، لجأت إليها القتيلة، التي كان بيتها تؤمّه الأخوات من مختلف الأجيال، وزوجها من خيرة رجال الدعوة في المحافظة، لإجراء جراحة في مجال تخصصها، فأخطأت الطبيبة التقدير، وأخطأت التشخيص، وعندما عرض عليها مساعدوها اللجوء إلى استشاري أقدم خبرة، رفضت بدعوى أن الحالة حالتها، وأنها قادرة على التعامل معها، ثم فقدت السيطرة، فقضت المريضة بين يديها. مخلّفة سبعة أطفال!

فهل من حق الأخ الكريم زوج القتيلة، صاحب الخلق والدين، رجل الحق والدعوة، أن يثور ويطلب معاقبة أخته الطبيبة، بما يؤثر على مستقبلها المهني، وسمعتها الطبية والدعوية، ويؤثر على سمعة المستشفى الخيري التي أُجريت فيها الجراحة؟! أين هو إذن من خلق (سيدنا سعد بن الربيع) الذي عرض على أخيه (ابن

[٢٩] - https://www.youtube.com/watch?v=I2ssuHi-vCY
[٣٠] - https://www.youtube.com/watch?v=X9n2_eI9WT0

عوف)، أن يطلّق له أي امرأتيه ليتزوج منها؟! ورغم فقه الأخ وعلمه، فقد غضب وثار، وصعّد الأمر إلى مكتب الإرشاد! ورغم أنني وجدت في نفسي من هياج ذلك الأخ، فقد التمست له عذرًا، وهو لا يعرف كيف يؤول أمر تربية صغاره بعد فقدهم الأم. واجتمعنا اجتماعنا، ومثّل الطبيبة بين يدينا زوجها وهو طبيب نابه في تخصص آخر، ورأينا أن تتحمل الجماعة (دية) القتيلة من جيوبنا الخاصة، فيحصل زوج القتيلة على حقه الشرعي مقابل القتل الخطأ، ونحمي عِرض أختنا –القاتلة– وزوجها وأبيها من أن يلغ فيه كلاب السلطة، وملتمسي الفضائح حول الدعوة!

الدعاء للفقيدة، واحتسابها شهيدة، فالمبطون شهيد، وزيارة قبرها للسلام عليها، إضافات ناجعة للخلطة السحرية، يجب أن تُبرئ صدر الزوج المكلوم، وإلا فليكن أي تصرف حانق منه بعد ذلك الحُكم المنصف الحكيم، شقّا للصف، وخرقً للسفينة! أما إذا تركنا وانصرف عنا، فقد نزع يده من بيعة الله، والجماعة تنفي خبثها دائمًا أبدًا!

عُدت من هذه الرحلة مثقلًا بالهموم، غارقًا في الأحزان، ودوّامة التفكير، في عَرض هذه الدنيا الزائل. زوجة كـ(عزّة) تدفع عمرها مقابل أن يهب الله لها طفلًا واحدًا، وأطفال سبعة غدو بلا أم في غمضة عيْن! ولاحظتْ (عزّة) سهومي وتغير مزاجي، وقد اعتادت مني على العودة من تلك اللقاءات الإخوانية بروح تحلّق في الفضاء، ولم تتركني على العشاء –ولم يكن لي شهية للطعام– فكنت أتناول عشاءي معها توددًا ومجاملة، حتى رويت لها تفاصيل القصّة، وتفاصيل الحُكم الملهم الذي اهتديت إليه، ففصلتُ به بين (زوج قتيلة، وزوج قاتلة)! وضحكت عزة ملئ شدقيها، وهتفت من بين شهقات الضحك: (حكمت بينهما بما قضى به (الإمام الشهيد) من قبل) تساءلتُ في دهشة: (كيف ذلك؟!) (عزّة) كما لا يخفى عليك، قارئة نهمة في الفلسفة وفي التاريخ، تمُدّني بكثير من قصص الدعوة والداعية، وتوَثّقها لي، فأستدعي تلك القصص العجيبة في محاضراتي بين الإخوان، مما يضفي عليها دائمًا مرحًا وبهجة، وحياة! رفعت إصبعها أمام شفتيها في تصميم، أعرف مآلاته، قالت: (لن أتحدّث حتى يستلقي حبيبي على فراشه، فيريح ظهره وجنبه من عناء ومشقّة السفر الطويل المُجهد، وحبيبته تروي له كـ(شهرزاد)، وتدلّك شعره بهيام لا ينقطع، حتى يُغمض عينيه، ويخلد للنوم وأنا على هذه الحالة، ما أزال أهدهده!) وقرنت القول بالعمل، فجذبتني من كفي إلى حيث قررت أن أكون، مستلقيًا على الفراش المريح، وبدأت تدلك رأسي الذي وخطه الشيب، وزحف عليه الصلع الخفيف. فالعمر يتقدّم بنا، وما زلت لـ(عزّة) الحبيب الأول الذي دقّ له قلبها قبل أكثر من ربع قرن! وأخذت تروي لي: "فهم مسؤول التنظيم الخاص للإخوان (عبد الرحمن السندي) إشارة

الإمام الشهيد بأن (الخازندار) القاضي الذي حكم على (سفاح الإسكندرية) قاتل عدد من الرجال والنساء، بحكم أخف مما قضى به على بعض المناضلين الذين ألقوا قنابل صوت على نادي ضباط الإنجليز، فأثاروا الرعب والهلع، دون أن يصيبوا أحدًا بخدش، بأن هذا القاضي يستحق القتل، ولعل الإشارة صادفت هوى في نفس (السندي)، فاعتبرها أمرًا واجب النفاذ، دون استيضاح أو توثيق! فكلّف بعض أعضاء النظام الخاص باغتيال القاضي (الخازندار). وتم اغتيال القاضي، والقبض على منفذي العملية، واجتمع الإمام الشهيد ثائرًا في قمة الغضب والانفعال، ومعه فقهاء الدعوة، بقيادة التنظيم الخاص، محقّقًا معهم في هذا الفعل الأهوج الشنيع، فلما تبين له حُسن نيّة وقصد (السندي)، وأنه تأول إشارة (الإمام) فأخطأ، من حيث أراد الصواب. حكم (الإمام) -كما قضيّت أنت اليوم- بأن القاضي (الخازندار) قُتل خطئًا، وكفّارة القتل الخطأ دية مسلّمة إلى أهله، والحكومة عوّضت أسرة القتيل وورثته مالًا كثيرًا من مال دافعي الضرائب، وهذا المال يفوق مقدار الدية الشرعية، فقد وصل ذوي الدم حقهم، والإخوان من جملة دافعي الضرائب للحكومة، وبالتالي ساهموا في دفع الدية وسقطت عنهم! ووجب عليهم الآن وضع خطة لتخليص الإخوة الذين نفّذوا عملية الاغتيال عن حُسن نية، وقد ظنوا أن (إمامهم الملهم) هو من أمرهم بذلك!) أثلجت (عزّة) بروايتها صدري، وهدّأت روعي، وأسعدت نفسي، حيث وافق حكمي شيئًا من حكم (الإمام الملهم)، وإن لم يصل إلى عبقرية حكمه الفذ! ونمت قرير العين، مرتاح الضمير!

*****

على أن استدعائي للتحكيم في مثل هذه الحالات الشائكة، كان جد نادر، فالأخطاء الداخلية دائمًا واردة، فلسنا ملائكة، غير أنها لم تكن على هذا القدر من الخطورة، كانت الإحصائيات الداخلية تصب بيدي. فكم كانت نسبة المدخنين، بين مئات الألوف من رجالنا وشبابنا؟! نسبة لا تُذكر، لم نسجّل بوضوح حالة إدمان أو تحرش، أو اغتصاب أو سرقة، بين تلك الجموع التي تُمثّل شريحة -تبدو- عشوائية من مجتمع يموج بتلك الموبقات! والصحابة رضوان الله عليهم في مجموعهم، وُجد بينهم الزاني، والسارقة، ثم المرتد، ويظلون إلى يوم الدين خير جيل طلعت عليه الشمس! فإياك أن تظلمنا بطلب كمال غير مُدرَك في عالم البشر، أو عصمة لا تكون لغير الأنبياء.

أحضر كذلك لقاءات في (مخيمات) و(معسكرات التصعيد) إلى المستويات التربوية المختلفة داخل الجماعة، و(التصعيد) هو المحطة الأهم دائمًا في عملية

التجنيد لمعسكر (التنظيم الحديدي). ربط الأفراد بالتنظيم لا بد أن يكون عبر ثقة لا محدودة في قوتها الهائلة، وقدرتها الفائقة اللا نهائية، فكنت إذا جلست بين الإخوان محاضرًا سألتهم ذاك السؤال الاستهلالي: (لماذا قدّم (الإمام الشهيد) ركن الفهم عن ركن الإخلاص في أركان بيعتنا العشرة؟!) نحن دعوة تتميز بعظيم الفهم، لا بكثرة العلم، فالعلم محفوظ في الكُتب، والعمل لهذا الدين لا يحتاج حفظة لكتاب الله، قدر ما يحتاج إلى قلوب تحيا بذات الكتاب الخالد. ولذلك قال تعالى "**ففَّهمْناها سُلَيْمان**". إن أول ثقة تتكون لدى فردنا عند التصعيد، هي الثقة المطلقة في المنهج الواعي الفاهم. فلسنا من حفظة المتون، وإنما ورثة فهم الأنبياء. والركن الثاني من أركان الثقة، هو الثقة في متانة التنظيم، متانة لا مثيل لها على وجه الأرض! ثم الثقة في القوة المتمثلة في الحجم الضخم، والقيادة الراشدة! فإذا اكتملت عناصر الثقة في قوة المنهج، وقوة التنظيم، وضخامة الحجم، وعبقرية القيادة، فأنت في دعوة لا تُغلب لأنها ربانية. ولا تسلني بعد ذلك عن العقبات والمحن، فإنها علامات ناصعة على سلامة الطريق، والابتلاء قدر الأنبياء والصالحين، فكلما اشتد البلاء، فأنت في رحاب الله، لا تقنط ولا تيأس ولا تسل عن زمن الفرج. "**حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِين**". وغايتنا قبل هذا وبعده واضحة، وسُبلنا معروفة منشورة في كل مكان. فإيّاك والشك في موعود الله! وإذا اشتدت المحن، لا تسل عن سلامة المنهج، ولا عن رُشد القيادة، ولا عن فاعلية الخطوات والأساليب، وإنما سل نفسك عن ذنوبك التي تؤخّر نصر الله! فما نزل بلاء إلا بذنب، ولا تأخر نصر إلا عقوبة!

*****

من شأن صديقي (الدبلوماسي) أن يُسمّي خلطتنا السحرية، بخلطة الدروشة، لكنه لن يفهم أبدًا أننا داخل الصف نعيش حالة توّحد مع سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وجيل القرآن الفريد. ألم يكن (الحبيب) صلى الله عليه وسلم، يحفر مع أصحابه الخندق، يربطون على بطونهم الحجر من شدة الجوع، لا يأمن أحدهم أن يذهب إلى الغائط فتّتلقفه سهام الأحزاب، و(النبي) –بأبي هو وأمي– يضرب الحجر فينبثق منه نور من شدة الضربة بالمعوَل، فيهتف: "الله أكبر، فُتحت فارس!"؟ ألم يبشّرهم أن الله مُتم عليهم هذا الأمر، وهم بين ظهراني المشركين، يسومونهم سوء العذاب؟ ناهيًا إياهم عن العجلة في الدعاء، "لكنكم قوم تستعجلون". كذلك نحن، نعيش في صف (النبي) وفي جنده، وفي ركابه. ننتظر الفتح أو أمرًا من عند الله. كنت في شوق إلى رؤية صديقي (الدبلوماسي)، لأرد إليه اتهامه لنا بالدروشة، فأسأله

سؤالًا واحدًا: (دونك الإخوان جميعًا، من ابتُلي منهم في سبيل دعوته، ومن سُجن أو حُوكم، أو صُودر ماله، أو ذاق العنت في عمله ورزقه، سلهم: هل رأيتم معية الله؟!) يا سيدي لو كنا دراويش أدعياء، ما رأينا ما رأيناه من معية الله!

رووا لنا –على سبيل التثبيت والتسرية– أنه لما اعتُقل الإخوان في عام (١٩٥٤) في السجن الحربي، جزع أحد الإخوة أشد الجزع، قائلًا: (تركت خلفي زوجة ضعيفة لا تملك من أمرها شيئًا، وطفلًا صغيرًا لم يبلغ سن المدرسة، وآخر أصغر منه، مريضًا محمومًا، فنتناوب أنا وأمه عليه السهر، واستبدال (كمّادات الماء البارد)، رجاء نزول درجة حرارته، وليس معنا مقابل الذهاب إلى عيادة الطبيب لتوقيع الكشف، ووصف الدواء! فمن لزوجتي ووليديها الآن؟!) ونقول في أنفسنا: (لهم الله). ولا ندري كيف ستكون معيّته سبحانه. ومرت سنوات عشر، وخرج الأخ المسكين، ثم جمعتنا الزنزانة في اعتقالات عام (١٩٦٥)، فوجدناه أثبت الإخوان قلبًا، وأربطهم جأشًا، وأعظمهم استبشارًا، رغم ما عانيناه جميعًا في حبسنا الأول! وسألناه في عجب: (ماذا فعل الله بزوجتك ووليديك؟!) قال والابتسامة الواثقة لا تفارق شفتيه: (أنعم الله تعالى عليهم بمعيته، فكانت أفضل مائة مرة من بقائي بينهم!)

–كيف ذاك؟

–ما إن مضى بي زوار الفجر، إلا وأقبل غريب، فطرق بابنا، وفتحت زوجتي ملتاعة، فإذا بطبيب يسأل عن الطفل المحموم، فأشارت دون وعي إلى غرفة الصغير، وكشف الطبيب على الصغير، ووصف الدواء، فلما وضع (وصفة الدواء) في كفِّها المقبوضة، تنبّهت إلى أنه لا مال لديها، وأنها ما كانت تحلم في وجودي أن يزور طفلها طبيب في المنزل! فلما أجهشت في البكاء، سأل الطبيب عن الحال، فروت له ما قد كان، فعرف أنه أخطأ في الطابق المقصود بزيارة الطفل المريض، فأقسم بحق الذي ساقه إليها في جوف الليل البهيم بلا طلب منها، ولا موعد، أن يتحمل تكاليف الدواء! فلما أصبح الصباح، نادت طفلنا الأكبر –وهو صغير– وأعطته قرشين، ليشتري إفطارًا من (فول وطعمية، وخبز) وأوصته بأن يحفظ القرشين جيدًا، فلا مال لنا بعدهما، وأبوك بين يدي الجلاد، ونفّذ الطفل وصية أُمّه، فلما كان بعتبة البيت تعثر في حجر، فسقط، وسقط منه (إناء الفول) فانسكب على الأرض، فظل جاثيًا بجواره يبكي، ومرّ أحد الجيران، فلما رأى حاله رقّ له، وسأله فأجاب، وكان الجار ميسورًا، فأقسم برب العزة ذو الجلال والإكرام، أن يهب الأسرة الصغيرة مقدار راتب الأب الأسير، حتى يُفرّج الله كربه!

ولمّا أتم الأخ روايته، كانت وجوهنا قد اغتسلت بدموع العِبرة، إنها معية الله، فهل بعد معيّته من شقاء؟! كنا نمازح هذا الأخ كلما اشتد بنا الكرب: (ماذا تركت لزوجتك وولديك من بعدك يا أخانا؟!) فيجيب مستبشرًا: (تركت لهم الله ورسوله)! ويُعقّب أحد العلماء في يقين: (سجنوا الأكّالين البطّالين، وبقي لعيالنا الرزاق ذو القوة المتين). وما حدث لأخينا صاحب تلك القصة في عام (١٩٥٤)، حدث لمئات منا في كل مرة أُبتلينا فيها في سبيل دعوتنا، كنا في معيّة الله، يُحدّثنا الأخ (إبراهيم الزعفراني) عن اعتقاله الأول في سجن الحضرة في العام (١٩٨١) ضمن إجراءات (سبتمبر الساداتية)، فيروي قصة مشابهة، وقد ترك خلفه طفلة صغيرة مريضة، لديها ضيق في التنفس، يجتهد بصفته طبيب –غير متخصص في حالتها– في إيجاد علاج يُسكّن آلامها، ويمنع اختناقها، فلما سُجن قلق عليها قلقًا شديدًا، فلما سُمح بالزيارة، وجاءته زوجته، هرع إليها يسألها: (ما بال الطفلة، وما فعل المرض بها؟) فملأت الضحكة وجهها وهي تجيب: (ما ظنك يا إبراهيم برجال أُخرجوا من ديارهم في سبيل الله؟! هل يُضيّع الله من يعولون؟!) وبكي إبراهيم من جزعه وثبات زوجه، فروت له أن الله تعالى قيّد لهم أكبر طبيب أطفال في (الإسكندرية) لعلاج ابنتهما ومتابعة حالها، لما علم بما أصاب والدها الذي كان طالبًا لديه في كلية الطب من قبل! إنها يا صديقي معية الله، فهل يهب الله معيته لغير أصحاب الطريق القويم؟! لسنا دراويش يا صديقي، لكننا في معيّة اللطيف الخبير!

*****

قدّم (الدكتور حامد عبد الماجد القويسي[٣١]) ورقته الأولى في النقد الذاتي، جاءني بها أحد الإخوة الشباب الذين يعملون (بسكرتارية) مكتب (المنيل). وضعها في أدب أمامي على المكتب. وكنت أطالع وردي اليومي في كتاب الله، فرفعت وجهي متسائلًا –ولم أكن أحب أن يقاطع أحد خلوتي مع كتاب الله– تنحنح الشاب معتذرًا وقال: (فضيلة المرشد طلب إبداء رأي عاجل في تلك الأوراق). نظرت إليها متطلّعًا، أكمل الفتى: (إنها أوراق في النقد الذاتي للدكتور (حامد القويسي)). قاطعته بحزم: (لا أفضّل هذا العنوان. (النقد الذاتي) ما رأيك أنت؟) بدا الحرج على وجهه الأبيض الوضيء، وغمغم بكلمات لا معنى لها. قلت: (أجمل منه (المراجعة الذاتية). لفظ المراجعة أجمل، وأكثر اتساقًا مع (الذاتية) من لفظ (النقد). ألا ترى ذلك معي يا أخ (أحمد)؟!.هل تعرف لماذا أكره مصطلح النقد؟) قال شيئًا ما عن علاقته بنقض الغزل، كالتي نقضت غزلها أنكاثا! رفعت كفي معترضًا، قلت عاتبًا: (يا قارئ القرآن

[٣١] - أستاذ العلوم السياسية

هذا نقض بالضاد. وذلك نقد، بالدال. عرفت الفرق الآن؟) أطرق خجلاً.. فأضفت: (النقد عملية تقويم مرتبطة بالحساب، كتقدير قيمة خدمة ما، أو تقويم مقابل سلعة بما يقابلها من نقود، لها جِرْس مادي صريح، ومصطلح النقد مقبول ولا ريب في مجال التربية. لكنني أفضل عليه مصطلح (المراجعة) في مجال الدعوة!) لا شك عندي أن (أحمد) لم يرَ في استرسالي هذا، إلا شقشقة لسان، أو استعراض ثقافة لا حاجة له بها! فكّرت –وهكذا كنت أراه دائمًا– لو أنني رُزقت بولد لأصبح الآن في عمر (أحمد) الذي كنت حريصًا على توجيهه توجيهًا لا يروق لأبناء جيله! رفعت كفي في إشارة له بالانصراف، أغلقت المصحف بعناية (شيخ)، وبدأت أقرأ ورقة الدكتور (عبد الماجد) النقدية. لفت انتباهي إشارته إلى شيء من هجرة التنظير والتأثير الفكري إلى الأطراف، إلى بلاد الشام والعراق، والمغرب العربي، تاركة القلب في القاهرة للعمل التنفيذي الإجرائي فقط! كنت أسمع مثل هذا الانتقاد كثيرًا ولا أفهمه! (الدكتور القويسي) دلّل على هذه الفرضية بأنه بعد (سيد قطب) لم يقدّم إخوان مصر رمزًا فكريًا في مكانته، واعتمد منهج الإخوان والتجديد الفكري لديهم على كتابات (سعيد حوا) من سوريا، و(فتحي يكن) في لبنان، و(الراشد) و(عبد الكريم زيدان) من العراق، (الغنوشي) تونس، (عبد السلام ياسين) في المغرب. وهكذا. وما ذكره (القويسي). على مسار الفكر، ناقشه معي عدد من قادة الإخوان بخصوص مسارات أخرى، حذّرني أحدهم قائلا: (نحن ننقل إلى جماعتنا ثقافات هي ابنة بيئة المجتمعات التي تُنتجها، نقلنا النشيد الجهادي المقاتل الذي يُنتج في فلسطين المحتلّة، وفي سوريا أثناء المواجهة المسلحة مع (حافظ الأسد) في (حماة). ليشكّل ثقافتنا الفنيّة، ووعينا النفسي والشعوري! كيف نُربّي شبابنا على التوازن النفسي والوسطيّة، وهو يتغذّى ليل نهار نفسيًا ومعنويًا على "سنخوض معاركنا معهم.... وسنمضي جموعًا نردعهم... ونُعيد الحق المغتصبَ.... وبكل القوة نردعهم!". لقد عانينا معاناة شديدة عندما أصدرنا بياناتنا الرافضة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر. لأن الشباب رفضوا تلك الثنائية النفسية والثقافية التي نتعامل بها. نتركهم لأوهام وأحلام جهادية، ثم نكبت أحلامهم في أوج ذروتها، ليفيقوا على واقع مغاير تمامًا!). لا شك أن هذا الحديث أصابني بصدمة، فرغم كوني مشرفًا على الأقسام، ومن بينها قسم التربية، لم أفطن إلى تلك الإشكالية النفسية من قبل، حاولت مداراة صدمتي، فقلت مهوّنًا من خطورة التحذير: (الجهاد ليس مقصورًا على القتال، وإنما الدعوة كلها جهاد، ونحن نمارسه هنا في مصر على أفضل ما يكون...) قاطعني في غير لباقة: (المسارات النفسية والتربوية

التي يعيش فيها شبابنا، تفصمه عن الواقع بشدة. إن شبابنا غير وطني على المستوى النفسي والشعوري!) وهاج الجالسون معنا، وارتفعت أصواتهم احتجاجًا على وَسْمه لشباب الإخوان بعدم الوطنية. ظلّ الرجل صامدًا متماسكًا، حتى هدأت عاصفة الاحتجاج، قال: (أتحدّث على المستوى النفسي والمعنوي، لا أقصد أنهم جواسيس أو خوَنة أو عملاء. ولكن أتحدث على مستوى الانتماء العاطفي والشعوري، وعلى مستوى وجود قضية وطنية محلية يعملون لأجلها. شبابنا يعمل لقضايا كثيرة أُمميّة هامة، كفلسطين والعراق والبوسنة والشيشان والصومال، أين القضيّة الوطنيّة التي تجعل لمصر في نفوسهم الأولوية والحُب والشعور بالانتماء؟!) منا من عقّب، ومنا من رفض، ومنا من تفلسف. وكنت أتحسس رأسي! فلم تكن أزمة "طُز في مصر" التي تفوّه بها الأستاذ (مهدي عاكف) في مواجهة أسئلة صحفي عنيد، عنا ببعيد. فآثرت السلامة بالصمت، لم أُرد أن يُذكّرنا بها المتحدث، ونُعيد كَرّة النقاش فيها من جديد!

*****

سألتني (عزّة) وهي تهدهدني في الفراش كعادتها: (ماذا بك حبيبي؟ شيء ما بداخلك تغيّر؟! لم تعد هذا الرجل الذي إذا دخل بيته ولقي حبيبته التي تنتظره على نار الشوق يرمي همومه وأشغاله وفكره خلف ظهره، ويعيش لي أنا وحدي...) استوعبت عتابها الرقيق، نظرت إليها نظرة فيها ندم، وفيها اعتذار، مسّدت شعر رأسي بحنان، ومرّرت كفها على جبهتي حتى أغلقت عيني المعتذرتين، بأناملها. وأردفت في رفق: (أنا لا ألومك حبيبي. أنا أشفق عليك. أريد أن تشركني في هذا الهم الذي استبد بك) اعتدلت على الفراش رافعًا نصفي الأعلى، مسندًا رأسي إلى ظهر السرير، وهممت بالكلام، قاطعتني في دلال قبل أن أبدأ: (أرأيت؟ هل كنت تنتظر مني سؤالًا حتى تتحفز للإفضاء بما لديك؟!) قلت في توتّر وإن خرجت كلماتي بصوت هامس بارد لا حياة فيه: (إنها مشكلة معقّدة، وحسّاسة، ومتشابكة. إلى الحد الذي يجعلني أهرب من محاولة التفكير فيها؟!) عاتبتني نظرتها، ابتسمت في رقّة قبل أن تقول في زهو: (معقّدة حتى على أكبر أستاذة فلسفة في مصر والوطن العربي؟!) ضحكتْ في بساطة تغريني بالمضي في الحديث، ثم أردفتْ: (اتفقنا منذ زمن يا حبيبي أنه إذا أرقتْك مشكلة فلا تهرب منها، وإنما هاجمها بقوة. فكلما هربتَ من التفكير فيها، حاصرتك وضيّقت عليك الخناق، وكلما تقدّمت لمواجهتها فرّت هي منك حتى تتلاشى في الفراغ!) تمتمتُ بيني وبين نفسي متسائلًا: (كيف يتلاشى في الفراغ شخوص من لحم ودم؟!) لم تعطني فرصة أطول للمراوغة، سألتْ: (هل هو سر من أسرار التنظيم،

لا يمكنك ائتماني عليه؟!) نحيّتُ هذه الفكرة بحركة من كفي. وقلت في اندفاع: (الجماعة مخترَقة يا زوجتي الحبيبة!) رأيت حاجبيها يرتفعان في دهشة ممزوجة باستخفاف مضحك مبكي! سألتْ في استهانة: (وهل هذا أمر جديد؟ هل هو موقف جلل معرفتك بأن الجماعة مخترقة؟! كم عدد المرات التي رفعتم فيها كاميرات التسجيل الدقيقة (للصوت والصورة) من أسقُف وأدوات المكاتب في (التوفيقية) و(المنيل)، وغيرها من مقرات الاجتماعات الدورية؟ ووجود ضُبّاط اتصال من داخل صفوف قيادة العمل النقابي والمهني، كلها وقائع ثابتة لا تجعلك تكتئب إذا اكتشفت اختراقًا جديدًا، أيًا كان مستواه!)

–أنتِ على حق تمامًا عند الحديث عن الاختراق على المستوى الأمني أو المخابراتي. هذا أمر ألفناه، ونتعامل معه طيلة الوقت. ونوظّفه لصالحنا أحيانًا، فنرسل رسائلَ معيّنة للنظام عبر عناصر الاختراق التي نشمُّها عن بعد، والتي تظن أنها نجحت في تضليلنا.

– ما الجديد الذي يزعجك إلى هذا الحد إذن؟!

ضيّقتُ عينيّ وأخذت برهة أفكّر في تركيز عميق، وأنتقي الكلمات التي أجيب بها، قبل أن أقول: (هذا الاختراق الذي أحدّثك عنه، اختراق من نوع جديد وخطير. إنه ليس اختراقًا أمنيًا، إنه اختراق فكري، يعبث في بنية التنظيم وعقليته وفكره. إنه نوع من بث أفكار من شأنها أن تُشظّي التنظيم إلى مجموعة كبيرة من الجُزر المنعزلة في وقت قريب!) لم تَصدمها رؤيتي المتشائمة، على العكس ظلّت رابطة الجأش هادئة بشكل يثير الإعجاب، قالت: (دائمًا نتناقش عن الاختلافات الفكرية بين قادة الجماعة، ودائمًا نصل إلى نتيجة مؤدّاها أن الجماعة كيان كبير يحتوي على مدارس فكرية ورؤى مختلفة، في الفكر والمذهب والإدارة. ونتفق على أن هذا التنوع دليل قوة. صمام أمان، وعامل من عوامل المرونة والمناورة) قلت في قلق حقيقي: (أتفق معك. ذلك في وجود ضابطيْن اثنين، أولهما سيطرة فكرة التنظيم القوي. (التنظيم الحديدي) –إن جاز التعبير– على الوضع. وثانيهما أن يحترم أصحاب الرؤى المتباينة أدبيات الاختلاف التي نجحنا في إقرارها عبر تاريخ الجماعة. فبمجرد التصويت على رأيين، يتبنّى الجميع الموافق والمعارض. الرأي الحائز على الأغلبية، ولو خالف رؤيته وهواه!) سكتُ برهة ألتقط أنفاسي، ثم زفرت زفرة طويلة قبل أن أكمل: (الآن يا سيدتي انهار الضابطان معا. فقدنا القدرة على السيطرة الحديدية، كما سيطرت على أصحاب الرؤى المغايرة، فكرة نشر حراك فكري تنويري داخل صفوف التنظيم، مستغلين في

ذلك الثورة الإعلامية التي تجتاح العالم، فوسائل التواصل عبر الانترنت والفضائيات، تتيح لكل واحد أن يُصدّر فكره للناس!)

–لا تنسَ حبيبي أن أفراد التنظيم لا يقتنعون ولا يتحرّكون أبدًا، إلا عن طريق الرسائل التي تصلهم عبر وسائل الاتصال التقليدية، وأن المرشد العام لأي أسرة تربوية تنظيمية، هو في الواقع (نقيب الأسرة). فلو أعلن المرشد العام بيانًا للإعلام، وعقّب عليه (نقيب الأسرة) بأنه بيان للاستهلاك الإعلامي، أو أنه قصد منه معنى آخر غير المعنى الظاهر، فإنهم يُكذّبون عيونهم وآذانهم، ويصدّقون (النقيب)!

ضربتُ ظهر يدي بكف يدي الأخرى في عصبية، قلت: (وهنا بيت القصيد. ولاءات هؤلاء النُقباء والقيَادات الوسيطة أيضًا باتت موَزّعة على مراكز القوى المختلفة في مكتب الإرشاد وقيادات الجماعة. (أبو الفتوح) له وزن وثقل. (العريان) أيضًا له وزنه وثقله وجاذبية أطروحاته، (الزعفراني) كذلك. وهكذا) مطّت (عزّة) شفتيها، وقالت بعد تفكير: (أشك...) قلت حانقا: (منذ سنوات أطلق (أبو الفتوح) قذيفته عبر موقع (ملتقى الإخوان)، وهو كما تعلمين موقع إنترنت يلتقي فيه مئات الألوف من شباب الإخوان حول العالم، قال: (من حق صاحب الرأي أو الفكرة المخالفة التي لم تحظَ بأغلبية أصوات الإخوة عند التصويت، أن ينشر فكرته بين أفراد الجماعة، وأن يدعو لها ويشرحها، ويدافع عنها. حتى إذا حان استحقاق التصويت التالي، يصبح للفكرة التي حظيَت بالأقلية ذات مرة وزنًا وبريقًا عند التصويت الجديد!). برقت عينا (عزّة). فكرّتْ لبضع ثوان، ووضح أن الفكرة راقتها، قالت متأمّلة: (منطقه أقرب لروح الشورى والديموقراطية. وهو الضمان الوحيد للتطوير والتغيير!) (عزّة) متأثّرة بالفكر الجديد المنتشر عبر الإنترنت، فهي إحدى الناشطات في ذات (الملتقى) الذي أشرت إليه. قلت في انفعال: (هذا بالضبط ما لا نريده. هذا ما نخشاه. فلو تركنا الجماعة لعبث أفكار هؤلاء لتمّ تدميرها منذ عقود) لاحظتُ صمتها المتردّد، لا تُحب مخالفتي الرأي عندما تراني منفعلا، كنت واثقًا أنها تميل إلى رأي الآخرين، باغتُها بسؤال بدا بسيطًا: (هل تدركين سر قوة الجماعة الحقيقي يا حبيبتي؟!) رفعت بصرها إليّ، كأنها تستنكر السؤال، أجابت هامسة كأنها تحدّث نفسها: (قوتها في أفكارها، وقدرتها على تجاوز أي خلاف من أي نوع عبر سلاح الحب والأخوّة) قاطعتها في قسوة لم تعتدها مني: (قوّتها في تنظيمها العسكري غير المسلّح! لو اهتز هذا التنظيم الدقيق المُصمت تحت أي عامل من العوامل، تنهار الجماعة وتتشظّى. ثقي في كلمتي هذه يا حبيبتي. فأنا أعلم يقينًا عمّا أحدّثك عنه!) قالت (عزّة) بعد فترة تأمل، وقد أدركت أنها لم تُزل عني همومي، فمحاولتها لفرض الاسترخاء بلباقة على أعصابي المتوتّرة باءت

بالفشل، وتحوّلت إلى مبارزة فكرية مكتومة. (كل هذا الأمر لا يعدو أن يكون أفكارًا مجرّدة، لم يتحول إلى إجراءات مُخيفة إلى الحد الذي يثير مخاوف حبيبي الرائع) عرضت وجهة نظرها الخاصة تلك بأكثر الأساليب لباقة ورقّة، وهي تداعب شعري، ومقدّمة رأسي. لم أملك جسارة كسر قلبها بإبعاد كفها الرقيقة عن العبث برأسي، حتى وأنا أناقش أبلغ الأمور صعوبة وأشدها تعقيدًا. قلت في تبرّم لا يناسب حالة الاسترخاء الذي تفرضه علي: (لا يا سيدتي. بل حوّلوا أفكارهم إلى خطوات إجرائية. بعضها يمكن اعتباره خطوات استباقية للمزايدة على القيادة الشرعية للجماعة. وبعضها يضعنا في حرج بالغ أمام قواعدنا وأمام الرأي العام! خُذي عندك على سبيل المثال. زيارة (أبو الفتوح) لـ(نجيب محفوظ)، والثناء على إنتاجه الأدبي، ومنه رواية (أولاد حارتنا) التي منع الأزهر نشرها! وسخريّته من إنتاج أخينا (الدكتور جابر قميحة)، ووصفه فكر (الشهيد سيد قطب) بأنه نتاج السجون والتعذيب! حتى مهاجمة الشيخ (فتح الله سعيد[٣٢]) له على منبر مسجده بمدينة نصر في خطبة الجمعة، هو الآخر تصرف فردي يزيد الطين بلّة!) سكتُ لحظة ألتقط فيها أنفاسي، و(عزّة) تنتظر سرد بقية الأمثلة في اهتمام، أضفت: (الموقف الاستباقي الذي أعلنته اللجنة السياسية برئاسة (عصام العريان) لبرنامج الحزب، دون الانتظار للشكل النهائي للبرنامج بعد مراجعة اللجنة الأخرى التي يرأسها (الدكتور مرسي). وقبل اعتماد فقهاء الجماعة، مما وضعنا في حرج بالغ أمام الرأي العام! وجعل كل من هبّ ودب يتحدّث عن اختلافات بين الشباب والشيوخ. وكلام من هذا القبيل) فرغ صبر (عزّة)، فقالت: (الخطأ الأساسي هو وجود لجنتين منفصلتين للقيام بمهمة واحدة هي برنامج الحزب دون التنسيق بينهما!) تجاوزتُ اعتراضها الشكلي، ومضيتُ قائلا: (فضيلة (الشيخ القرضاوي) خرج علينا برأي صادم من خلال نشر مذكراته حول (سيد قطب)! ماذا نقول لقواعدنا التنظيمية ونحن نُدرج فكر (سيد قطب) كمرجع أساسي بعد رسائل (الإمام البنا) في مناهج التربية؟! هل ننصر رأي العلامة (القرضاوي) على ما نعتمد عليه في برامجنا التربوية، أم نقول لهم أن اجتهاد الشيخ الجليل لا يُؤبه له ولا يُؤخذ به؟!) رفعتُ رأسي وواجهت عينيها المتسائلتين بنظرة تحدٍ ثابتة، ثم استطردت: ((العريان) ينشر بحثًا مطوّلًا أسماه (جُردة حساب) لا أدري من أين حصل على عنوان مثل هذا! يدعو فيه صراحة إلى تفكيك التنظيم، وجعله مدرسة يتخرّج فيها المبدعون في كافة المجالات، ليعمل كل في تخصصه. ما هذا السخف الذي ينشره

[٣٢] - الشيخ عبد الستار فتح الله سعيد من علماء الأزهر ودعاة الإخوان

هؤلاء؟!) اتسعت عيناها على آخرهما، وهي تتابع انفعالي المتزايد من استعراض مثل إلى آخر. أضفت ونبرة صوتي ترتفع تدريجيًا: (أخونا (الزعفراني) يعمل على إنشاء العديد من مؤسسات المجتمع المدني المستقلّة عنا بلا رابط ولا ضابط. حتى أُضطر عضو مكتب الإرشاد أن يصف مركز (ضحايا لحقوق الإنسان). بأنه مركز ضرار، وعلى الإخوان تجنّب التعامل معه! الرجل معذور، لقد شارك (الزعفراني) في المركز الأخ الاسكندراني المتمرّد مدير (البوفيه) في نادي الأطباء (هيثم أبو خليل)!) أخذت (عزّة) تضغط أكثر على جبهتي، تحذّرني بلطف من زيادة الانفعال، قلت في حدّة، رغم كل محاولاتها: (حتى الأستاذ المرشد[٣٣]. يظن أن من حقه أن يكسب لنفسه مجدًا شخصيًا! يريد أن يترك منصبه وهو على قيْد الحياة، ليجعل من نفسه أنموذجًا. هذا كلام فارغ، فالمرشد ليس ملك نفسه، إنه ملك التنظيم. وعندما يقرر التنظيم أنه في حاجة إلى بقائه، فعليه أن يظل في مكانه دون نقاش، ودون تصريحات عنترية لا طائل من ورائها!). انبهرتْ أنفاسي بعد هذه الخطبة المطوَّلة. تمسّكت (عزّة) بمحاولاتها المستميتة لتهدئة ثائرتي. قالت في لطف: (هوّن عليك يا حبيبي. إنها سُنّة الحياة، فهي تتطور وتتقدم، ولا تظل على حال واحدة. لكن ثق في الله تعالى، هذه دعوة ربانية، والله تعالى لن يضيّعها!) زفرتُ بشدة، فلم تعد ترضيني مثل هذه الإجابات المُسكّنة. أريد إجراءات حاسمة لاقتلاع جذور الفتنة. خطورة هؤلاء أنهم يملكون نفس الأوراق التي نملكها في مواجهة قواعدنا. لقد أكبرناهم في عيون قواعد الجماعة، حتى ظنّوا أنهم منافسون لنا في التأثير. لكننا ما زلنا نملك مصادر قوة لا يخطر ببالهم مجرد خاطر أننا نملكها! وقريبًا نحسم الأمور حسما نهائيًا. ويبدو أنني نمت فجأة فلم أجد لأفكاري بعد ذلك صدى!

---

[٣٣] - محمد مهدي عاكف المرشد السابع للإخوان

في تاريخ غير بعيد عن هذه الأمسية القلقة، عُقد الاجتماع الدوري لممثّلي المخابرات العالمية على مستوى قيادات (الصف الثاني). بدا البِشر واضحًا على المجتمعين. جميعهم متخصصون في شأن تنظيم الإخوان وملف الإسلام السياسي. قال أوسطهم بإنجليزية يغلب عليها لكنة أمريكية: (تخلّصنا من الإصلاحيين تمامًا وبضربة واحدة. رجُلنا "شجرة الهالوك" البارعة المنغرسة في وسط القيادة. أوعز لمستر (عزت)، فأعلن عن إجراء انتخابات حاسمة) فرقع بإصبعيه وهو يضيف ضاحكًا: (وفي أقل من ست وثلاثين ساعة كان الراديكاليون يسيْطرون على كل شيء. خرج (أبو الفتوح) وتمت الإطاحة بـ(عاكف) الإصلاحي النزِق. و(حبيب) النائب الفيلسوف! إننا نتمكن الآن من رقبتهم كلما اقترب الصقور من تنفيذ حلمهم المدمّر!)

أجابه صوت بارد: (هُراء. حلّ (العريان) محل (أبو الفتوح). وهو لا يقل عنه خطورة) قاطعه الأول: (أشاطرك الرأي، (دكتور عريان) يملك أفكارًا إصلاحية وتطويرية رائدة فعلا. دعني أقول لك سيدي أن العريان يملك أفكارًا أكثر رصانة من (أبو الفتوح). لكن سماته الشخصية تختلف. لا يملك الكاريزما التي تؤهله لقلب الطاولة فوق رؤوس صقورنا هناك!) عقّب آخر: (العريان سيحاول كثيرًا لكنه في النهاية سيستسلم لماكينة التنظيم الهائلة، فهي قادرة على فرض إرادتها. وسيزايد على تطرّفها ورجعيّتها ليلعب على مشاعر قواعدهم. وسينتهي دوره تمامًا. هذا سيحدث قريبًا جدًا. ثقوا في كلمتي تلك!)

*****

وصلني من مكتب إخوان البحيرة تقريرًا يتهم المهندس (محسن القويعي)، بأنه يفتح بيته مقر إرصادٍ لمن حارب دعوة الله ورسوله، يلتقي أسبوعيًّا برجال نزعوا من أعناقهم البيعة وفارقوا الجماعة!

أعرف صلابة رأس وفكر (القويعي)، الرجل ببساطة شديدة، لا يرى الخروج من عباءة التنظيم، كبيرة دينية، ولا جُرمًا فكريًا، الأمر لا يعدو لديه سوى اجتهاد لنشر الخير والعمل التطوّعي لخدمة المجتمع، غير مقصور على جماعة بعينها ولا تيار بذاته! ويطبّق مفهوم (نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه)، تطبيقًا مفتوحًا بلا حدود فاصلة. لا أُنكر أن هذا التطبيق لما يسميه بـ(القاعدة الذهبية)

أكسبه كثيرًا من الصداقات في أوساط مختلف التيّارات الوطنية، فأصبح عضوًا مؤسسًا في كل جبهة أو حركة ناشئة أو فرعًا من فروعها في محافظته، إلا أنني لا أُحبّ (تمييع القضايا). نحن حركة إسلامية عالمية جامعة، ولسنا معنيين فحسب بالإصلاح الوطني الداخلي. هكذا أصبح (القويعي) يمثل قاعدة انطلاق أخرى في محافظة البحيرة لهؤلاء الذين أصفهم تأدبًا بـ(المغردين خارج السرب)! المشكلة لم تعد تكمن في أخ هنا أو هناك. المشكلة أن أفكار هؤلاء باتت تتطاير وتنتشر وتتصدّى لفكرة (عسكرة الدعوة)!

واهتديت إلى فكرة نقل ما يدور في اجتماعات هؤلاء. وكانوا على النقيض منا، فهم أكثر الإخوان تهاونًا في تطبيق الاحتياطات الأمنية، وأفكارهم معلنة ومنتشرة في كل مكان. فعلمت أن رهانهم مُنصّب على عدم قدرتنا على (عسكرة الدعوة) في زمن (الفضائيات والانترنت)، فالعصر عصر انفتاح، والتجارب الدعوية والسياسية والاجتماعية من حولنا تتسارع كلها ضد فكرة التنظيمات الشمولية المغلقة، والأنظمة الشمولية الاستبدادية الحاكمة. فهم يروْن المستقبل لحركات خفيفة سريعة الحركة قليلة العدد، قوية التأثير من أمثال (٦ إبريل) على المستوى السياسي، ويرون لتجربة (عمرو خالد) وما يسمونه بمدرسة (الدعاة الجدد). ومؤسسة (رسالة) على المستويين الدعوي والخيري، مستقبلًا أكبر من مستقبل التنظيم! وبتُّ أثق أنهم ذوو ميول انفصالية استقلالية واضحة!

*****

لم تكن الانتخابات البرلمانية التي أُجريت في أواخر عام (٢٠١٠) ذات أهمية كبرى، حيث توقعنا نتائجها مسبقًا. وقد قررنا خوضها رغم إعلان أغلب أحزاب المعارضة مقاطعتها؛ لفضح ممارسات النظام الاستبدادي الغاشم. كسبنا الرهان، وتحوّلت تلك الانتخابات التي رقص لنتيجتها أباطرة (الحزب الوطني)، حيث لم ينجح أحد من خارجهم، إلى المسمار الأخير في نعش النظام برمّته! دعهم يحدّثونك عن قضية (خالد سعيد) و(سيد بلال)، وغيرهما من شهداء التعذيب على أيدي زبانية الداخلية. لكن ثق في كلمتي، شهداء التعذيب لا يصنعون ثورة. الذي عجّل بصناعة مشهد يناير هو الانسداد السياسي التام الذي كشفنا سوءته بخوضنا الانتخابات البرلمانية رغم أنف الجميع!

*****

بعد شهر ونصف فقط من إعلان نتائج تلك الانتخابات اندلعت ثورة يناير! لا أدّعي أن تلك الثورة كانت من صناعتنا، ولا إعدادنا، حيث ارتهن نجاحها بعاملين

أساسيين، نجاح ثورة الياسمين في (تونس)، ورهان المجلس العسكري على نزول الشعب إلى الشارع لحسم مشهد النهاية!

تعرّى النظام في انتخابات (ديسمبر ٢٠١٠)، لكنه بدا في أوج تبجحه وعنفوانه وغروره. وظهرت المعارضة السياسية في أضعف صورها على الإطلاق، وبدا أن الشباب كفر بكل الساسة حكومة ومعارضة، وقرّروا خوض غمار اللعبة بأنفسهم رافعين شعار (بيدي لا بيد عمرو)، وراهنوا على التراكم الذي يحدثه تواصلهم الاجتماعي وحراكهم الجريء على صفحات مثل (خالد سعيد)، واستعدادهم للخروج إلى الشارع دون غطاء سياسي من التيارات التقليدية. أدركنا كل ذلك، وقبلنا به، فالتطور في قواعد اللعبة السياسية لا يسوءنا، ومنتهى طموح الجميع صُنع حراك شبابي رافض يطيح بوزير الداخلية (حبيب العادلي)، ويعلن خليفته في الوزارة تحسين ممارسات الشرطة مع الشعب. وهذا هو أعظم ما نَصْبُوا إليه! واشتعلت احتجاجات تونس؛ فألهبت حماسة الشباب. وهرب (زين العابدين بن علي)، معلنًا تحول الاحتجاجات الشعبية إلى ثورة ناجحة! وتساءل الشباب: (ولمَ لا؟!) لم تمر سوى أيام على نجاح ثورة (الياسمين) التونسية في إزاحة حكم (الديكتاتور)، حتى كانت دعوات النزول للاحتجاج في اليوم الذي اقترحته صفحة (خالد سعيد) على (الفيس بوك) تتزايد وتتصاعد وتيرتها، والأجواء تفاؤلية لدى الشباب، وشعرنا أننا في مأزق حقيقي وكبير، ودعوْنا إلى اجتماع عاجل في بداية الأسبوع التالي مباشرة لرحيل (بن علي)، وقبل ثلاثة أيام فقط من الموعد المضروب للاحتجاجات، كانت الوقفات الاحتجاجية الفئوية، والمطالبات الاجتماعية قد بلغت مداها، وبدأ بعض الأفراد هنا وهناك يقلّدون (البوعزيزي) الشاب التونسي، فيشعلون النار في أنفسهم احتجاجًا على سوء الأوضاع المعيشية، ولم أكن شخصيًا قد قرأت عن شيء مثل هذا من قبل إلا في رواية أدبية قرأتها لي (عزّة) قبل النوم، تسلّيني بها، للكاتب الصحفي (إبراهيم عيسى)، اسمها (مقتل الرجل الكبير!) تحدّث خلالها عن ارتفاع أسعار (الجاز) الذي بدأ المواطنون استخدامه لإشعال النار في أجسادهم أمام البرلمان احتجاجًا على سوء الحال!

في المقابل بدأت استجابة إعلام النظام لتلك الدعوات تتبلور مصاغة في عبارة: "مصر مش تونس". وكانت سببًا أكبر في انتشار روح الغضب والتحدي بين الشباب!

في تلك الأجواء المضطربة الحذرة التقينا، ولا أنكر أننا جميعًا استبشرنا بالتطوّرات على الساحة التونسية، وعودة الصديق (راشد الغنوشي) إلى عاصمة بلاده

بعد عقدين قضاهما في المنفى! لكننا أيضًا كنا في حالة توتر وارتباك. سألتُ في انفعال بالغ: (هل قرأتم تصريح الدكتور (عصام العريان) في الإعلام عند سؤاله عن رأيه في دعوات الخروج يوم ٢٥ يناير القادم؟) أجابني أحدهم: (قال الرجل: "مصر ليست تونس، وعلى كل مجتمع أن يُبدع أدوات نضاله بنفسه، لتكون انعكاسًا لظروفه وبيئته"!) قلت وأنا ما زلت منفعلًا: (ألا يوجد لدينا نوع من الكياسة؟! شيء من الحصافة السياسية والإعلامية؟!) سألوني: (ما رأيك أنت يا دكتور محمد؟!) أجلت نظري في الجالسين، كنا أربعة أو خمسة من فريق (عسكرة الدعوة) من أعضاء مكتب الإرشاد، أخذت وقتًا في التفكير، وأجبت في ضيق: (لا نقول شيئًا على الإطلاق. الوضع في غاية الحرج. وعلينا ألا نضع أنفسنا بين مطرقة الشباب المُحتج، وسندان النظام المرعوب!) تعالت الاحتجاجات وارتفعت الأصوات متجاوزة حد اللياقة، سمعت شيئًا عن الموقف المتخاذل الذي يذكّر الناس بموقفنا من إضراب (٦ إبريل ٢٠٠٨) وسأل أحدهم كأنه أراد أن يتفل على اقتراحي: (كيف يمكننا أن نحتفظ بتصريحاتنا؟ نحن الآن قبلة الإعلام والسياسيين، وقواعدنا. الجميع ينتظر كلمتنا، وسقف التوقعات والطموحات ارتفع إلى أقصى حد بعد هروب (زين الهاربين بن علي)!) قلت ببرود: (لهذه الأسباب بالذات أدعوكم إلى إغلاق هواتفكم والاختفاء عن الأنظار هذه الأيام الأربعة. لا تورّطوا أنفسكم، ولا تورّطونا معكم في دعوات احتجاجية لا نعرف لها أولًا من آخر!) هتف أخ: (هذه فرصتنا. نجحت الثورة الشعبية في تونس. وستنجح ثورتنا في مصر!) نظرنا إليه مليا مؤنّبين على تسرّعه في الحُكم، قلت: (ومن أدراك أن ثورة تونس نجحت؟! كل الذي حدث حتى الآن هو هروب الرجل الخَرِف تاركًا الحُكم. فإلى من تؤول السلطة؟ من سيوجّه ويتحكّم في الثورة ومآلاتها؟ من سيوّجه الأحداث في تونس؟ لا أحد يعرف للآن. إن أي انتكاسة هناك ستعدم فرصة الشعوب في تكرار المحاولة. لا أريد أن يتوَرّط أحد ويصرح بأن ثورة تونس نجحت. ثورة تونس لم تنجح بعد!) وقال حكيمنا متأمّلًا: (الوضع الآن على المحك. سأدعوكم الآن إخواني إلى رحلة في عالم المستقبل القريب. أغمضوا أعينكم معي وتأمّلوا.. سأتولّى إرشادكم خلال الرحلة!!) عقّبت: (نوع من العصف الذهني). أجابني ببرود: (ربما. أريد أمرًا أكبر من ذلك قليلًا. أريد اصطحابكم في رحلة عبر الزمن. أريدكم أن تبصروا الغيب بفراسة المؤمن!) نفّذنا اقتراحه، استرخى كل منا في جلسته، مسندًا رأسه إلى مسند مقعده، وأغلق عينيه، وتركناه يعلّق لنا على الرحلة كمرشد سياحي! مرّت لحظات صمت قبل أن يقول: (سينزل الشباب بكثافة إلى ميدان التحرير مدفوعين بفكرة حالمة رومانسية تسيْطر عليهم جميعًا: (لسنا أقل من شباب تونس). ستبدو أقرب إلى

منافسة في مباراة في كرة القدم، وستفرغ وزارة الداخلية وسائل قمعها جميعًا، فالمعركة في الأساس معركتها، والداخلية لن تقاتل باستماتة من أجل النظام ككل، بقدر قتالها لبقاء امتيازاتها المطلقة، وهذا هو مدلول اختيار يوم الشرطة السنوي للإعلان عن اندلاع الاحتجاجات. قد يصمد الشباب.. وأراهم الآن يصمدون بعد تقديم المئات من الشهداء والضحايا. حسنًا سيصمدون. معنى هذا أن وزارة الداخلية –مؤسسة البطش الرسميّة والحصريّة– ستعلن انكسارها وخروجها من المشهد. الآن وصلت الأخبار إلى رأس النظام أن داخليته انهارت وسقطت أمام اجتياح الثورة. ماذا في جعبة الرجل العنيد أن يفعل الآن؟!) صمت لحظات، ثم هتف: (أريدكم أن تعودوا بذاكرتكم إلى الماضي، بالتحديد إلى ثورة الخبز في مثل أيامنا هذه من شهر يناير عام(١٩٧٧). وإلى يوم (٢٥ فبراير عام١٩٨٥) يوم انتفاضة الأمن المركزي. هل تذكرون؟ في كلتا الحالتين استدعى رأس النظام –مع تغيير الاسم– الجيش للنزول للشارع وقمع الثوار. في حالتنا هذه سيراهن كلا الفريقين: فريق (مبارك)، وفريق الثوار على الجيش. ويفرض السؤال نفسه: إلى أي الفريقين سينحاز الجيش؟! الآن يا سادة افتحوا أعينكم وأجيبوا على هذا السؤال: في تقديركم إلى أي الفريقين سينحاز الجيش؟) أخذنا وقتنا تمامًا ثم أجبنا واحدًا فآخر بالترتيب، وانقسمت آراؤنا بالتساوي بين الخياريْن. هتف الحكيم: (إما أن ينحاز الجيش إلى الرئيس ويقرر سحق الثوار في مذبحة بشعة، فهل ترون أنه بعد انفضاض السامر سيترك فلول الثوار، والمحرّضين عليها، والمشاركين فيها في حالهم يجرّون أذيال خيبتهم، ويلملمون شعثهم؟ أم سيواصل ملاحقتهم والقضاء عليهم في سجون النظام؟! دعونا ننتقل إلى الاختيار الآخر الوردي الحالم، أن ينحاز الجيش إلى الثوار، وهنا يتحول الوضع إلى انقلاب عسكري! الانقلاب العسكري لن يتحمّل معه شريكًا مدنيًّا، فسيطيح بالثوار الذين مهّدوا له الطريق. فأي الخيارين تختارون أيها الإخوان؟!) هممنا بالاحتجاج، وسرَت همهمات عن الآمال العراض في ثورة شعبية، قمَعَنا الحكيم فجذبنا بعنف إلى الواقع: (يا إخوة لا ثورة شعبية في مجتمع مهترئ المؤسسات. نحن دولة بلا مجتمع مدني. من يحكم بعد انهيار النظام؟ هل توجد أحزاب غير تلك الكرتونية التي نعرفها خير المعرفة. يا سادة لا يوجد في هذه الدولة قوّة منظّمة متماسكة إلا الجيش؟!) هتف أحدنا: (الإخوان هم القوة الشعبية الوحيدة المنظمة القادرة...) مرة أخرى يقمعنا الحكيم، قاطعه في برود قاسٍ متسائلًا: (قادرة علامَ سيدي؟! القوة المنظمة الوحيدة القادرة، لم تستطع منذ شهر فائت تغيير نتيجة مقعد واحد في الانتخابات البرلمانية. اعرفوا حجمكم يا إخوة حتى

لا تُغرقوا الدعوة معكم) قلت متأملاً: (إذن الثوار مطحونون في كل الأحوال سواء فشلوا أو نجحوا؟!) سألني حكيمنا: (هل ترى غير ذلك؟!) صمتُ لا أحري جوابا. سأل أحدنا: (ماذا علينا أن نفعل إزاء هذه الدعوات؟ وماذا يكون موقفنا إذا ركب الشباب رأسهم؟ وكيف سنواجه شبابنا في الجماعة، إن قررنا عدم المشاركة؟!). مرّت لحظات صمت حرجة، هتف بعدها أحدهم: (نشارك مشاركة رمزيّة. فإذا بحث عنا الشباب الثائر لا يفتقودننا جميعًا. وإذا بحث عنا النظام لا يجدنا نلقي بثقلنا في الاحتجاجات!) فجأة برزت الفكرة أمامي كما يبرق ضوء البرق المبهر الخاطف، هتفت في حبور متسائلًا: (من الذي دعا إلى احتجاجات ٢٥ يناير؟) نظروا إلي مبهوتين ومنهم من أجاب في تراخ: (شباب الإنترنت) ضربت الطاولة أمامي بقبضة كفي وأنا أهتف في حماس: (بالضبط. الداعي للاحتجاجات هم الشباب. إلى الآن لم يتبنّاها أحد من المعارضين التقليديين. وشباب الإخوان جزء من شباب الحركة الوطنية والمجتمعية، فمن أراد منهم أن يتحمّل المخاطرة ويشارك زملاءه فليفعل. ومن أراد أن يتخلّف، فلا نُجبر أحدًا على المشاركة في أمر لا نضمن عواقبه ومآلاته. ونظلّ نحن مع الشعب نتحرك معه خطوة بخطوة. إن اتسعت دائرة الاحتجاجات، تحرّكنا معه، وإذا تحولت إلى ثورة شعبية، ألقينا بثقلنا فيها. ونكون مع الشعب في عمومه لا نتقدّم عنه ولا نتأخر) قال حكيمنا مُستحسنًا: (لا نفديه، ولا نخذله) هلّل الإخوان، ونهضنا فتعانقنا فرحين بتوفيق الله لنا بالوصول لهذا الرأي الحكيم الملهم. وافترقنا على ذلك!

ورغم اقتناعنا التام بما وصلنا إليه من قرار إلا أن الأيام التالية مرت علينا ببطء في توتر وقلق، وسط حالة من الشد والجذب، كانت قواعد الإخوان تغلي. ومنذ يوم الثلاثاء (٢٥ يناير) صرنا نجتمع كل ليلة لنناقش الأوضاع أولًا بأول. وفي صباح الخميس دُعينا جميعًا إلى اجتماع عاجل لأعضاء مكتب الإرشاد. بات واضحًا بما لا يقبل الشك، أننا أمام ثورة شعبية حقيقية، وأن صمود الشباب فاق كل التوقعات، وأن قمع وزارة الداخلية لم يوقف المد الثوري. واتخذنا قرارانا وأعلناه، وهو نزولنا بثقلنا كاملًا في كل المحافظات للمشاركة في الثورة. وتحولت مطالب الشباب من إقالة وزير الداخلية، وتغيير سلوك الوزارة في تعاملها مع الشعب. إلى: "الشعب يريد إسقاط النظام". ولم نعد نقبل بأقل من إسقاط النظام! وأدركت حجم التوتر والضغط العصبي الذي يعانيه النظام، وتوقعنا أن إعلان الإخوان سيصيبه بالهلع، فيتخذ كافّة التدابير الاحترازية لعرقلة مشاركاتنا في قيادة الثورة. ورغم ذلك قرر أغلب قيادات الإخوان المبيت في منازلهم ليلة (جمعة الغضب)، وتم اعتقالهم جميعًا في تلك الليلة! أمّا أنا فقررت الاعتصام وزوجتي في ميدان التحرير. حيث المكان الوحيد الذي لا تجرؤ

قوات الأمن على اقتحامه! كنا نهرب إلى المواجهة، إنها ثورة شعب، والثورة كالحرب لا مجال فيها للاستسلام أو الأسر. إمّا أن تنتصر، أو تُقتل. أمّا الذين يثورون على نظام ويستسلمون لقوات أمنه في ذات الوقت، فهؤلاء راقصون بشعارات ثوريّة! هل تصدقني إذا أخبرتك أنني شاركت في فاعليات الثورة بالاعتصام في (ميدان التحرير) رغمًا عني، وأنني أكره أجواء الثورة والثورات؟! قرّرت الاعتصام بالميدان فقط لأنني أردت ألا أتعرض للاعتقال في تلك الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد! ولا يعني كراهيتي النفسية للثورة أنني أكره التغيير، أو ضد الثورة على الظلم والطغيان بكل أنواعه، على النقيض تمامًا أنا مع التغيير قلبًا وقالبًا، ولكنني أكره الأجواء المتوتّرة الهائجة المائجة، التي لا تستطيع فيها أن تعرف على وجه اليقين على أي أرض تقف! صارحتك -ربما في الصفحة الأولى من هذه المذكرات- أنني أحب الوقوف على أدق التفاصيل، وما وراء الأشياء والأحداث. لكنّ الثورة خلّفت عشرات الأسئلة الحائرة بلا إجابات واضحة. ولا أظن أننا سنعرف إجابات تلك الأسئلة -في مدى حياتي الباقية على الأقل- حريق القاهرة حدث قبل ستين عامًا، وما زال الفاعل مجهولًا! فهل يمكننا معرفة إجابات قاطعة ودقيقة وصادقة لأسئلة الثورة الحائرة؟!

-مَنْ فتحَ سجون مصر تزامنًا مع انكسار الشرطة بعد عصر يوم جمعة الغضب؟!

-مَنْ قتل اللواء (محمد البطران) مساعد وزير الداخلية ورئيس مباحث قطاع السجون المصرية؟!

-أين القنّاصة الذين قتلوا الثوار في ميادين مصر؟

-منْ يقف وراء موقعة الجمل؟! أين الممولون والمخططون والمحرّضون؟!

-منْ المسؤول عن دخول بلطجية (الجمل) المهاجمين للثوار، لميدان التحرير من ناحية الشهيد عبد المنعم رياض، رغم حصار دبابات الجيش للميدان لتأمين الثوار؟

-من هو صاحب أول هتاف مساء جمعة الغضب: "الجيش والشعب إيد واحدة"؟

-من اقتحم مقرات مباحث أمن الدولة؟ ولماذا؟

-من حرق المجمَع العلمي؟

-من قتل الأقباط في ماسبيرو؟

-من قنص الثوار في محمد محمود واعتصام مجلس الوزراء؟

–وأخيرًا. كيف تم تدبير مذبحة (الألتراس) في بور سعيد؟!

*****

في الميدان ينخرط ثوار الإخوان من الشباب أكثر في الحركة الشبابية المائجة، سقطت بالنسبة لهم مُسلّمات بمثابة العقيدة، كنتُ أرقب ذلك وأخشى عواقبه، لم يعد الشباب الليبرالي خائنًا لوطنه ودينه وأمته –بالضرورة–، ولا الفتاة شديدة التبرج "رِجسٌ من عمل الشيطان". ولا (مينا) و(جرجس) و(حنّا) متحالفين مع الغرب المسيحي ضد مصالح شعبنا وأمتنا، ولا الدين والأخلاق والقيم والوطنية مقصورة على شبابنا الملتزم. رأيت بعيني فتيات متبرّجات يحافظن على أداء الصلاة لأوقاتها، بعد أن يضعن أغطية تستر رؤوسهن، ولاحظتُ استياء بعض إخواننا الملتحين من اضطرارهم للاصطفاف في صفوف الصلوات خلف فتيات يُصلين وهن يرتدين سراويل (الجينز)! ماذا يفعلون وسط هذا الزحام الشديد غير التسليم بالأمر الواقع؟!

فكَّكَ الشباب روابط دامت عشرات السنين، وبنوا روابط جديدة، ولم تعدْ الأخوّة في الدعوة أو التنظيم فحسب، حلّت محلها الأخوّة في الثورة، ورفض الظلم. تآخى الشاب الإخواني الذي لم تعتد أذنه على سماع غير القرآن الكريم، ومحاضرات الدعوة، وأناشيد (أبو مازن) و(أبو راتب)، مع الشاب اليساري ذي الشعر المنفوش، و(تي شيرت) مفتوح الصدر –في عز برد يناير!– عن سلسلة ذهبية أو فضية، تشبه –الجنزير– تحيط بمعصمه الأساور، وتتردد عبر سماعة هاتفه أغاني الشيخ (إمام)[٣٤] و(أحمد فؤاد نجم)[٣٥].. (وكل يوم في حُبّك بتزيد الممنوعات.. وكل يوم بحبك أكتر من اللي فات...)[٣٦]

(أناديكم.. أشد على أياديكم.. وأبوس الأرضَ تحت نعالكم وأقول أفديكم...)[٣٧]وكذلك مع شباب وفتيات يرقصون على أنغام أغنية (محمد منير)[٣٨] (إزاي ترضيلي حبيبتي؟)[٣٩]! في الوقت الذي قررت غرفة عملياتنا التي عقدناها لمتابعة الوضع الميداني للثورة بمباشرة (الحاج جمعة أمين)[٤٠]، قبول التفاوض مع (عمر سليمان)[٤١] ممثل النظام، وأُشيع بين الشباب أن أوامر بالانسحاب من الميدان صدرت

[٣٤] - الشيخ إمام منشد ثوري يساري الاتجاه
[٣٥] - أحمد فؤاد نجم الفاجومي شاعر وثائر
[٣٦] - https://www.youtube.com/watch?v=Qp52nm-Td40
[٣٧] - https://www.youtube.com/watch?v=HyiKXYJb7WU
[٣٨] - مغني مصري شهير
[٣٩] - https://www.youtube.com/watch?v=jfsDCStkmHI
[٤٠] - عضو مكتب إرشاد الجماعة
[٤١] - رئيس المخابرات العامة الأسبق ثم نائب رئيس الجمهورية خلال أيام ثورة يناير وصاحب خطاب التفويض الشهير

يوم موقعة الجمل من غرفة عمليات الإخوان. لكنهم رفضوها بشدة، وفضّلوا الموت من أجل الثورة، على الحياة بأمر القيادة!

في تلك الأجواء بتُّ ألمح التفاعلات الاجتماعية والفكرية والنفسية التي تجرى في أتون ميدان الثورة، فتكسر روابط، وتعيد بناء روابط جديدة. ورنّت في أذني كلمات قالها (أبو الفتوح) قبل عام واحد، في ضيافة برنامج (العاشرة مساء). "لو تعارضت مصلحة الجماعة مع مصلحة مصر سأتنازل عن الإخوان". أرى هذه الكلمة الآن واقعا مجسّدًا في وعي كثير من شبابنا في الميدان، وهذا وعي له ما بعده!

*****

(لا تقطعوا الحبل السُري مع الثورة!) تحذير سمعته من أحد إخواننا في مجلس شورى الجماعة، تعقيبًا على التحقيقات والإجراءات التي يمارسها مسؤولون في قطاع القاهرة الكبرى، مع إخواننا الشباب الذين شاركوا بفاعلية في الثورة مع شباب مصر منذ الإعداد وحتى تكوين (ائتلاف شباب الثورة)، وهذا الائتلاف هو أحد أهم وسائل التواصل بين الثورة وبين المجلس العسكري الذي يُشرف على العملية الانتقالية، ويتواصل مع سفراء الدول المختلفة، وسفراء من الأمم المتحدة باعتباره أحد المكونات الممثّلة لشباب الثورة. ورغم هذا التحذير الصادم، تم فصل وتجميد عضوية عدد من الشباب الإخواني الثوري كـ(إسلام لطفي)، (محمد القصاص)، (أحمد عبد الجواد)، (هاني محمود)، و(محمد عباس)، و(أحمد نزيلي)!

لم تكن الصدمة الناجمة عن القرارات الصادرة في حق الشباب مقتصرة على كونهم يمثّلون (الحبل السُري) بالثورة، ولا باعتبارهم وجوه شباب الجماعة، كان من بينهم أيضا حفيد المرشد الأسبق (مصطفى مشهور)، وكذلك ابن المسؤول التاريخي لمكتب إداري محافظة الجيزة (سيد نزيلي). بات الاختلاف النوعي بين الأجيال، والتآكل الداخلي بارزًا بوضوح!

*****

(ولا تسدّوا بابكم المفتوح على الجماعة الوطنيّة المصريّة!) الشطر الآخر من التحذير الذي أطلقه ذات الأخ الفاضل. لا أحد فينا يُنكر قيمة (أبو الفتوح) في هذا الجانب. شخصيًا أُكنّ لـ(أبي الفتوح) كل عاطفة صادقة منذ تزاملنا في كلية الطب، لكن عبثًا حاولنا إقناعه بالتنازل عن مبادرته بالترشح المحتمل لرئاسة الجمهورية. لكنه تعجل الأمر، ورأى في التقاعس عن المساهمة تخاذلًا عن نداء الوطن في أوج لحظات احتياجه إلى كفاءاتنا! لم يكن قرار الفصل الذي أصدرناه في حقه متعسفًا

بحال!! لكن نزعة استقلالية مُقلقة اجتاحت وجوهًا بارزة في كل مكان، فسرعان ما أعلن الشيخ (حازم أبو إسماعيل) ترشّحه أيضًا للرئاسة، وأيًا كان موقع (حازم) التنظيمي في الجماعة، فهو محسوب عليها بحال، كونه مرشحًا لها في الانتخابات البرلمانية السابقة! كما استقال دكتور (محمد حبيب) النائب الأول السابق للمرشد العام! وسألت نفسي سؤالًا لم أحاول أن أوجّهه لغيري، لم أُرد تصدير القلق: (هل ينفرط العقد؟!) وجاءتني الإجابة باستقالة الدكتور (إبراهيم الزعفراني)، والأخ (خالد داوود)، وسعيْ كل منهما لتأسيس حزب منافس لحزب (الحرية والعدالة) الجناح السياسي للجماعة! ولن يفوت أي مراقب ملاحظة أن هذه أسماء ذات وزن ثقيل، خاصة فيما عُرف بالتأسيس الثاني للجماعة في منتصف السبعينات، التلاميذ النُجباء لـ(التلمساني)! ولم أئتمن غير (عزّة)، على ما يختلج بصدري من هواجس. ستظل (عزّة) تداعب شعري رغم انحساره المستمر إلى مناطق الرأس الخلفية. وسأظل أروي لها كل ما يحيك بنفسي، وهي تأخذني بسعة ثقافتها، وهدوئها الرائع، إلى آفاق رحبة. قلت لها مهمومًا: (الاستقالات والنزعة الاستقلالية التي تبديها وجوه الإخوان، لا تخيفني، بقدر ما تخيفني أزمة الخطاب الإخواني في زمن المنحة والانفتاح!) أشرق وجهها بابتسامة ذكيّة، وعلقت كأنها تُذكرّني: (اسمعوا منا. ولا تسمعوا عنا)

جفلتُ من صراحتها العارية، رغم أنني ما أويْت إليها إلا لنتصارح! قلت متأمّلًا: (الأخ (صبحي صالح)، ليس فقط رجلًا مفوّها، إنه شلال كلام يتدفق بانسياب وعذوبة. وعامة الإخوان في مختلف المحافظات والقطاعات يطربون لمجرد سماعهم خبر حضوره درسًا من الدروس، أو لقاء من اللقاءات. والنكات اللاذعة والساخرة تتدفق مع حديثه الثُر، فتزيد لقاءاته بهجة ومتعة. مُحدّث لبق مثله راهنت على أنه سيُبهر سامعيه على مختلف عقولهم وطبقاتهم ومستوياتهم الثقافية. كان بالفعل قادرًا على الإبهار داخل نطاق الجماعة!) لمحتُ لمعة الاعتراض في عينيها، فاستبقتها إلى الحديث، متهدّج الأنفاس: (مجتمع الجماعة –وتدركين ذلك أكثر مني بحكم دراساتك وأبحاثك وتأملاتك– مجتمع شديد التنوع الثقافي والفكري والطبقي كذلك. هو –بلا تحيّز– من مجتمعات النُخبة قياسًا باهتمام جميع أفراده بالشأن العام المحلي والإقليمي والعالمي) نظرتْ إليّ طويلًا، وفي عينيها تلك النظرة المتسامحة، التي أعرف فيها مدى تغاضيها عن مراوغاتي الفكرية أثناء عرض قضاياي، عندما أتعمد خلط الأوراق! تجاهلتْ ببرود كل هذا (اللغو) الذي كنت أتفوه به –من وجهة نظرها– ألقت ملحوظة وهي تعبث بشعرات نافرة من لحيتي: (الشيْب بدأ يتسلل إلى لحيتك بصورة أكبر من شعر رأسك!) اعتدلت في جلستي وأنا أرميها بنظرات حانقة. اتسعت

ابتسامتها الجليدية وهي تتساءل: (ألن تستخدم الحِنّاء كما فعلته لك ونحن في الحج العام الماضي؟ صار شعر رأسك ولحيتك كستنائيا رائعًا يضرب إلى حُمرة مثيرة!) سألتها كاتمًا غيظي إلى أقصى حد ممكن: (هل اشتعال الشيب بلحيتي ورأسي يبدو لك أهم مما نحن فيه؟!) أجابت وفي عينيها نظرة مُراوغة: (ألا تُدرك أننا نتحدث عن نفس الأمر تقريبا حبيبي الغالي؟!) تظاهرتُ بالبرود، فاستطردت: (أنا زوجتك. حبيبتك. متيّمة بك. يبدو شيْبُك في نظري كتاج من الذهب الأبيض يُزيّن رأسك) غابت في تأملاتها وما زالت تعبث بلحيتي، ثم استطردتْ: (بصفتي أستاذة جامعية، وامرأة عركتها الحياة. ليست غِرّة. أعرف يقينًا المدلول العلمي والطبي لاشتعال الشيب، إلى آخر رصيد المعلومات والثقافة. ورغم ذلك أُحبّك كما أنت. لكن عندما تخرج إلى الناس. أُحب أن يروْا فيك الصورة التي تُرضيهم وتجذبهم إليك، وتُبهرهم بك. لا الصورة التي أعشقك بها. فما دخل المستوى الثقافي والنُخبوي في تلك المسألة؟!) هتفتُ بلا وعي –تقريبًا–: (آه!)

عقّبتْ وقد أسعدها إثارة فضولي: (مجتمع الإخوان ثقافته ونُخبويته أحادية الاتجاه، ينبهر بما لا ينبهر به بالضرورة عوام الناس ومثقّفيهم. ومن جهة ثنائية الخطاب الإخواني فتلك طبيعة مرحلية ستلازم حتمًا ظروف ما بعد الثورة. فحديثُ السر. غير حديث العلن. والحديث إلى قواعد مقهورة محجّمة في حريتها محكوم عليها أن تعيش أجواء المحنة، وظلال (دراما) أصحاب الأخدود. غير الحديث إلى ذات القواعد حينما تُفتَح لها آفاق الحُرّية والانتشار. جزء من إلزامنا للشباب أن يتزوجوا من فتيات الجماعة) قاطعتها مُعترضًا، إذ ضغطتْ على الجرح: (لم يكن الأمر إلزامًا وإنما توجيهًا عامًا. يمكن وصفه بالتفضيل لا الإلزام) قالت وما زالت حالة التسامح تسيطر عليها فتُعرض عن مجادلتي: (جزء من تفضيلنا ارتباط شباب الجماعة بفتياتها، ينبع من ظروف سِريّة الأعمال التنظيمية، وتبِعات العمل الدعوي من ملاحقات أمنية، وتضييق على الرزق والعمل والسفر وخلافه. كان السؤال الذي أواجه به أي فتاة تستأذنني للارتباط برجل ملتزم دينيًا وخُلقيًا من خارج التنظيم: (كيف ستمارسين عملك الدعوي؟ وتحضرين لقاءاتك؟ وتبرّرين مشاركتك في فاعلية سياسية أو اجتماعية ما؟ هل تطيعين زوجك الطاعة التي أمر بها الشرع؟ أم تطيعين التنظيم الذي أعطيته بيعة على السمع والطاعة؟!" الآن يا حبيبي بعد ثورة الحرية. الأمر جد مختلف. من حق الفتاة الإخوانية أن تعلن في محيطها الاجتماعي أنها عضوة في الإخوان، ومن حقها أن تجلس وتضع ساقًا فوق ساق، وتشترط فيمن يتقدم لخطبتها إن

كان من خارج (الصف) الموافقة مبدئيًا على واجبات عضويتها وعملها لدعوتها، كما يوافق على طبيعة مهنتها التي تمتهنها في الحياة العملية) صمتت برهة. ثم استطردت متأملة: (هذه النقلة النوعية الهائلة. تحتاج إلى نقلة نوعية مماثلة في طبيعة الخطاب الإخواني. والأهم من تغيير طبيعة الخطاب، هو تغيير المناهج الفكرية والثقافية والتربوية التي ينتج عنها الخطاب بشكل تلقائي عفوي) قلت في تبرّم: (لم يمر على إعلان تنحي (المخلوع) سوى أسابيع، فكيف يتسنى لنا إنجاز هذا التغيير الهائل في المناهج واللغة والثقافة والوعي والإدراك؟! هذه مطالب تعجيزية تفوق قدرة البشر!) أضافت في سيْماء من اهتدت إلى الحل السحري: (إذن لنصمت. طبّق حديث النبي صلى الله عليه وسلم، "فليقل خيرًا أو ليصمت". فإن لم نستطع أن نتحدّث حديثًا يناسب المرحلة، فلنصمت. لن نُحاسَب على الصمت، كما نُحاسَب على اللغو في الكلام والأيمان!) حدّثت نفسي: (آه لو صمت الأخ صبحي ولم يُقسم بالله كاذبًا!) وأجبتها في توتّر: (بل يحاسبنا الجميع على الصمت وعلى الكلام. ويعدّون علينا أنفاسنا)

- يفعلون لأننا قرّرنا تصدر المجلس. بعد نجاح الثورة انتصبت الجماعة وهتفت: (أنا الكبير). والكبير مرصود في سكناته وحركاته.

سألتُ مُمتعضًا: (وهل نَترك البلد بلا كبير؟!) أجابت متجنّبة الجدال السياسي: (بالطبع لا يمكنني الحكم على ما يدور خلف الكواليس. أنتم أقدر على الحُكم في مثل هذه المسائل المصيرية. لكن إن كان لا بد من شغل موقع الصدارة، فلنتحمل خطابًا من نوعية (الأخ الفَلّوطة)، (جُمعة الوقيعة)، (٦ إبليس)، (وموتوا بغيظكم) و(اليمين الغموس)، وغير ذلك كثير مما يجعل صوتنا الذي طالبنا الناس عقودًا بسماعه لا بالسماع عنه نشازًا مُستفِزا يثير الحنق والغضب!) سألت في أسى: (جئتكِ لتعينيني أم لتزيدي حيرتي وضيقي؟!) أجابت في بساطة: (هذه طبيعة مرحلة تفرضها أجواء الثورة. أديروا عجلة تغيير المناهج الفكرية والثقافية والتربوية بأسرع وتيرة ممكنة. ولاحظ مدى صلاحية خطاب (البنا) و(سيد قطب) لمخاطبة جيل ما بعد ثورة يناير! إن لم نُنقّح الخطاب القديم، ونُصدر (فيرجن جديد) لتحديث النظام الداخلي وبيئة العمل بالكامل، سيسقط النظام تمامًا) هممت بالاحتجاج. قاطعتني بابتسامة أُم تنصح ولدها الجامح: (جرّب تحميل (سيستم ويندوز ٢٠٠٧) على كمبيوتر طراز (٤٨٦)[٤٢]. هل تذكره يا حبيبي؟!) واتسعت ابتسامتها بشدّة، وهي تحدّق في اتساع عيني أحاول أن أتذكر أول جهاز كمبيوتر اقتنيناه في بداية التسعينات! ولا أدري لمَ تذكّرتُ جهاز

٤٢

(تلفزيون نصر) في قهوة عم (سيد)، وسرحت بخيالي، هل يصلح هذا الجهاز العتيق لاستقبال خمسة آلاف قناة فضائية في وقتنا هذا؟! ومع ذلك رفضتُ المبدأ كله. فما زالت (الأنتيكات) تُباع في (خان الخليلي) بمبالغ طائلة، ويُقبل السوّاح على شرائها. قرأتْ (عزّة) –كعادتها– أفكاري، هتفت ضاحكة: ((الأنتيكات) تُباع للزينة أو للتاريخ. لكنها لا تعمل ولا تُستخدم يا حبيبي!)

*****

كنا في عُمرة رمضان في عام (٢٠٠٢)، أو ربما عام (٢٠٠٣). وكان قسم التربية قد قرر (مُدارسة) موضوع بعنوان (العِزّة) تحت شعار قوله تعالى: "**ولله العِزّةُ ولرسولِه وللمؤمنين**"، وأعدّ ورقة بهذا الخصوص لرفع روح إخواننا بالعزة الإيمانية إلى عنان السماء. ودعاني (إخوان مكة) لحضور (كتيبة) لمُدارسة هذا المعنى، فوجئت خلال (الكتيبة) بورقة مقدّمة من أحد الإخوان تحمل عنوان (العِزّة في زمن الاستخلاف غير العِزّة في زمن الاستضعاف)، ضاربًا أمثلة من هديْ النبي صلى الله عليه وسلم في مكة قبل الهجرة، ومواقفه والمسلمين بعد الهجرة وتكوين الدولة! والحقيقة أن هذه الورقة التي قدّمها أخٌ مجهول بين الصفوف، كانت كفيلة بأن تقلب الهدف الذي وضع قسم التربية (المُدارسة) من أجله رأسًا على عقب. لمس الأخ بدقّة الفرق الجوهري بين الشعار والواقع، وميّز بين التطبيق العملي للقيمة الإيمانية في حال الضعف، وفي حال التمكين! وتساءلت: (تُرى أين هو الآن؟ وهل من وسيلة ليشارك قسم التربية تجديد المناهج لتلائم مرحلة ما بعد الثورة؟!) والحقيقة أنني لم أكن في حاجة إلى إجابة السؤال ولا البحث الجاد عن مثل هذا الأخ. كنت أعرف مصيره ومصير أمثاله وسط العمل بـ(الصف) الإخواني!

*****

قالت (نبيلة) معلّقة على الحوار الدائر: (أنت في الإخوان داخل مجتمع معلّب يتم تصنيع المبدع والجمهور، تُقدّم لخطيب بنصف أو ربع موهبة ألف مستمع من التنظيم! ولكاتب مبتدأ قوي الولاء، آلاف القرّاء. فتصنع مبدعين متواضعي المستوى مقارنة بنظرائهم الأحرار بدون غطاء مؤسسي. ومجتمعًا يقبل بأنصاف الموهوبين وأرباعهم، فتغيّر ذائقتهم الثقافية!) –وكذلك تفعل الدولة مع مثقفي ونخب (الحظيرة).

قالت (عزّة): (كلانا لا يقدّم نخبة حقيقية، ولا يصنع مجتمعًا واعيًا)

هل فركت عينيك صديقي وأنت تقرأ اسم الدكتورة (نبيلة) يُقحم في الحوار؟! هل ظننت أنه خطأ أو سهو مني؟! كلا البتّة. لم تخدعك عيناك، ولم تخني الذاكرة. فمن دواعي

العجب أننا التقينا بأخي الدكتور (عماد مراد) وحرمه، في أول حفل إفطار رمضاني للجماعة بعد الثورة، جمعتنا مائدة طعام واحدة، كان الرجل أستاذي في الجامعة، والآن صار أحد مسؤولي الإخوان عن قطاع القاهرة!

أمّا (عزّة) التي تحدّثت طويلا مع (نبيلة) لاختلاف وجهات النظر حول كثير من المفاهيم، لم تعرف أكثر من أنها كانت –بالمصادفة البحتة– زميلة دفعة! ويبدو أن (نبيلة) لم تتشرّب أفكار زوجها وإن سايرت نمطه الاجتماعي.

*****

(حملت الثورة على النظام في طيّاتها ثورة داخلية على منهجنا وأسلوبنا في إدارة التنظيم!) وَعيْتُ هذه الحقيقة مبكرًا. الأدهى من ذلك أن الثورة التي أخرجت في بداية نجاحها أجمل ما في شباب مصر وهم ينظّفون الميادين، ويدهنون الأرصفة، ويرسمون (الجرافيتي)، ويسهرون في لجان شعبية على حماية أمن المواطنين، أخرجت في المقابل أسوء المكبوت داخلنا!

فجأة وجدنا قواعدنا وأفرادنا جميعًا يتصدّرون المجالس في كل مكان، بحكم وجودنا في بؤرة الحدث.

المشكلة أن الفرد الذي أخذ ينطلق ويتحدّث ويصرّح ويدلي بالبيانات والمعلومات والآراء والأفكار باسم الإخوان، لم يكن بالضرورة إخوانيّا حقيقيًا ناضجًا، فعملية التربية داخل المستويات التربوية للجماعة تمر بمراحل معقّدة وطويلة المدى الزمني.

نحن في الجماعة نُطلق –تجاوزًا– على الأخ في مرحلة (المؤيّد)، وهي مرحلة تربوية أولى في صفوفنا التربوية والتنظيمية، لقب (الأخ) تطييبًا لنفسه، ولأنه في الحقيقة يقوم بواجبات الأخ العامة من الدعوة والطاعة التنظيمية، وخلافه، والناس يطلقون عليه: (الإخواني)، أو (الإخوانجي)! لكن الواقع التربوي والتنظيمي للجماعة يختلف تمامًا عن هذا –التجوّز في التعبير– فمرتبة الأخ العامل لا يصل إليها الفرد إلا بعد تدرّج في المستويات التربوية، واختبارات عملية وسلوكية كثيرة تستمر سنوات عدّة، تتجاوز عادة عِقدًا من الزمان!

بعد الثورة بتنا نتحمّل عبء كل من رفع شعارًا مؤيّدًا للجماعة، وإن لم يكن خُلقيًا وتربويًا وفكريًا مؤهلًا للتعبير عنا! فهل الرهان على الزمن كفيل بحل تلك المعضلة؟! لم يكن حُلفاء الثورة ومنافسي اليوم ليمهلوننا هذا الزمن اللازم لنضج مؤيدينا وارتقائهم إلى مستوى التنظيم؟

بتنا نعاني من مزايدة الاتجاه السلفي في معظمه باسم الهُويّة ومطالب الشريعة. كما نعاني من ضغط عجلة الشباب الثوري وارتفاع سقف مطالبهم، وإصرارهم على إسقاط فلول النظام والدولة العميقة بالضربة القاضية، ومحاكمة رموز ومراكز قوى النظام محاكمات ناجزة، واسترداد الأموال المنهوبة المُهرّبة للخارج. ولم يكن المجلس العسكري بعيدًا عن الصراع، فهو يريد ملأ الفراغ الناجم عن سقوط المؤسسات المدنية للحكم –رئاسة ومجالس منتخبة ودستور– وكنا بشعبيتنا الجارفة الحل الأمثل، لملأ هذا الفراغ! والواقع أنه لم يكن تغير شيء ضخم في بيئة الحكم، وبنية القضاء والقوانين تسمح بتحقيق الأهداف الطموحة للثورة!

*****

في لحظة ما بدا أننا نتعامل وفق نظرية (القِرْبة المقطوعة)! كنا نتحاشى تكرار تجربة عام (١٩٥٤) مع الجيش، فنُجابَه بنِقمة شُركاء الثورة. وتنطلق قواعدنا –سالفة الوصف– بمهاجمة فاعليات الثوار، لا لجريمة ارتكبوها، ولكن لأننا لم نشارك في فاعلياتهم احترامًا من جانبنا لتوازنات، لم نكن في حِلٍ من الإعلان عنها، لنجد أن حريقة عبارة "ايه اللي وداها هناك؟" تشتعل في وجوهنا، وتخرج النساء ضدنا. وكأننا شركاء في الاعتداء على (حرائر مصر)، و(ست البنات)!

العقلاء من بيننا يصرخون: (أوقفوا هذا العبث الصبياني الذي تمارسه القواعد على مواقع التواصل الاجتماعي)، دون جدوى!

وإذا خُضنا انتخابات برلمانية تحت سقف خطاب دعوي مُتّزن، وفي بعض التقديرات (منخفض)، فتصريحات رجل الدولة تضبطها قواعد غير تصريحات رجل المعارضة! واجهَنا الصوت المرتفع لمطالب (السلفية السياسية) الناشئة، حتى يثور الجدال بين الرئيس (الإخواني) لمجلس النواب، وأحد الأعضاء على وجوب رفع الأذان أثناء انعقاد الجلسة! فنخسر مراكز شعبية تتأثر بالعاطفة الدينية دون ضوابط!

الداخل التنظيمي يضغط بشدة، في ظل فرص واعدة باحتمال نجاح (أبو الفتوح) في سباق الانتخابات الرئاسية. إن أي نتيجة إيجابية يحقّقها الرجل، ولو كانت الوصول إلى مرحلة الإعادة في ظل غياب الإخوان عن المنافسة أو دعم مرشح منتصر، معناه أن الرجل انتصر علينا، وربح رهاناته على حساب التنظيم. فإذا كانت حملته الانتخابية تضم اليوم المئات من أعضائنا السابقين، فيومئذ ستضم صفوف مؤيديه الآلاف أو عشرات الآلاف من قواعدنا. عندها يتهدد كيان التنظيم!

ولاحت في الأفق أزمة حل مجلس النواب. ولم يكن في جُعبتنا لحماية التنظيم، وللحفاظ على مكاسبنا، إلا الدفع بمرشح رئاسي في اللحظة الأخيرة!

كنا نُدرك أنها مغامرة، أشبه بالمقامرة! كانت الورقة الأخيرة في جراب الساحر، وألقيناها. فإما نكسب الجولة، وإلا ففي كل الأحوال سنخسر كل شيء.

وهتف أحد الإخوة: (ما زالت أمامنا فرصة. لنكتفِ بمرشح واحد هو المهندس (خيرت)، فإن رُفضت أوراق ترشحه –وأظنها ستُرفض–، نساوم بها على بقاء مجلس النواب. وإلا أشعلنا الميدان من جديد!) وجاءه الجواب الحاسم: (ما كنا لنحنث في وعودنا السابقة لمجرد المناورة السياسية. علينا أن نمضي في الشوط إلى نهايته)

*****

أدركت مآلات تلك القرارات التي تنتج عن ردود أفعال، لا عن دراسات محكمة، وخطط طويلة المدى.

ما معنى أن تأتي متأخرًا، قادمًا من آخر الصفوف، دون إعداد مُسبق، ودون رؤية حقيقية، ولا تجهيز، معتمدًا فقط على قدرتك على الحشد، وإدارة الجماهير؟! وترفع سقف الطموح إلى أبعد مدى عن الواقع الممكن، فتضطر إلى إطلاق الوعود الجُزافية بمشروعات عملاقة يحتاج الإعداد الفعلي لها إلى سنوات وسنوات، من نوعيّة (مشروع النهضة)، ووعود (ملفات المائة يوم)!

لم تكن مغامرة محسوبة، ولم تكن لها نتائج سوى الانهيار الكبير الموشك!

أظن أن كثيرًا من أعضاء مجلس شورى الجماعة تمنوا عدم نجاح (دكتور محمد مرسي) إشفاقًا من العواقب المنتظرة! وأظن أغلبهم ما زالوا يتساءلون –على طريقة (سمير غانم) في مسرحية (المتزوجون) التي قال فيها: (أموت وأعرف مين اللي زقّني في بير المجاري علشان اطلّع عربيتك يا لينا!)– فأغلبهم يتساءلون عمن دفعهم إلى هذه البئر الخطرة!

ومع ذلك فمبادئنا تُحتّم على الجميع أن يقف في الصفوف الأمامية للمعركة متى فُرضت عليه، وإن كان موقنًا بالهزيمة، إن أي موقف غير ذلك يُعد (فرارًا من الزحف المقدس)!

*****

حتى مع نجاح (دكتور مرسي)، ودخوله إلى (فخ) القصر الرئاسي. كانت ثَمّة فرصة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. قُدّمت لنا مئات الأوراق للدراسة والبحث والاعتماد، تؤكد كلها على ضرورة الفصل الحقيقي التام بين الحزب وبين الجماعة، واستقلال الفريق الرئاسي استقلالًا تامًا بالرؤية والقرار، والاكتفاء بترشيح مستشارين أكفّاء يخوضون

معه التجربة المريرة والامتحان العسير! وتوسيع قاعدة الفريق الرئاسي توسيعًا حقيقيًا منفتحًا على كل التيارات الثورية والسياسية، مع تفعيل دوره، ولم يكن هذا أكثر من توريط لهم بالمشاركة في المسؤولية! لكننا تجاهلنا كل تلك الأوراق!

كان يمكن للتجربة أن تمر بأقل خسائر ممكنة، دون أن تتجه إلى منحى كارثي. لو لم أدفع بقواعد التنظيم للاحتشاد وحماية (قصر الاتحادية) بطريقة الميليشيات، لا بطريقة مؤسسات الدولة المعمول بها في العالم الحديث!

اجتمعنا ندرس حالة الهياج الحاد الذي خلّفه (الإعلان الدستوري) الذي أصدره الرئيس، وأدركنا أبعاد المؤامرة التي استغل فيها خصومنا جميعًا حالة الاهتياج الثوري التي أصابت شركاء الثورة –سابقًا– وأجّجت المواجهة الشاملة على صعيد المحافظات، داعين لحرق المقرات، وحصار (الاتحادية)! وطُرحت حلول سياسية، منها دعوة الأصوات الثوْريّة لتبصيرهم بطبيعة المرحلة التي فرضت على الرئيس إصدار إعلانه الدستوري، وتقديم ضمانات سياسية حقيقية لهم. أو الاكتفاء بتصدي مؤسسات الدولة للمؤامرة مع تحميلهم المسؤولية عن تفاقم الأوضاع، أو حتى الاتفاق مع المجلس العسكري على نزول الجيش لحفظ النظام. وكان الحل الأخير المتاح أمام (الرئيس) أن يخرج إلى الشعب فيصارحه بما توفر لديه من أبعاد المؤامرة والضالعين فيها تصريحًا لا تلميحًا، وأن يردّ الأمانة للشعب، فإما يخرج للحفاظ على مكتسباته الثورية، وإما يستقيل الرئيس صانعًا فراغا دستوريًا وأزمة سياسية حقيقة يلقيها في وجه الجميع!

لكنني قطعت الطريق على الجماعة، إذ كان لا بد لي من التصرف السريع الحاسم، فأصدرت أوامري إلى المكاتب التنفيذية بالمحافظات بحشد جموع التنظيم إلى محيط (الاتحادية)!

*****

وأظنك لا تحتاج بعد هذا البيان إلى مزيد تفصيلات حول الشهور الباقية للإخوان في القصر الرئاسي، فكل ما سيحدث في أعقاب ذلك لن يكون –بحال– إلا أصداء لهذا القرار الحاسم الذي أصدرْته في لحظة ارتباك سيطرَت على الجميع!

ولم أكتفِ بتلك المواجهات حول القصر التي رسمتْ مبكّرًا مشهد النهاية بألوان من نار ودماء، لكنني تمكّنت عبر رجالي في التنظيم إلى دفع (الرئيس) دفعًا

ليخرج محييًا مناصريه، ويلقي كلمة إليهم دون عامة المصريين، ودون الثوار المحتشدين بعشرات الآلاف ضد إعلانه الدستوري في (ميدان التحرير)!

وكان يمكن لشباب الإخوان، الذين وُصِموا بعد أحداث (الاتحادية) بالمليشيات.. أن يتنكّروا في صورة جموع مصرية شعبية خرجت لمناصرة رئيس جمهورية منتخب، فيرفعون أعلام مصر ويهتفون هتافات وطنية ومصرية خالصة، ويدهنون وجوههم بألوان العلم المصري، على طريقة (الكرنفالات) الاحتفالية في المناسبات الرياضية! لكنني تعمدّت –من تمام عبقرية الإخراج– أن نُصدّر الصورة الإخوانية الدامغة، فخرجوا في مسيرات وطوابير رياضية يهتفون: (قوة.. عزيمة.. إيمان.... رجالة المُرسي في كل مكان)!

https://www.youtube.com/watch?v=v0lxje9nXho

*****

ستسألني كثيرا عن الحصاد، وعن تفسير ما لم تُحط به عِلما. اطمئن يا سيدي، أنا الآن أقبع مع بقيّة قادة الجماعة في سجن (العقرب) شديد الحراسة، أرتدي البدلة الحمراء، في انتظار تنفيذ حكم الإعدام!

وقبل أن أُفصح لك عن الحصاد. من تمام الأمانة، إذ وعدتك منذ البداية بالصدق المُطلَق، أن أُطلعك على تلك المناقشة التي جرت بيني وبين أحد قيادات (حزب الوسط)، وهو رجل فاضل يعاني ويلات الحبس معنا في سجن (العقرب)، سألته في لقاء انفرادي –نادر الحدوث–: (ألا تشعر بالندم على تضحيتك من أجل قضية لم تكن طرفًا فيها من الأساس؟!) نظر إليّ صاحب السجن يتأمّلني طويلا، قبل أن يجيبني بسؤال: (هل حقًا تريد إجابة شافية تعبّر عما في صدورنا وعقولنا؟! أم ستكتفي بالمجاملات الرقيقة؟!) ورغم دهشتي من سؤاله، أكدّت له حرصي على الإجابة الصادقة كل الصدق. فقال: (هذا يا صاحبي هو الفرق الجوهري بيننا وبينكم)

- من نحن ومن أنتم؟!
- أنتم الإخوان، ونحن الوطنيون، على اختلاف أيديولوجياتنا وتوجهاتنا، وخلفياتنا الثقافية، ومناهجنا السياسيّة والفكريّة. نحن الوطنيّون –سيدي– نكافح من أجل قضية وطنية عامة واضحة وصريحة، غالبًا ما تكون قضية مجرّدة، لا نهدف من وراء جهادنا تمكين حزب أو تنظيم، لا نعمل من أجل تحقيق أهداف نُشرف على تنفيذها بأنفسنا. هكذا نحن، وهكذا تجد كل الثوّار الحقيقيين الذين ضحوا من أجل مصر، ولم يشتركوا في حصد الغنائم، ولا حتى شاركوا

في طلبها. جهادنا كله في سبيل الله والوطن والشعب، ولا مكان لرابع داخل مكوّنات هذه المعادلة!

سألته وانا أُخفي انفعالي تحت ستار من البرود الجليدي: (هل تنكر يا صاحبي أننا كإخوان أكثر الناس وطنيّة، وأكثر الوطنيين تقديما للتضحيات، وأقل البشر حصولًا على المغانم؟! هل تنكر أننا أكثر البشر بعد جيل صحابة النبي صلى الله عليه وسلم تعرّضًا للابتلاءات والمحن؟!) أومأ صاحبي برأسه، وهو يقول في تسليم: (لا يسعني أن أجادلك في مدى وطنية الإخوان، ولا في تاريخ المحن والابتلاءات التي تعرّضتم لها، ولا كم التضحيّات التي ما زلتم تقدمونها. لكنني يا –سيدي– أُنبّهك إلى أمر مهم. الإخوان يقدّمون ما يقدّمون من أرواحهم وأعمارهم وأموالهم وراحتهم من أجل مشروع خاص، وأهداف خاصة. أهداف نبيلة ومشروعة. لا يمكنني أن أختلف معك في ذلك. لكنها أهدافكم. التي تصل في النهاية بمشروعكم إلى التمكين. أمّا نحن فنجاهد من أجل أهداف وطنية مجرّدة. وقبل أن ترميني بتلك النظرات القاسية، أسألك سؤالا كاشفًا: إذا انفرجت هذه المحنة غدًا. وعُدنا إلى ما قبل بيان (الثالث من يوليو ٢٠١٣) من الذي سيعود إلى قصر الرئاسة نحن أم انتم؟!) قاطعته رافضًا المنطق: (الشرعيّة...) رفع صوته أكثر مقاطعًا بدوره: (لا أجادلك حول الشرعيّة، ولا أنافسك فيها. سؤالي عن مكاننا في الغنيمة بعدما دفعنا ضريبتنا في المحنة؟!) هممت بالإجابة، لكنه واصل صدّي قائلًا وهو يرفع كفه في وجهي: (لا. لا يا سيدي. لا تورّط نفسك في مزيد من الوعود التي لا تتحقق. نحن في الأساس لا نطلب شيئًا لأنفسنا ولا لأحزابنا. أنا فقط أحدّثك عن الفرق بين التضحيّة من أجل هدف خاص، والتضحية من أجل مبدأ عام) رفعت صوتي بالاحتجاج: (لكن أهدافنا كلها عامة ومشروعة وتعود على الوطن والشعب بالصلاح والنفع العام)

- ألم أُسلّم لك يا سيدي أن أهدافكم من حيث المبدأ مشروعة ونبيلة. ومع ذلك تظل أهدافًا خاصة بتنظيم أو جماعة أو حزب. تدري يا صاحبي بمَ تذكّرني تضحياتكم؟
- بمَ؟
- تذكّرني بابني الذي يستذكر دروسه بجد واجتهاد من أجل تحقيق التفوق والحصول على المركز الأول في ترتيب أوائل الجمهورية، وهو كما ترى هدفًا مشروعًا ونبيلًا، ولا غبار عليه، وفضلًا عن أنه هدف

شخصي يفيد صاحبه، سينعكس على العائلة كلها بالفخر والسعادة. أليس كذلك؟!

أومأت له أن أكمل. أضاف: (فهل من حقه للوصول إلى هدفه الشخصي النبيل، فرض حالة الطوارئ العامة في البيت؟! لا يعلو صوت لأنه يشوش عليه في استذكاره. ويجب على كل أشقائه خدمته في شؤونه الخاصة من أجل تحقيق هدفه. هل يجب على الجميع أن يموتوا أو يختفوا من أجل تحقيق هدفه المشروع النبيل؟!) أجبته بالنفي، وهممت بالمجادلة. عاجلنا السجّان بصوته الجهوري الغليظ، مؤذنًا بانتهاء (الفسحة) أو ساعة التريّض النادرة. لنُسرع إلى الزنازين الخانقة. والتفت فإذا بي ألمحه على البعد، على باب زنزانة مقابلة. إنه صديقي القنصل (مؤمن آل فرعون). لمعت عيناي ببريق حاد، وهو يومئ لي بالتحية، حاصرَته المحنة كونه ابن الفكرة، وإن لم يكن عضو التنظيم!

*****

الآن وقد أُغلق عليّ باب زنزانتي الانفرادية القميئة، أجلس مسندًا رأسي إلى جدارها الصخري، لأكتب إليك سطور النهاية والتفسير. أو (الحصاد) كما وعدتك قبل قليل.

نعم يا سيدي. لقد نجح (البروفيسور الأمريكي) الذي حضر إلى القاهرة خصّيصًا من أجل مقابلتي قبل خمس وثلاثين سنة كاملة في تجنيدي. إن الأموال الطائلة التي تمكّنتُ بواسطتها من اختراق القرار داخل التنظيم خلال ربع قرن –وحدّثتك عنها– لم تكن حاصل بيْع أرض لم تكن موجودة من الأساس. وإنما كانت كلها من تمويل تلك الجهات الدوليّة عابرة القارات! وأصارحك أنني أحببت الدعوة. أحببت العمل لهذا الدين. وكنت أهلًا للدعوة له عبر ثقافتي الإسلامية التي كوّنتها بجد وإخلاص خلال رحلتي الطويلة هذه، والتي كانت واسعة جدا بحق. لكنني غير نادم على العمل على تدمير هذا التنظيم. وما زلت مقتنعًا أن أمر التنظيم يختلف عن أمر الفكرة المجرّدة. التنظيم يظل خطرًا. وقوته إذا امتلكها تحوّله في لحظة إلى (عسكر مماليك جُدد) وكان لا بد من إيقافه.

لقد أديّت واجبي المطلوب مني على أعلى مستوى ممكن من الدقة والحرفيّة، ولم يكن من ضمن واجباتي إفشاء أسرار تنظيمية، فالتنظيم كتاب مفتوح لجميع الأجهزة الاستخباراتية في الداخل والخارج. ومهمّة إفشاء الأسرار مهمة الجواسيس (الصغار) الذين يتم زرعهم بين حين وآخر، كهذا (المغفّل) الذي جنّدته المباحث بين مجموعة النقابات المهنيّة. مهمتي كانت توجيه العقل القيادي للتنظيم في المسارات

المطلوب التوجيه إليها، والسيطرة عليه، واتخاذ القرارات التي تُبقيه رهن السيطرة دائمًا أبدًا. أن أجعل منه أداة طيّعة في أيدي مجلس قيادة العالم! ألا يتحوّل التنظيم المغلق إلى تيار عام متغلغل في المجتمعات، ووأد أي محاولة لمد جسور الإسهام الحضاري للإسلام بمحاصرة كل مُبدع، فإمّا أن يتحوّل إلى ترس في آلة التنظيم الجُهنميّة. أو نحاربه حتى يخفت بريقه ويختفي صيْته! ومنع أي محاولة للتطّوير. قمع كل بادرة للمراجعة الفكريّة أو التنظيميّة. كبت كل إبداع يخرج عن السيطرة، إعاقة أي تلاحم حقيقي مع الجماعة الوطنية. والإصرار على الانفصال والتعالي على المجتمع، وزرع شعور الاستعلاء بين أفراد التنظيم!

أديّت دوري الذي لم يعلم به أحد حتى اللحظة، ولا شريكة حياتي (عزّة) التي لم أحب في حياتي امرأة مثلما أحببتها، لكنني خدعتها. ولم يكن أمامي غير ذلك، فهي إخوانية شديدة المراس.

المرّة الوحيدة التي وَجّهت القيادة الدولية لي فيها لومًا. عندما بدأ التنظيم يتفكك عقب الثورة، فنقلت لهم سعيدًا ما يحدث، مؤكدًا على أن هذا مؤشر على النجاح، فهو هدفنا منذ البداية، لكنهم أرسلوا لي ردًا شديد القسوة: (أيها الأحمق، لا نريد تحويلهم إلى تيار متغلغل ينتشر في كل مكان. كنا عندما بدأت مهمتك، نخشاهم لأنهم تنظيم. والآن نستطيع القضاء عليهم منعزلين في جزيرتهم، لأنهم ظلوا تنظيمًا. تمامًا كبقعة زيت تطفو فوق سطح البحر، يمكن حصارها والسيطرة عليها ما لم تذب في الماء!)

*****

كنت أمينًا في عملي إلى أقصى مدى ممكن، إذ كانت مهمتي الرئيسية اختراق القرار، وخطف العقل الإخواني وتوجيهه، واكتشفت في نهاية المطاف أن هناك من كان أخطر مني في اختراقه للتنظيم! هؤلاء الذين أصرّوا في لحظة الخطر الحقيقية الداهمة، ألا يصدر القرار من الأساس!

كلنا ساهمنا في حشد الناس إلى المحرقة الكبرى –هولوكوست القرن– وكانت مهمتي التي كرّست لها حياتي غير نادم، هي القضاء نهائيا على فكرة التنظيم الشمولي العابر للقارات باعتبارها فكرة مزعجة غير واقعية، لا يجب التسامح معها. وكان دور التنظيم قد انتهى تمامًا باندلاع مظاهرات ثلاثين يونية، وأصبح أمامي طريقان لإعلان هذه النهاية المحتومة. الطريق الأول الدعوة إلى انفضاض السامر واعلان الفشل، والبدء من جديد من نقطة الصفر وفق أسس ومفاهيم جديدة كليًا، تأخذ في الحسبان نظريات وتجارب العصر في أسس إنشاء مؤسسات المجتمع المدني. كان هذا هو اختياري المفضل، فلم أكن ممن يحبّذون إراقة الدماء على

جوانب الانهيار الحتمي للتنظيم العتيق. لم أحاول –وأنا الجاسوس– أن أدفع البشر إلى محرقتهم!

لكن دهّاقين آخرين في القيادة بدا لهم إصرار عجيب على اختيار طريق إهراق الدماء بكثافة، قربانًا لن يُفلح في الإبقاء على كيان مهترئ، لإقامة المآتم والبكائية عليه أبد الدهر! هؤلاء هم القادة الذين رأوْا نُذر الدماء مرة تلو أخرى وأصروا على إراقته حتى النهاية، ولو دفعوا من دمائهم ودماء ذويهم ثمنًا لمجد الصمود الأسطوري الموهوم!

*****

ولا تسل بعد ذلك يا صديق رحلة الاختراق المديدة، التي وضعتُ تفاصيلها بين يديك، عن عدد مرّات الاعتقال التي تعرّضتُ لها. ولا عن المحاكمات العسكرية. ولا عن بدلة الإعدام الحمراء التي أرتديها اليوم! فلا يفت فطنتك أنه لا أحد داخل السلطات المصرية المتعاقبة عرف بمهمتي! كل العَذابات السابقة، عَذابات حقيقية مدفوعة الأجر بسخاء!

الاتفاق الوحيد الذي أنتظر الوفاء به من السادة المتحكّمين في سياسات العالم. هو الإنقاذ من حبل المشنقة. حيث يقضي (الديل) المبرم بيننا على أنهم لا يتدخّلون فيما أتعرض له أو يحدث لي، إلا في حالة واحدة فقط. هي إيقاف تنفيذ حكم الإعدام!

"تمت"